



لولوة المجرات

رواية

وجдан الحامدي

فاتحة الرواية: بداية الانفجار



في أرضٍ لا تعرف للظلمام معنى، حيث النور يفيض بلا انقطاع كأنه نهر أبدى لا ينضب، ويمتد فوق الليالي والنهارات بلا فاصل، عاشت قلة من الأفراد الذين خصّوا بموهبة نادرة: القدرة على استدعاء الظلمام من قلب النور نفسه. كانوا بمثابة الميزان الخفي الذي يحفظ الكون من الانهيار، لأنّ النور إذا انفرد، صار حارقاً قاتلاً، والظلمام إذا استبد، صار خانقاً مُفنياً. هؤلاء القلة كرسوا أعمارهم، بل وقرؤنا متواصلة، ليُبقوها هنا التوازن قائماً، حتى أن أجسادهم لم تعد بشرية خالصة، بل تحجّرت شيئاً فشيئاً وصارت كتلاً بيضاء تُشبه العاج، بينما قلوبهم ظلت مشتعلة بوميض لا ينطفئ. لقد نالوا هذه الخلود بفضل شلالات "السيرون" الغامضة، التي تُخفي بين هدирها طاقة النور والظلمام معاً، وكأنها الحاجز الذي لا يسمح لكتفة أن ترجم على الأخرى.

ومن رحم هذه التضحيات، انبثقت حضارة عظيمة أطلقوا عليها اسم الرون. شعب متفرد، أجسادهم قوية لا تنحني أمام الزمن، وملامحهم كُتبت عليها علامات الخلود. حين يموت أحدّهم، يُلقي قلبه في شلالات ستون، فيتبدل لونه وفق ما حمل في حياته من نور أو ظلام. وهكذا صار ميزان العالم يُحفظ بقلوبهم الملقاة، حيث يتعانق الأبيض والأسود في صراع أزلي لا ينتهي. ورغم هذا التفرد، ظلوا يتنددون بأسماء بشرية، لأن الإنسانية التي ولدت في عروقهم أول مرة ما زالت تصرخ في دواخلهم، تأبى أن تختفي.

وفي قلب هذه الأرض المتناقضة، ولدت يارا. فتاة تحمل جمالاً فريداً يجرح العيون، جمالاً كالسيف: براقاً، قاتلاً في آن واحد. عينها سماويتان، لكن شعرها لم يكن مستقراً، يتبدل لونه بين الأحمر الناري الذي يُشبه الشفق حين يحتضر، والداكن الذي يُذكّر بسواد العاصفة. وأرض المورون، أرض بيضاء صقيعية، تحرسها وحوش لا يهابها أحد، ويحرسها رجال موشومون بنقوش تُشبه لعنات أبدية محفورة على أجسادهم. أرض لا نور فيها ولا ظلام، بل برد سرمدي يتجاوز الحياة نفسها.

المورون، في الأزمنة القديمة، كانوا يتزاوجون مع البشر الأوائل. أولئك البشر كانوا الرابط المقدس بين الحضارات، صلة الوصل التي حفظت التوازن. لكن مع اندثار الأسلاف، انغلق المورون على أنفسهم، وأغلقوا أبوابهم في وجه البشر والرون وكل وارد غريب. صاروا شعباً متعالياً يقدّس نقاهه ويعادي أي خليط، حتى وإن كان يحمل بذور القوة. ومنذ ذلك الحين صار مجرد الانتماء للجنس البشري خطيئة لا تُغفر.

أمّا يارا، فلم تولد وهي تحمل قوة خارقة كما اعتاد المورون، بل حملت شيئاً أnder: قلباً مولعاً بالقتال، وشغفاً لا يُقهّر للوقوف في وجه المستحيل. كان بداخلها شيء أشبه ببذرة قديمة من أسلاف البشر الذين عبروا الأزمنة، عزيمة خامدة لا توقظها إلا النار.

وبذرة من صميم شعب الرون الناهضون بالعالم من خلال تضحياتهم التي لا ترى و من خليط كوني رائع

و من نار المتقدة من شعب الزورا

وهنا ظهر كون، الرحـال الغـيرـب من حضـارة الزـورـا. شـعب الزـورـا كان مـزيـجاً مـتـفـرـداً، جـمع دـمـاء الفـجـر والـبـشـر وبـقـاـيـا الأـثـر القـدـيم، حتـى صـارـوا أـشـبـه بـتـرـحـال مـتـجـسـدـ، لا أـرـض لـهـم ولا وـطـنـ، لكن في دـمـائـهـم تـجـري أـعـظـمـ هـبـةـ: التـحـكـمـ في الزـمـنـ ذاتـهـ. لمـ يـكـونـوا فـقـطـ عـابـرـي أـرـاضـيـ، بلـ عـابـرـيـ لـحـظـاتـ، يـقـفـزـونـ بـيـنـ الـلـحـظـاتـ كـمـاـ يـقـفـ المـرـءـ بـيـنـ الـظـلـالـ وـالـأـنـوـارـ.

وجوارا، ابنـ كـوـنـ، وـلـدـ حـامـلاً إـرـثـ جـدـهـ الأـعـظـمـ، الأـسـطـورـةـ الـتـيـ لمـ تـتـوـقـفـ يـوـمـاـ عنـ التـرـحـالـ. أـبـنـاءـ الزـورـاـ لمـ يـعـرـفـواـ الـاسـتـقـرـارـ، كـأـنـ الـأـرـضـ تـرـفـضـ أـنـ تـحـضـنـهـمـ طـوـيـلاـ، وـمـعـ ذـلـكـ كـانـواـ أـكـثـرـ التـصـاقـاـ بـهـاـ مـنـ غـيرـهـمـ، يـطـوـوـنـهـاـ بـأـقـدـامـهـمـ الـعـارـيـةـ، يـتـرـكـونـ خـلـفـهـمـ حـكـاـيـاتـ وـرـمـادـ مـعـارـكـ، وـيـخـتـفـونـ قـبـلـ أـنـ يـدـرـكـ الـآـخـرـونـ هـوـيـهـمـ. لـكـنـ هـذـاـ التـرـحـالـ الدـائـمـ جـعـلـهـمـ صـيـداـ سـهـلاـ لـلـوـحـوشـ الـعـاقـرـةـ، تـلـكـ الـكـائـنـاتـ المـرـوـعـةـ الـتـيـ لاـ يـعـرـفـ أـصـلـهـاـ، لـاـ جـسـدـهـاـ يـخـضـعـ لـقـوـانـينـ الـطـبـيـعـةـ، وـلـاـ وـلـادـهـاـ تـشـبـهـ وـلـادـةـ الـمـخـلـوقـاتـ. كـانـتـ تـظـهـرـ فـجـأـةـ مـنـ الـعـدـمـ، تـخـتـفـيـ كـأـنـهـاـ لـمـ تـكـنـ، وـتـرـكـ خـلـفـهـاـ أـشـلـاءـ وـبـقـاـيـاـ رـمـادـ. لـأـحـدـ يـدـرـيـ إـنـ كـانـتـ تـنـتـيـ لـلـظـلـامـ أـوـ لـلـنـورـ، أـمـ أـنـهـاـ لـعـنـةـ ثـالـثـةـ وـلـدـتـ مـنـ خـطـايـاـ الـعـالـمـ.

وسطـ هـذـهـ الـفـوـضـىـ، وـجـدـ كـوـنـ الـطـفـلـةـ يـارـاـ. كـانـتـ مـسـتـلـقـيـةـ بـهـدـوـءـ بـجـانـبـ جـثـةـ أـمـهـاـ المـتـحـلـلـةـ، لـكـنـ بـدـلاـًـ مـنـ أـنـ تـبـكـيـ أوـ تـرـجـفـ، أـطـلـقـتـ ضـحـكـةـ صـغـيـرـةـ، ضـحـكـةـ بـرـيـئـةـ كـسـرـتـ قـلـبـهـ، كـأـنـهـاـ تـضـحـكـ عـلـىـ الـمـوـتـ نـفـسـهـ. أـخـذـهـاـ مـعـهـ إـلـىـ بـيـتـهـ الـمـتـوارـيـ فـيـ صـحـرـاءـ النـجـومـ، تـلـكـ الـصـحـرـاءـ الـتـيـ تـضـيـءـ لـيـلـهـاـ الـأـرـوـاحـ حـينـ تـبـسـطـ النـجـومـ أـذـرـعـهـاـ. هـنـاكـ،

النجوم لم تكن مجرد زينة في السماء، بل بوابات تُطل منها الأرواح على العالم، تراقب وتحرك الخيوط الخفية للحياة.

وهكذا، بدأت قصة يارا. قصة لم تُكتب لتكون مجرد سيرة طفلة غريبة، بل ملحمة تحمل في طياتها أسرار الحضارات، وصراع النور والظلم، وعناد الإنسان أمام قدره. قصة أبوابها لا تُغلق، بداياتها لا ترتبط ب نهاياتها، بل تُشعّل عطش القارئ للغموض، وتتركه دائمًا على حافة الترقب، حيث الطريق أمامها لا يزال طويلاً، مليئاً بالمفاجآت، محملاً بدماء وضحايا، ومرصوفاً بقلوبٍ تُلقى في الشلالات إلى أن يقول القدر كلمته الأخيرة.

الفصل الثاني: الفراغ

صراخٌ مدوٍّ يتردد في الأفق، ونحيبٌ مريضٌ يتسرّب من بين الشقوق العميقه التي ملأت الأرض المتهالكة، كأنها تتأوه من ثقل ما تحمله. أصوات أطفالٍ، بائسة وممزقة، ترتفع متقطعة، تنادي باسمٍ واحدٍ يتردد كرجاءٍ ضائع: "يارا... أنقذينا...".

لكن يارا، وسط ذلك الضجيج المتشابك، تقف كالعااجزة؛ لا تفهم، لا تدرك، ولا تستطيع تفسير ما يحدث. ثم فجأة، يتجلّى أمامها وجهٌ لم تره من قبل قط، ومع ذلك تعرفه بحدسٍ غامض... إنه وجه أمّها، واضحًا، صافيًّا، كأنّ الزمن نفسه تراجع ليكشفه لها.

غير أنّ الصمت الذي حاول أن يتكون بينها وبين ملامحه ينكسر على حين غرة، حين يخترق المكان صفيرٌ مربع، حادٌ، قويٌّ إلى درجةٍ هزّت أوصالها. كان الصوت ينبعث من شلالاتٍ هادرة، لا ماء فيها بل دماء حمراء تهمر بجنون، متلائمةً تحت ضوءٍ مائلٍ للظلمة، فتزيد المشهد مهابةً وذهولاً.

يارا، مشدوهٌ، تتسمّر عيناهَا، فإذا ببصّرها يلتقط هيئهً مهولة: وحشٌ عملاق، جسده ينثني بثقلٍ رهيب، يجثو فوق سحابةٍ كثيفٍ قاتمةً كأنها قطaran يغلي. ارتجفت، إذ بدا كأنه كائن من فوضى ما قبل الخلق، ساكنًا لكنه يوحي بانفجارٍ وشيك.

لم تفهم يارا شيئاً... بل ما تزال لا تفهم. ومع ذلك، كان فضولها يزحف من أعماقها كعدوٍّ خفيٍّ؛ كلّما حاولت كبتة، كلّما باعثتها وسرق منها حذرها للحظة، تاركًا عقلها

الصغير يتيمه في تياراتٍ من ذكرياتٍ غريبة. ذكرياتٌ لا تخصّها وحدها، بل كأنّها بقايا أرواح مرّت قبلًا، تزور ذهنها كطيفٍ مشوّش.

وخارج عالمها الغارق في الرؤى، كان جواراً جالسًا بقربها، يرقصها بصمتٍ ثقيل. حبات العرق تتصلّب على جبينها، تنساب على ملامحها المرتجفة، ومع ذلك لم يجرؤ على إيقاظها. ظلّ متسمّراً، مشدوداً إليها، يتأمّل جمال وجهها الأبيض الذي يغدو أكثر غموضاً تحت خيوط العرق. عيناه تتوقفان عند شعرها، حيث يتسلّل اللون الأحمر الداكن في خصلاته كجميرٍ مخبوء، ثم على كتفها حيث تتوطّن علاماتٌ غريبة.

تلك العلامة... بدت كطعنةٍ غادرة، مباغتة، أتت دون سابق إنذار. ومع ذلك، فإنّها كانت باهتة، ضئيلة، بالكاد تُرى... كأنّها سرّ مختوم، ينتظر لحظةً معينةٍ كي يستيقظ.

الفصل الثالث: ما بعد الفراغ

استيقظت يارا من حلمها المزعج، وعيناها نصف مغلقتين، فيما يداها الصغيرتان ترتعشان ببرودةٍ غريبةٍ تتسلل إلى جسدها كخيطٍ من جليدٍ يلتف حولها. كان ذلك الارتعاش أشبه بوخزٍ ينهش أطرافها، ثم يتغلغل شيئاً فشيئاً في أعماقها، حتى شعرت وكأن الموت ذاته يحيط بها من كل جانب. أحاطها إحساسٌ خانق، إحساسٌ بأنها محاصرة داخل غيمةٍ سوداء كثيفة، خاليةٌ من أي ملامح للحياة، غيمةٌ مشوهةٌ لا تشبه السماء ولا الأرض، كأنها تجسيدٌ لعدمٍ مطلقٍ يتطلع كل نور.

وللحظةِ قصيرة، خُيّل إليها أن تلك الغيمة لا تحاصر جسدها فحسب، بل تلتف حول روحها أيضاً، فتجرّها إلى هاويةٍ بلا قرار. ورغم أن عمرها لم يتجاوز الشهر بعد، إلا أن تلك الكواكب المفزعة تتكرّر، كأنها ملزمةٌ لدمها، تأتّيها مع كل إغفاءة، لتملأ قلبهما الضئيل بالخوف، وتُسرّع دقاتٍ نبضها الصغير حتى تهتزُّ ضلوعها، فيبدو صدرها وكأنه يتّأرجح بين الحياة والموت. شهقاتها المتتالية، القصيرة والمتلاحقة، بدت وكأنها تحاول اللحاق بالزمن، أو كأنها تتسابق مع أنفاس العالم لتبثّ أنها ما تزال حيّة.

أما جوارا، الذي يرافقها منذ ظهورها كظلٍّ صامتٍ لا يفارقها، فقد ظلّ يرقّها بقلقٍ متزايد، يحاول عبّاً أن يفهم ما تمرّ به. لكن كل محاولاته كانت تصطدم بجدارٍ غامض؛ لم يكن يملك أي إجابة. لم يكن يعرف من تكون هذه الطفلة التي استحوذت على يقينه، ولا من أي مكان جاءت، ولا حتى اسمها الحقيقي. الشيء

الوحيد الذي تمسّك به هو ملامحها المشرقة، وجهها الصغير الذي يتوهّج بضياءٍ لم يعهد من قبل، نورٌ دفعه لأن يمنحها اسمًا من قلبها: "يارا".

ومع ذلك، لم تكن يارا ذاتها قادرة على فهم هذا الرعب الذي يتسرّب إلى أحلامها، ولا تلك الصور الغامضة التي تزورها في نومها وتشغل روحها. غير أنّ اسمها، "يارا"، لم يكن وليد صدفة؛ فقد سمعه جوارا لأول مرة من على لسان العجوز الغامضة التي كانت تظهر بين الحين والآخر للرّحّالين. تلك العجوز، التي تحمل هالةً من الأسرار، لم يعرف أحد من أين أتت ولا متى وصلت، وكأنّها انبثقت من طيّات الفراغ.

كانت كلماتها رقيقة، تُقال بصوتٍ هادئ يشبه نسيم الصباح حين يلامس أوراق الشجر: "يارا تعني صفاء السماء وتدفق نعومة بتلات الريحان". ومنذ تلك اللحظة التصق الاسم بها كقدرٍ مكتوب. أمّا تلك العجوز نفسها، فقد تبيّن أنها ليست ككل البشر، بل تنتمي إلى شعب "الزورا"، أولئك الذين يمتلكون قدرةً خارقة على التحكّم بخيوط الزمان، يقصّونها ويشبّكونها كيّفما شاءوا، كحائطٍ عجوز يتلاعب بجدائل القدر.

وذلك اللقاء القصير كان بالنسبة ليارا الصغيرة بدايةً لعالمٍ أكبر مما تحتمله سنّها. الشيء الوحيد الذي بقي راسخًا في ذهنها الضبابي هو حضور تلك المرأة، ظهرها المفاجئ من العدم، وكيف انحنىت عليها بابتسمةٍ مهملة تحمل مزيجًا من الحنان والرهبة. ومنذ أن لم تعرف لها اسمًا، همسَت لها بلفظة طفولية كانت أول ما نطقَت به شفاتها الصغيرة: "تاتا".

وهكذا صار "تاتا" أول اسمٍ يخرج من فم يارا، وأول جسرٍ يربطها بعالم الأسرار الذي ينتظرها. لم يكن مجرد نطق بريء، بل كان إعلانًا خفيًا عن بداية رحلة طويلة، طريقٍ يتشابك فيه الحلم بالواقع، ويتمنج فيه الغموض بالقدر، رحلةٌ ستكتشف لها - يومًا ما - أسرار ميلادها ومعنى وجودها في هذا العالم الموحش.

وكان الشاب، الذي وجد نفسه أباً على حين غفلة وهو في الخامسة والعشرين من عمره، قد أنهكته سنتان ثقيلتان كالجمر المشتعل، سنتان تركتا على ملامحه ظللاً قائمة وعلى روحه ندوباً أعمق من أي جرح في الجسد. وكلما نظر إلى صغيره، كان إحساس غامض بالانقباض يتسلل إلى قلبه، إحساس لم يستطع تفسيره أو التملص منه. لم يكن السبب موت زوجته وحسب، تلك التي افترستها الوحش العاقرة في ليلة حalka السواد لا يضيئها إلا برق عابر، بل لأن الطفل نفسه بدا وكأنه مرآة حية تعكس وجهها الغائب.

فلامحه الصغيرة تحمل نقاء وجهها، وابتسامته الخجولة تُذكّره بضحكتها التي كانت كنسمة صباحية تطرد الكآبة من قلبه، ورقة عينيه تومض بعمقٍ يشبه بريق المحيط بعد العاصفة، وكأنها نافذة مفتوحة على روحها المفقودة. كان كل ما في الطفل يواظب في صدر كون جرحاً لم يندمل، جرحاً لا يلتئم مهما مرت الأيام أو ثقلت السنون.

لقد رحلت إيمي، تاركة خلفها آخر نسل لها، لأن القدر تواطأ مع تلك الوحش المتعطشة للدماء ليطوي معها صفحة عائلتها إلى الأبد. بدا وكأن لعنة قديمة خيمت على كل من أراد أن يرحل أو يغامر، لعنة تجعل الأرض تضيق بأقدامهم حتى لو ساروا في فضاء لا يعرف حدوداً.

أما جوارا، الطفل الصغير، فلم يكن في نظر كون مجرد ابن عادي يصرخ ويتبسم وينام بين ذراعيه. لقد كان رمزاً حياً، بذرة خالدة لتلك المرأة الجورية التي وهبته

حياتها ورحلت، بذرة نبتت من رمادها لتنذر كل يوم أنها لم تمت حقًا. كان كون يرى فيه امتداداً لإيمى، تلك الفتاة الصهباء ذات الشعر المشتعل كاللليب، والتي جمعت في شخصيتها بين الجمال المهيّب والعناد الذي لا يُقهر، وبين الكبرياء الجامح الذي خذلته في النهاية عيون آسرة، عيون تحمل فتنة البحر الأزرق حين يهدأ بعد العاصفة.

كان يصفها دائمًا بأنها امرأة عنيدة، عنادها يصدّ الرياح، ويقف في وجه كل خصم، لكنه سرعان ما يذوب حين يلتقي بدفعه قلبها وحنانها الغامر. ذلك الحنان ظل يطوف حول كون حتى بعد أن لفظت أنفاسها الأخيرة، وكأن روحها أبت أن تغادر البيت الذي سكنته معه. فحتى بعد موتها، كان يشعر أحيانًا بظلها يحوم، أو بصوتها يتتردد في الأرجاء، أو بعطرها الذي يطل خفيفًا كما لو أن الهواء ما زال وفيًا لها.

استند كون على جذع نخلة هزيلة، متعبة من الصمود تحت وهج النور المتفجر في الأفق، وكأنها تعلن بصمت أن الحياة لا تُقاوم إلى الأبد. أوراقها اليابسة تناشرت على الرمل الساخن، تشهد على معركة غير متكافئة بين ما تبقى من الخضراء وبين لهيب السماء. كان العرق يتصلب من جبينه، لكنه لم يكن عرق تعب جسدي فحسب، بل عرق من يحاول الاحتماء من مصير يلاحقه أينما ولى.

النور... ذلك النور الذي كان يومًا مهدًا للحضارة الرون، أصبح فاجعة لشعب الزورا المخذول. لم يعد ضياءً يبارك الحياة، بل نارًا تعاقب كل من تجرأ على التنفس في صحراء بلا نهاية.

في تلك اللحظة، كان جورا يرمق يارا بعينين متعبتين من السهر والخوف. جسدها الصغير غارق في البياض، يلوح كأنه قطعة ضوء واهنة تتلاشى مع كل نفس. لم يستطع أن يغض بصره عن كتفها الأيسر؛ هناك ندبة صغيرة، باهتة لكنها واضحة، تشبه جرحاً قديماً التحتم على عجل. كانت أقرب إلى طعنة قوس اخترقت لحمها ثم انتزعت بوحشية. جورا، رغم صغر سنها، تساءل: كيف لطفلة لم تُكمل شهرها أن تحمل أثر موت سابق على جلدتها؟ كأنها ولدت ومعها تاريخ دموي لم تعشه بعد. لكن تفكيره تلاشى سريعاً؛ فقد تعود أن يتطلع أسئلته كما يتطلع دموعه.

ابعد قليلاً نحو زاوية الحصن. هناك تجويف حجري سمح له بالجلوس دون كرسي، فامتنس للنعاس. أحلامه كانت دائماً معلقة بوجه والده، الذي غاب شهراً كاملاً في رحلة لم يفهم سببها. اعتاد رحيل أبيه المفاجئ منذ كان في الثانية من عمره، لكن ذلك لم يخفف من حنينه ولا من خوفه من أن يغيب للأبد.

في متناول نظره، فوق الرف الحجري، كان الخنجر يلمع ببرود كأنه يسخر من عجزه. حاول أن يمد يده، أن يقف على أطراف أصابعه، لكن جسده القصير خانه. كان يريد أن يقطع الحبل الذي قيد يارا، أن يحررها ولو للحظة. لكن العجز أقوى من النية.

أما كون، فلم يستطع تجاهل صرخ يارا المستمر. صراخها لم يكن مجرد بكاء طفلة، بل كان صدى لروح تتمزق. دموعها سالت حتى بللت الفراش، وجسدها الصغير يتقلب في كل اتجاه. لم يجد كون حلاً سوى أن يربط قدمها إلى العمود الحجري، كي

يمنعها من السقوط أو من إثارة المزيد من الضوضاء. ثم غطتها بطوق من فراء حيوان النديم، لعلها تهدأ.

ذلك الحيوان لم يكن مجرد مخلوق عابر؛ كان أسطورة بين الجمال العجيب والقوة الصارمة. فروه الكثيف، الذي يشبه غيوم الشتاء، يُقال إنه رمز للحنان الذي يُحرم منه الأيتام. بالنسبة ليارا، كان الفراء أول هدية وأخيرها، دفء وسط بروادة هذا العالم السقيم.

في عمق الصحراء المترامية، حاول كون أن يجد لنفسه مهرباً من الطيور الجارحة التي حلقت فوقه. اختباً خلف صخور ضخمة، لكن قدميه لم تعودا تحتملان. الجرح الذي نزف بشدة استنزف طاقته، وكل خطوة كانت تسرق منه عمرًا. الهروب لم يكن سوى حل مؤقت.

مضطراً، مد يده إلى جرة صغيرة عالقة في حقيبته، واستخرج منها طين الحياة. مادة لزجة، بلون أخضر غامق، تفوح منها رائحة تذكّر بالأرض المبتلة بعد المطر. دهن بها جرحه ببطء، شعر بحرقة قوية كأن اللهب يُسكب على جلده، لكنه تحمل. الطين أوقف النزيف، لكنه لم يوقف الألم. تابع السير بخطوات مثقلة، متعرّة، فيما عيناه تبحثان عن أفق لا ينتهي.

من بعيد، لمح جناحين هزيلين يتحركان بين تيارات الهواء الساخنة. لم يكن أي طائر مألوف؛ إنه الكارون. طائر ماكر، يعيش على رصد الدماء قبل أن يشبع من لحمها.

عيونه السوداء كأنها ثقوب في السماء، حدقت فيه باهتمام، متتبعة أثر الجرح. عرف كون أن وقته يضيق.

حاول أن يشتت رؤيته بالركلض في مسارات متعرجة، لكن الإغماء كان يلوح له كظل لصيق. بين كل نفس وآخر، كان يسمع صوت والده، ذلك الصوت الذي اعتاد أن يسميه "خرافة" ويستهزئ به.

"بني... هناك في سماء الصحراء نجمة واحدة تتوق إليها كل الأرواح الطائفة. يحلم الجميع بسرقتها، لكنهم يفشلون. السبب؟ أن روحًا علقت فيها منذ قرون. النجوم لا تبقى باردة يا بني، إنها تتغذى من مشاعر البشر. عندما تجد روحًا مستفرغة، تمتصها حتى آخر قطرة. تلك الروح التي علقت بالنجمة... كانت لامرأة جائعة. أما أكلت طفلها بيدها بسبب زوجها. لا تسألني كيف، بل اسأل نفسك: هل تقدر أن تصحي بما هو مقدس عندك خوفًا من شيء آخر؟"

تردد صدى القصة في رأس كون، ثقيلاً كأنه جرح آخر. والده ختمها يوماً بجملة لم ينسها:

"نحن مخلوقات ملوثة يا بني. لا نعرف معنى زوال المحن. نحن نولد من الشقاء، لنمطر شقاءً أكبر."

تلك الكلمات طعنت صدره أكثر من الطيور أو الجوع. لكنه ظل يسير، بين خوف من الكارون، وألم الجرح، وحكاية نجمة مشؤومة تحرسها روح أم ملعونة.

اندفع السيف نحو الطائر فجأة... وفي اللحظة ذاتها اجتاح كون شعور غريب، طاقة متدفقة تسري في عروقه، كما لو أن صاعقة أيقظت ذاكرته على كلمات أبيه.

تجسدت الصدمة مباشرة حين لمح اللمعان الوحشي للسيف ينطلق نحوه بسرعة جنونية، محدثاً صريراً حاداً يشبه احتكاك الفولاذ بصخرة قاسية. كان الصوت قوياً لدرجة أجبرته على الانحناء إلى الأسفل، فقبض على قدمه المجرحة، ونزع الرباط الذي كان يضمّد جروحه القديمة، ثم سدّ به أذنيه ليصدّ عن عقله الارتباك المؤلم، قبل أن ينطلق بكل ما تبقى من قوته وجراته نحو الصخرة.

السوط المعدني. السيف. شق السماء في حركة سريعة، كأنه عقاب أزلي للأرض التي كتمت مآسمها لسنوات. انقضّ ممزقاً لحم الكارون، ذلك الطائر العملاق الذي لم يكن اخترق جسده بالأمر الميّن. ومع ذلك حاول كون، في كل مرة، أن يشد الطائر إلى الأسفل، لكن كل محاولاته ارتدت عليه، بدائية، عقيمة... وكان الطائر نفسه يرفض الخضوع.

وانتهى المشهد بتهاوي أشلاء الطائر، متناثرة كبتلات ورد تتطاير في ربيع دافئ. وفي المقابل، ارتفعت سحابة سوداء كثيفة، أمطرت مطراً كريه الرائحة، أحمر داكن، غلّف الأجواء بالغيظ والدهشة. عندها أطلق كون زفراً ثقيلة، ثم حدق في السيف المستلقي فوق الجذع المتآكل، يتأمل هالته الحزينة المليئة بالألم. شعور بالبؤس اجتاح قلبه، فرفع رأسه طويلاً محاولاً استيعاب ما حدث، غير أن الواقع بدا أقرب إلى مزحة قاسية.

ولذلك تسأله: لماذا لم ينجح في قتل الطائر اللعين؟ ولماذا ظهر السيف، كوحش غامض، ليقطع لذة الانتصار؟ اجتاحه غضب عارم، فصرخة بائسة انفجرت من أعماق إرهاقه، بعد شهر كامل لم يعرف فيه طعم الراحة ولا الاستقرار. وفجأة، وبدون سابق إنذار، دوى صوت غرغرة عميق من فوهة انفتحت في الأرض، تتبعه الرمال إلى أعماق الصحراء. ومع كل لحظة، كانت الحفرة تتسع، كأن المكان كله يتحول إلى فوضى حية.

قال كون بنبرة متأرجحة بين الألم والسخرية: "بئسًا، ليس هذا السيف... لكنه أملٍ في النجاة حيًا..." ثم تحطم قدمه، وسمع صوت العظام وهي تتكسر، غير أن الألم أصبح تفصيلاً ثانويًا أمام لفز هذا السيف الغامض. زحف ببطء، قبض على مقبضه بكل ما تبقى من جبروت وعزم، ثم غرس قدميه في الأرض رغم الوجع، يهز رأسه مرارًا ليثبت وعيه، فيما الحفرة تتسع أكثر فأكثر، تجتاح كل ما حوله. بدا الجنون سيد الموقف.

وفجأة، صدر صوت مزمجر كإغلاق باب حديدي ضخم. ارتعشت كل شعرة في جسده حين فتح عينيه، وقال بصوت مرتجف: "سحقًا... هل خرج الجحيم عن صوابه؟ ما هذا؟" لم يكن يبالغ حين رأى رأس المسلح الأسود يتتصاعد من الحفرة، والديدان تزحف على جسده كأنها حديقة ميتة. ورغم هول المشهد، قادته غريزته إلى التركيز، فكون لم يكن من أولئك الذين يهرون بالمناظر... لكن هنا، أي منطق ينهر أمام هذا الفزع الحقيقي؟

ارتطم رأسه بمقبض السيف ليستعيد السيطرة، فيما ظل الرأس يرتفع كبركان على وشك الانفجار. تتمم محاولاً النهوض: "بئسًا لكِ، أيتها الأقدام... انهضي!" عندها بربت عيون المسلح، تفيض سائلاً أخضر لزجاً ومقرضاً. كل شيء بدا ضد إرادته، ومع ذلك احتضن كون السيف كمن يحتضن آخر أمل له، متربقاً مصيره المحتوم. وفي اللحظة نفسها، اندفعت يد مجهرولة وانتشلته بسرعة خاطفة، بينما الأسفل غرق في فيضان من الدماء يتدفق من قلب الصحراء، كتذكار لفوضى أبدية مرت بهذا المكان.

«إنهض أيها المتحذلق... إنهض، إنك ثقيل!»

– من هذا... أخ، يا لهذا الصوت المزعج...

فتح كون عينيه بصعوبة، وكأن جفنيه مثقلان بالرصاص. الدوامة التي تحوم حول رأسه كانت تعصف بكيانه كله، دوخة لرجة تلتف حول دماغه كدوامة مياهٍ سوداء لا مخرج منها. أماماه، وجه مشوّه بالنذوب، صاحب بالصراخ، يهزه بعنف، تختلط في صوته نبرة الغضب برعشة الخوف. وما لبث أن تبيّن الملامح وسط الضباب الذي يُثقل نظره، فإذا به بيروم... صديقه المنحوس، الذي اختفى أثره منذ يومين، كأنه ذاب في العدم.

قال كون، وهو يزح يده ببطء متناول، بنبرة يغلفها الإرهاق والاستهزاء معاً:

– أهذا أنتِ... أيتها الأميرة الهازبة؟

غير أنّ بيروم لم يلتفت إلى سخريته المعتادة؛ فقد كان وجهه باهتاً كقمash مبلل بالرماد، عيناه متسمّرتان على المشهد الكابوسي في الأسفل. ابتلع ريقه بصعوبة، حلقة جاف كالصحراء، ثم تتمم بصوتٍ يرتجف بين نبرة الذهول والرعب:

– كون... ماذا فعلت حتى أخرجت الشيطان من حجره؟ وكيف لهذا السيف أن يكون هنااااا؟ أخبرني، أيها اللعين... أنت وأنا سنموم... سنموم دون أن نرى الحرية...
بئسًا!

وبينما كان يقول كلماته، تساقطت دموعه كسيلٍ مالحٍ على وجنتيه، وشرع في البكاء بمرارة، وكأن آخر جدار من كبرياته انهار فجأة. أما كون، فظلّ يرمي بدهشة مشوهة بالفتور، وكأن وعيه يسافر في اتجاهٍ آخر، يحاول استيعاب ما يحدث دون أن يجد لذلك تفسيرًا. الهواء من حولهما صار أكثر وحشية، الرياح تصفعهما حتى تكاد تمزق جلود وجههما، أصوات العاصفة تختلط مع دويّ بعيد يشبه أنين الأرض.

قال بيروم، بصوتٍ متهدّج يتارجح بين الوعيد واليأس:

– سأقتلك... لكن بعد أن ننجو من هذا... لا تقلق!

في تلك اللحظة، جرّ كون بصره نحو ساقه، فانتبه إلى جرحٍ غائر يثقل حركته. الدم يتتساقط دافئاً، يتجمّع على الأرض كخطوطٍ متعرّجة، فيما حاول تضميدها بيديه المرتعشتين. لكن جسده كان قد أتمّه، وقواه استسلمت لضعفٍ ساحق. وعلى ظهر بيروم، ظل السيف يتدلّى بثقلٍ خانق، يزيد الجراح عمّقاً، وكأنه لعنة معلقة بهما.

وبفضل جناحين سرقهما من ملكةٍ بائسة لفظت آخر أنفاسها أمامه، استطاع بيروم أن يحلق بهما عالياً. غير أن مشهدًا مروّعاً لم يمح من ذاكرته: طفلان صغيران بجوار تلك الملكة، قد التهمت أننياب المسخ أجزاء من قلبيهما ورأسهما. كان المنظر كافياً لتمزيق أرواحٍ كثيرة، لكن بيروم لم يبال، لم يهتم إلا بالبحث عن أدواتٍ تعينه على مواصلة طريقه الملعون، وكأن الإنسانية نزعت من داخله منذ زمن بعيد.

وفي الأسفل، أخذ الوضع يتعقد أكثر. من تحت المسخ العملاق، اندفعت أفواجٍ من الهياكل العظمية، زحفت كالوحش على أربعة أطراف، تصطك عظامها مع كل خطوة كطبلٍ جهنمي. رؤوسها كانت مقلوبة، وأفواهها المفتوحة تنزف دمًا أسود قاتماً، رائحته عفنة، تخترق الأنف حتى تثير الغثيان، رغم أنهم بلا لحم. كان المشهد يثير الجنون، فيما هي تندفع نحوهما بجموحٍ وحشى.

زاد الهلع في قلب بيروم حتى أجهش بالبكاء من جديد، وصوته يختنق تحت ضغط الرعب. ارتفع بجناحيه محاولاً التحليق أعلى فأعلى، غير أن ثقل كون المعلق عليه وجراحه والسيف الممزق لظهره كبلوه ومنعوه من بلوغ السماء.

أما كون، فقد أحس أن نهايته وشيكه. رفع إصبعه المرتعش نحو السماء، كأنه يطلب عوناً من مجهول، ثم فجأة ألقى بجسده إلى الأسفل. اصطدم بالأرض بقوةٍ عظيمة حتى دوّت طقطقة رقبته في الفراغ، كصوت غصٍّ يابس ينكسر تحت ثقلٍ مهول. لكن ما حدث تلا ذلك كان أغرب من الموت نفسه.

استقام كون واقفاً، وكأنه لم يمت. عيناه اشتعلتا بضوءٍ أسود حalk، مرعب، كظلامٍ متجسد. بشرته تحولت إلى بياضٍ ساطع أشبه بالرخام البارد. أطراقه ارتخت للحظة، ثم شدّت فجأة كأنها قضبان فولاذ، ليقف كالعمود الصلب أمام رأس المسرح. ذلك الوحش، الذي كان يزار ويهدى، توقف فجأة، كأن رهبةً غامضةً كبتته.

بدأت عضلات كون تتشنج، أنفاسه تتقطّع بعنف، ثم سكنت تدريجياً، ليخرج من صدره صهيلٌ جارف، اخترق العاصفة ودوى في السماء. تقدّم بخطى واثقة، كل خطوة تهز الأرض من تحت قدميه، حتى بلغ المسرح ومدّ أصابعه ليلمس منتصف جهته. بصوتٍ خشنٍ كأنه يخرج من قاع بئرٍ مظلم، قال:

– لقد التهمت ما يكفي... عد أيها المسكين.

ثم، وبحركةٍ مفاجئة، استل من جمجمة المسرح حجراً رمادياً، دافن إياه في عينيه. وفي اللحظة ذاتها، هوى كون أرضاً مغشياً عليه، لأن تلك القوة العاتية غادرته فجأة.

ارتعدت فرائص الهياكل في لحظة واحدة، وكان الرعب اخترق عظامها الفارغة. اندفعت نحوه كالفيضان، لكنها لم تصمد أمام اندفاعه الأخير، إذ صدّها بقوّةٍ صاعقة، فتناثرت أجزاؤها العظمية في الهواء، لتسقط على الأرض كحطامٍ بلا روح.

عندما، دوى صوت المسمخ أخيراً، عميقاً كهدير الجبال:

– سأكل حتى يرتوى بئر آثامكم... ذلك الماضي سيعود... وسأعود، لا تقلقوا يا أبنائي...

ثم انبعثت من فمه صرخة مزلزلة، كأنها تمزق طبقات السماء، لتنلاشى فجأة. الرأس العملاق تبخر وسط دخانٍ كثيف كجمير ينطفئ ببطء، والهياكل تحولت إلى غبارٍ متناثر. ساد صمتٌ خانق، لم يقطعه سوى سقوط كون على الأرض، جسده منهك، وعيناه مغلقتان، وقد أغمى عليه تماماً.

لكن الهواء ظل مشبعاً برائحة الدم والدخان، وكان الهاوية نفسها لم تغلق بعد.

تدفع يارا يدها المترعشة نحو صفحات الماء التي غمرت فقاعتها، لكن تلك الفقاعة الغامضة تزداد تلوًّا شيئاً فشيئاً كلما لمسها يارا، كأنها تعكس صراعها الداخلي. وتعلو وجنتها حمرة خجولة حين تحاول النظر إلى الخارج عبر ذلك الحاجز المائي، فيرتد إليها صدى عجزها. وكلما أرھفت سمعها المرتبك، أخذت تتناهى إليها نغمة أغنية بعيدة، صوت أنثوي مبحوح يتسلل إلى رأسها الصغير، رغم أن المرأة التي تصدر عنها كانت جامدة في مكانتها، كأنها تمثال من الألم. وفجأة، مدّت تلك المرأة يدها الباردة ومسحت على شعر يارا بلطف أوميّ مخنوّق، ثم همست بخزي يشق القلب:

"آسفة عزيزتي... أنت لست المذنبة. آسفة... أنت وأباك قد شاركتماني أعزّ مشاعركما، لكن ما باليد حيلة... أنا لا أستطيع المكوث بجانبك أكثر... لستمري، أرجوكِ، دوني، أرجوكِ، لا تجعليني من ذكرياتك."

تنتفض يارا بعدها من نومها فزعة، تتصبّب عرقاً كعادتها، والكوابيس ما زالت تلازمها كرفيق أبدي لا يزول، أو كعِلّة أحبّت قلّها الصغير فارتادته بغير إذن. وعلى النقيض من يارا، كان جورا قد أفقده الشوق طعم المشاعر؛ فبينما يتلوى قلّها بين الكوابيس، كان قلبه هو الآخر يذوي تحت وطأة فقد. لقد عاد والده في حال يرثى لها، محمولاً على كتفي صديقه بيروم، وهي صورة مالبثت أن حطمت عقل جورا البريء. لم يستطع الصمود أمام الصدمة، فركع عند قدمي والده وقبلهما بلهفة جائعة، عطشاً إلى لثم وجوده حيّاً، متجاهلاً ثقل الدماء التي لطخت ثياب الأب ووصمة العار التي انغرست في صدره.

ذلك الأب، ومنذ المواجهة المروعة مع المسلح، لم يهدأ له بال، ولا استقر له جفن، إذ صارت لياليه مرتعًا للكوابيس، تماماً مثل ليالي يارا. غير أن يارا، بعد أن أزهرت وتخطّت عتبة عامها الأول، أخذت تنظر إلى العالم بعين أخرى، أشدّ وعيًا، وأعمق فهّماً. لقد تعمقت مقدرتها على استيعاب الأمور، وأيقنت أن نهايتها محتملة، إذ حملت إليها الأرواح نذيرًا يهمس لها بالفناء.

ذلك النذير ساقها إلى صحراء عانسة، موحشة، لا يقترب منها غير المجنون، صحراء تحمل بين ذرات رمالها لعنة الأبد. هناك ظل بيروم، الصديق الوفي، يواجه عناء مؤازرة رفيقه القديم المستلقي كجثة هامدة منذ أن دفعه السيف الملعون إلى هاوية لا قرار لها. والطامة الكبرى أن ذلك السيف ما زال مغروساً في موضعه، شاهداً على المأساة.

ومع ذلك، استيقظ الأب ذات يوم فرأى يارا أمامه، تلك الفتاة التي أثلجت صدره بنظراتها المشعة، المشابهة لنظرات زوجته الراحلة. اجتازه الحنين كإعصار، فمزق قلبه بذكريات غابرة وألوان لحظات لا تعود. لكنه لم يستطع التلذذ بها، إذ كان عقله متضاربًا، مهدوّاً بأصوات داخلية؛ هناك من يلعنه بمرارة، وهناك من يذكّره باليوم البشع الذي لا يغيب، وهناك خيط خفي لم يقطع بعد، يربطه بالمصير.

بل إن حلماً غريباً ما برح يطارده منذ سقوطه على الرمال الذهبية: شلالات حمراء، تتدفق كحمرة شعر يارا، وقلوب متحولة تحمل أكثر من لون، كأنها لحم متعرّف ينبع بالحياة. لكن أكثر ما أسره كان نظرة البؤس القاتل التي ارتسمت على وجوه

أربعة بشر، أجسادهم محنطة ببياض السنين، بينما عيونهم تبوح بحزن يعصف بالأرواح. ذلك الحلم كان صورة من شلال السيرون، أو ما يُلقب بالستون... مجد البدایات ومصدر اللعنة.

ومنذ تلك اللحظة، غدت يارا كأنها منسوجة من ذات الخيوط الملعونة. أرواحها انصهرت في كوابيس لا تهدأ، نفس الكوابيس التي أخذ كون يحلم بها أيضًا. فتتناغم رؤاها مع أحلامه المجردة من الوضوح، حتى كأنهما يشتركان في سرّ لا يُفصح عنه، بينما الحقيقة تُغلق أبوابها في سرداد من الخديعة والبهتان. وهنا، لا يبقى من سبيل سوى مواجهة الحقيقة نفسها، تلك الحقيقة التي تلتف حول عنق الإنسان كحبل مشنقة متين، لا يرد حكمها، ولا يرحم حتى بعد أن تُعلن البراءة.

بينما كان كون يهاجر جنوبًا، بدت الأرض كأنها سجادة من الشقوق الجافة التي تئن تحت وطأة الشمس اللاهبة، كل خطوة يخطوها كانت تحدث صريرًا يشبه أنين الأرض نفسها. الهواء المحترق يجلد وجهه بلا رحمة، والغبار يتتصاعد مع كل حركة كستار خانق يحجب الأفق. خلفه يجرّ ثقل الذكريات، وأمامه يسعى وراء حقيقة لا يعرف شكلها بعد، لكنه يشعر أنها وحدها ما قد ينقذه من متأهة هذا الترحال الموحش.

إلى جانبه، جوارا يتمايل كغصن هشٍ في مهب الريح، الحمى تنخر في جسده حتى أفقدته القدرة على حمل نفسه، فيسقط تارة وينهض أخرى، قبل أن يتماوى تماماً بين ذراعي كون. عندها، انحنى كون وحمله كأنه يحمل حياته كلها، بينما قبضته الأخرى لا تفلت يد يارا الصغيرة التي كانت تتعثر في خطواتها لكنها تتشبث بأبيه. صورة الثلاثة معًا كانت كأنها لوحة لأب يجرّ عبء عالم بأسره فوق كتفيه، وسط صحراء لا تعرف الرحمة ولا تمنح سوى قسوة لا متناهية.

أما بيروم، ذاك الرحال الصامت، فقد بدا منفصلاً عنهم تماماً، يسير بخطوات واثقة على الرمال وكأنه كائن من صلتها، يختفي بين الصخور حيناً ويظهر حيناً آخر. لم يكن ينظر خلفه، وكأن وحشة الأرض رفيقته الدائمة، أو كأنه يعرف أن لكل شخصٍ قدراً عليه أن يحمله وحده.

في خضم هذا السكون الخانق، انشق الأفق بصوت هادر يشبه انكسار جدار جليدي، ثم ظهر وحش أسطوري يجرّ خلفه ريحًا قاسية: العنقاء الباردة. لم تكن كالنار التي تحرق، بل كثلج ينعش الجلد حتى يقطع أوصاله. عيونها الزرقاء المضيئة اخترقت الفضاء كسهام من برد، وجناحها الضخمان إذا ضربا الهواء حركاً عاصفة كالخناجر تلتف حول المسافرين في دوامة مرعبة.

ارتجمف قلب كون، لكنه لم يسمح لذعره أن يظهر؛ كانت إيارا تبكي بحرقة وجوارا يئن كطفل محطم القوى، وكل ثانية تأخير قد تعني نهايتهم. جرّهم بخطوات متعرّضة حتى احتموا خلف صخرة شاهقة، تكسوها طبقات من الملح الأبيض وكأنها بقايا نهر مات

منذ أزمنة غابرة. التصقوا بجدارها كظلال هاربة، بينما رفع كون رأسه ببطء كمن يواجه قدره المحتم.

قبض على سيفه، وإذا بالحديدة الباردة تشتعل في يده كوميض برق خرج من رحم الظلام. بخطوة واحدة اندفع، وضرب نحو رأس العنقاء، لكن قرونها الجليدية اعترضت الضربة فتناثر الشر كالثلج المفتت. اهتز جسده من قوة الصد، وأدرك أن المواجهة المباشرة لن تجدي.

حينها، أطلق من جيشه مياه الـيـمنـة مـمـتـزـجاً بـمـنـوـمـ يـنـسـابـ عـبـرـ أـنـفـاسـهـ،ـ مـحاـوـلـةـ أـخـيـرـةـ للـسـيـطـرـةـ عـلـىـ وـحـشـ لـاـ يـعـرـفـ الـخـضـوعـ.ـ لـكـنـ قـسـوـةـ الـعـنـقـاءـ الـبـارـدـةـ كـسـرـتـ وـهـجـ سـحـرـهـ،ـ فـارـتـدـتـ الـقـوـةـ عـلـيـهـ حـتـىـ كـادـ يـسـقـطـ.ـ عـنـدـهـاـ،ـ قـادـهـ حـدـسـهـ إـلـىـ الـعـشـ الـقـرـيبـ،ـ حـيـثـ كـانـتـ بـيـضـةـ ضـخـمـةـ تـحـتـضـنـهاـ الـرـيـحـ الـبـارـدـةـ.

انتزع البيضة بكل ما تبقى له من قوة، وضربها حتى انشق غلافها، فانفجر البرد من داخلها كفيمة متجمدة غمرت جسده. تسربت إلى مسامه رائحة الجليد والعش، فاندمجت أوصاله مع عباءة غير مرئية جعلته يبدو كأنه من نسل هذا الوحش نفسه. وعندما انقضت العنقاء بسرعة مفزعـةـ،ـ تـوـقـفـتـ فـجـأـةـ،ـ إـذـ لـمـ تـسـطـعـ التـمـيـزـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ رـائـحـتـهـ الـخـاصـةـ.ـ لـحـظـةـ وـاحـدـةـ مـنـ النـجـاةـ،ـ لـكـنـهـاـ كـانـتـ هـشـةـ كـخـيـطـ دـخـانـ.

ورغم أن كون التقط أنفاسه، كان يعلم أن هذه ليست سوى البداية؛ الأرض قاحلة متعطشة للدماء، والوحش ترقب في كل زاوية، والرحلة التي يسلكها لم تكشف بعد سوى وجهها الأول... وجه الخطر.

ومن ثمّ، حين التقطت العنقاء الباردة رائحة الطفلين، انحنت رقبتها الطويلة كما لو كانت تتبع أثراً خفيّاً وسط الريح.

كانت حركاتها بطيئة في البداية، لكن كل خطوة كانت تحمل في طياتها توتراً مكتوماً، حتى لمع منقارها المدبب بلون الفضة المجلدة تحت خيوط الشمس الباردة. الريش الكثيف حول عنقها ارتجف كأمواج ثلجية تتأهب للانقضاض، وعيناها الزرقاوان كانتا تضيّقان النظرة كخنجرين من جليد صافٍ.

كون، الذي توقع هذا الاحتمال منذ أن خطرت له فكرة التمويه، شعر بثقل إدراكه لعدم جدوى الحيلة أمام غريزة الأمومة الشرسة. الهواء من حوله صار أثقل، والبرد تسلل حتى إلى عظامه، لكن ساقيه تحركتا بلاوعي ليعرض طريقها.

مد يده بسرعة، محاولاً جذب انتباها بعيداً عن الصخرة، لكنه كان كمن يحاول إيقاف نهر جليدي بيدين عاريتين.

العنقاء، وقد أيقظ وجود الغرباء حول عشها غريزةً بدائية لا تلين، تقدمت بخطوات متصلة، والثلج يتتساقط من ريش جناحيها مع كل رفة صغيرة، حتى صار الهواء حولها عاصفاً بذرات الجليد الحادة. لكن فجأة، كسر بكاء يارا كل ذلك السكون المشحون... لم يكن مجرد بكاء طفل مذعور، بل نغمة فطرية حادة، تشبه الصرخة التي تسبق عاصفة شتوية عاتية.

منقار العنقاء اقترب شيئاً فشيئاً من حافة الصخرة، حتى صار صريره يختلط مع أزيز الريح، وصوت احتكاك الجليد بالصخر كان كأظافر على زجاج متجمد.

كون، وقد أدرك أن الوقت ينفد، اندفع بجسده بأقصى قوته نحو الوحش، انغمى في مواجهة مباشرة محفوفة بالجنون. رائحة السموم التي رشها على ريشها ارتفعت في الهواء برائحة لاذعة تشبه لهيباً بارداً، لكن العنقاء لم تتوقف، بل زاد لمعان عينيها الزرقاء قسوة.

حين رفرفت بجناحها، كان الهواء حولها كإعصار جليدي، ألقى بكون بعيداً لدرجة أن جسده ارتطم بالأرض وانزلق فوق التراب المتجمد، تاركاً أثراً من العشب المهشم والثلج الذائب.

ومع اقتراب رأسها من مخبأ الطفلين، ارتفع صراخها الحاد كصفير زجاج ينكسر، وفي تلك اللحظة انفجرت حول يارا القبة البلورية، متوجة بضوء أزرق شاحب، لتغمر المشهد بهالة غامضة لا يعرف أحد كيف تشكلت...

العنقاء، رغم أن الصقيع غطى عينيها لحظةً، عادت بسرعة لتشم الرائحة الغريبة من جديد، والهدير الخافت في صدرها تحول إلى زمرة متقطعة، كأنها تحبس رغبة في الانقضاض.

وفي الخلفية، خطوات ثقيلة تدخل صمت الريح... وحش عاقد، أكبر وأشد، يشق طريقه نحوهم، وصوت أنفاسه الجافة كان كحجرين يُحتكأن في أعمق كهف.

كون، الذي ما زال يجر أنفاسه بصعوبة، رفع رأسه ليلمح الوحش، وحين أدرك حقيقته، انكمش صدره بি�أس وقال: — "تبا..."

?

كون لم تُتح له لحظة ليفكر، فالموت كان يطّوّه من جهتين: عنقاء هائجة تصرخ وتهدر، ووحش عاقر يقترب بخطوات مهيبة. شد قبضته على سيفه وكأن حياته كلها معلقة بنصل واحد، ثم قفز في الهواء نحو ذلك الوحش الذي يشبه الفهد في مرونته وبنيته، لكن جلد السميّك المصّفّح بحراسف صلبة كأنّها صخور تماسيح، جعله يبدو ككتلة حصينة لا تخترق. كانت أنفاسه حارة، لكن برائحة لاذعة من السم، وعيناه تلمعان ببريق وحشي لا يعرف الرحمة.

العاقر لم يكن مجرد مخلوق عادي، بل كان يطلق من جسده إبرًا سامة، دقيقة كالخيوط المعدنية، تطلق في دفعات سريعة تكفي لشلّ أي كائن خلال لحظات. ومع هذا، لم يتراجع كون. كان يعلم أن أي تراجع يعني أن يارا وجوارا سيكونان في قلب مذبحة. بلع خوفه في جرعة واحدة، واستجتمع كل قوته، وانقضّ على عنق الوحش.

عندما اخترق السيف الهواء، مع فجأة بوميض بارد كضوء قمر على جليد، وكأنه انتظر هذه اللحظة ليكشف عن حقيقته. كان هذا الوميض كوقود صب في قلب كون شحنة من العزم، فانقضّ بكل ثقله على رقبة العاقر، محاولاً غرس النصل في نقطة قاتلة. لكن الوحش، برشاقة مفترس متمرس، انحرف فجأة، فتفادى الضربة جزئياً، ومع ذلك أصاب كون إحدى عينيه، فأطلق الوحش عواً مخيفاً.

في اللحظة التالية، كان العاقر يندفع نحو كون بأنيا ب مفتوحة كفخ جليدي، لولا أن جناح العنقاء اندفع كالرمح الجليدي وصد هجومه. الهواء الذي أحدثته رفرفتها كان كصفعة قاسية أسقطت الرمل وأرسلت دوامات من الثلج في كل اتجاه.

العنقاء، وقد استشعرت خطراً يتجاوز وجود الطفلين، انخرطت في معركة غريزية مع العاقر. لكن كون ظل متريصاً به، يعرف أن هذا المخلوق قادر على تغيير هدفه في أي لحظة، فيترك خصمه لينقضّ على فريسة أسهل، وهذا وحده كفيل بجعل قلبه ينقبض.

لم يعد الوقت يسمح للتخطيط، كان عليه التحرك. غرس سيفه في ظهر العاقر، وتشبث به بكل ما يملك من قوة، وذراعاه ترتجفان من الألم الحاد الذي بدأ يسري في أطراف أصابعه بسبب الإبر السامة التي اخترقت جلده. ومع ذلك، لم يفلت قبضته.

العاير صرخ صرخة هزت الصحراء، وفي اللحظة نفسها انقضت العنقاء بمنقارها الحاد نحو وجهه، لكن العاقر باغتها بصرية خاطفة من مخالبه الصلبة وصدتها، فتطاير الجليد من ريشها كالشرر البارد.

اشتعلت المعركة، والعنقاء اندفعت بأجنبتها تصنع موجات من الصقيع اجتاحت الرمال، فجمّدتْها حتى صارت تتشقق تحت الوزن. إحدى هذه الموجات أصابت عين العاقد الأخرى، فصار يتلوى عمياناً، وارتज جسده كوحش جريح يحتضر.

كون، ووجهه يتصلب عرقاً ممزوجاً بالدم، تذكّر أنين ابنه وبكاء يارا الذي يشق صدره، فجمع كل ما بقي من قوته، وانتزع السيف من ظهر الوحش، ثم غرسه بكل عنف في منتصف عنقه. كان النصل يخترق الحراشف بصوت حاد حتى وصل إلى العظم، والدم الحار يتطاير في البرد كضباب أحمر.

صرخة الموت التي أطلقها العاقد كانت عميقه ومزلزلة، دفعت العنقاء لأن تطلق صرخة أخرى أشد، تبعتها بإنزال قبة جليدية هائلة حول الجميع، حابسة المشهد في سجن من الصقيع الشفاف. الضوء انعكس داخل القبة فصار المكان أشبه بممر من الثلج الأزرق. لكن قبل أن يكتمل الصمت، تحطم القبة بضربيه قوس قوية قادمة من بعيد، فتناثرت الشظايا كبلورات صغيرة في الهواء.

الصرخات والضوضاء حملتها الريح حتى وصلت إلى الرون والمورون، وجعلت هذا المكان هدفاً مكشوفاً أمام كل من يتراصّد. أدرك كون أن البقاء هنا يعني النهاية، فاندفع نحو طفليه، أمسك بهما رغم الألم الذي يمزق عضلاته وجراحه النازفة، ثم ركض بجنون عبر الرمال الباردة، لا يلتفت خلفه، فقط يهرب...

مشهد هروب كون كان أقرب إلى جرح مفتوح في قلبه، فمبادئه التي تشربها منذ طفولته ترفض الهروب، لكن سطوة اللحظة وقسوة الزمن كانت أشد من عزيمته. هناك التزامات أثقل من الجبال، وهناك روابط لا يستطيع قطعها، روابط أمن من الترحال الذي يجري في دماء شعب الزورا كما يجري السهم نحو مركز الهدف.

ذراعه كانت ممسكة بيارة التي انهارت بالبكاء، بينما يحمل على كتفه ابنه المغمى عليه، وخطواته تتعثر على الأرض الوعرة، أنفاسه تتلاحق وهو يلتفت بين الحين والآخر خشية أن تكون العنقاء خلفه. فجأة توقفت قدماه دون وعي، كأن الأرض قيدته، وأنزل الطفليين ببطء، وعيناه معلقتان على جسد عملاق يقطع الضباب نحوه.

ذلك الجسد أبيض كالثلج، عيناه قبيحتان إلى حد يبعث على القشعريرة، وملامحه لا تخطئها ذاكرة كون: إنه أحد أفراد شعب الرون. الفوضى بالنسبة للرون جريمة لا تُغتفر، والوحوش، وخاصة العنقاء التي تعود إلى جبال المورون، نادراً ما تجرؤ على مغادرة موطنها... فلماذا إذًا هي هنا؟ سؤال ضرب رأس كون بقوة، لكن الأشد وقعاً كان تلك النظارات القبيحة للرون، قبحها كان محزناً على نحو غريب، كأنها تحمل مأسى قرون مضت.

لم يطل التفكير، إذ شق صرخ يارا الهواء، صرخ ملأه ذعر بدائي، وأدرك كون أن عليه الرحيل فوراً. لكن قبل أن يخطو، دوى صوت صفعة مميتة، ارتجت لها الأرض، تلتها حركة خاطفة حين التف ذراعاً الرون السميكتان حول عنق العنقاء، يضاهيان

حجمها المهول، ثم انتزع رأسها ببرود، كأنه يقطف ثمرة تالفة. لم يكتفِ، بل رمى الجسد أرضاً ووجهه نحو كون نظرة حادة، ثم بدأ بالانسحاب بخطوات تترك وراءها صدى ساحقاً.

غير أن يارا، بصوتها الرقيق الذي تحول إلى زمرة وحشية، أجبرته على التوقف. الندبة على عنقها توهجت حتى صارت تنZF، وتحولت ملامحها في لحظات إلى مزيج من الحزن والوحشية، كأنها على وشك الانفجار. استدار الرون ببطء، وصوته الداخلي ربما يتصارع مع كرهه لاختلاط الأعراق، لكن ذلك الصوت الذي خرج من يارا كان مأولاً له، مأولاً حد الارتجاف... إنه صرخ شعب الرون لحظة انتزاع قلوبهم وإلقاءها في النهر.

كون لم يفهم ما يجري، بل انحنى محاولاً تهدئة يارا، لكن صراخها كان يزداد حدة، والألم ينهش جسدها الصغير. فجأة، أصفر وجهه وهو يرى يد الرون تمتد، كأنها قطعة من الجليد، لتأخذ يارا من بين ذراعيه. لم يستطع حتى تحريك يديه، فقط نظر بربع مكبوط. المدهش أن يارا هدأت قليلاً بين يدي الرون، لكن عينيها لم تعدا كما كانتا، تلك السماء الصافية استبدلت بظلام ثقيل، ظلام يشبه وجوه أولئك الذين ضحوا بأنفسهم لاستمرار الظلام وحفظ التوازن.

انحنى الرون نحوها، قبل كتفها بخفة، ومسح على عينيها، ثم همس بلغة غريبة لم يفهمها كون:

"لتهدي أيتها الروح العابرة... أنت يراعنة تائهة في هذا العالم، لتهدي، ستجدين
الحقيقة... لكن إهدئي".

ثم وضعها أرضاً، واستدار لينصرف، صوته الثقيل يختلط مع وقع خطواته التي بدت
كأنها تحطم التربة. في طريقه، جمع جثث الحيوانات الممزقة كي لا تجذب رواحها
وحوشًا أخرى، ثم اختفى في الضباب، تاركًا كون والطفلين في صمت خانق، تردد فيه
أصوات ما حدث.

سمّ الوحش كان كلهٍ متوجّح يحترق في أعماق لحمه، ينهش كل شبر من
جسده بحصارٍ لا يرحم. لكنه لم يمنعه من القتال، لم يسمح له أن يترك ساحة
المعركة حتى مع ذاك الألم الذي يلهب أوردته ويُكاد يقطع أنفاسه. كان كل نفس
يلتقطه مرهقاً، وكل قطرة دم تسيل أشبه بهيرٍ يغسل جسده من الداخل.

ببطء، وبصعوبة بالغة، بدأ سمّ العاقر يتراجع، وكان الدم يتسبّب بالحياة في عروقه.
رغم أن قدراته محدودة وضعيفة مقارنة بأقرانه من شعب الزورا، لكنه حاول أن
يهدي نفسه، يضبط تدفق الدم، يُكبح الذعر الذي يحاول أن ينهش روحه.
شرب الترياق، ذلك السائل المّ، كأنه يشرب من نافذة الأمل الوحيدة التي بقيت له.

كون، على عكس أغلب أبناء شعب الزورا، لم يُولد مع الموهبة التي تمنح السيطرة
على الزمن أو عناصر القوة؛ لم يكن يملك سلطان النار التي تحرق، أو الماء الذي

يغسل، أو الريح التي تعصف، أو الرعد الذي يهز الأرض. لم تكن له سوى عزيمة جامحة، صلبة لا تلين، هذه العزيمة التي أصبحت أخطر من أي قوة خارقة، وأبعد ما تكون عن الجنون الذي أصاب الكثير من أصحاب الموهاب.

شعب الزورا منذ ملايين السنين كبحوا تلك القوى العظيمة ليتركوا لأنفسهم حرية التمتع بالزمان فقط، لكن كون ولد بلا موهبة، ولم يفهم لماذا.

كان يفكر بتلك الأشياء بينما قلبه يحترق وبصره يشهد سحابة الألم تدور فوق رأسه. تفكيره يتوجه نحو الطائر المهاجر الذي يقطع المسافات بلا توقف، نحو الرون الغريب ذي النظارات القاسية، وإلى ابنه المريض، وكانت طاقته تنفد، لكن قلبه ظل ثابتاً، لا يلين، لا يعرف الاستسلام ولا الهوان.

تحت قدميه، كانت الأشواك تمزق جلده حتى تشّقّق وتحول لونه إلى الأزرق، كأنه يحترق من الداخل والبرد يعضه من الخارج، لكنه واصل المسير بلا تراجع. يارا التي كانت نائمة بهدوء، جسمها الصغير مستكين بين ذراعيه، كأنها تعيش عالماً بعيداً عن العذاب والدمار.

صوت السيف كان يملاً فراغ عقل كون، يرن كأنه صرخة تردد بين الماضي والحاضر في آن واحد، كأنه كائن مهجور ينتظر أن يُسمع، ينادي بـصوت هش ومتقطع:

"كون... إفتح عينيك... كون..."

كانت الكلمات تتدخل مع نغمات أشبه بـصدى أصوات نساء متعددة، تعلو وتختفت كما لو أنها تبعث من عالم آخر بعيد، وذلك جعلها مرعبة، لكنها مألوفة لدرجة مؤلمة، كصوت زوجته الغائبة التي لم تفارقـه حتى في أعماق نومه.

في خياله، رأى طائر العنقاء، ذاك الطائر العظيم الذي يصرخ بـكبرياء وحزن أمام كيان شيطاني، كيان يتلذذ بافتراس ما تبقى من عائلته وموطنه. كان الطائر مجبـراً على الهـجرة هارـباً من ظلال ذلك الشـيطان، ومع ذلك ظل صامـداً، كرمـزاً للأمل في قلب الخـراب.

لكن السـؤال الذي حـيره بشـدة ظـل مـطبوعـاً في ذـهنه دون انـقطاع:

"لـماذا الروـن؟"

ثم عـاد الصـوت، هـذه المـرة بـقـوة أـكـبر، وـنـبرـة تـمـلـؤـها الغـمـوشـ والـرـهـبةـ، حتـىـ أنـ كـلـ شـعـرةـ مـنـ جـسـدـهـ اـرـتـعـشـتـ:

"الـشـيـطـانـ يـبـحـثـ عـنـ يـارـاـ... عـنـ سـرـ الـعـالـمـ الـمـخـفـيـ... عـنـ الـظـلـامـ الـذـيـ اـعـتـبـرـنـاـ هـبـةـ وـأـصـبـحـ هـلـاـگـاـ... إـنـ يـارـاـ خـلـيـطـ بـيـنـ الـبـيـاضـ الـرـقـيقـ وـالـسـوـادـ... مـفـاتـحـ النـجـاةـ."

كانت الكلمات كالسيف ذاته، تخترق وعيه وتترك أثراً لا يمحى، كما لو أنها تحفر في روحه نفسها.

استفاق كون من هول الكابوس، جسده يرتجف، وعيونه فتحت على عالم باهت يلفه الضباب، لكنه لم يستطع تفسير ذلك الحلم الغريب. كان يختلف عن كل الكوابيس التي عاشهما من قبل، فكل شيء بدا أكثر كثافة وغموضاً.

بينما كانت أشعة الشمس الأولى تتسلل بخفة عبر خصلات شعره الأسود الكثيف، وتلامس عينيه الخضراء المضيئة، أدرك مرور الأيام كما لو أنها غيث سريع لا يمكن الإمساك به.

رفع نظره نحو يارا وجوارا، كانا يتسلقان نخلة عملاقة، ضخمة كجبل، وفجأة نزل عليهما برق قصفيها حتى تفجرت إلى أشلاء، من وسطها اندلع لهب أزرق نابض بالحياة. فوق تلك الأنقاض، تفتحت وردة حمراء غريبة، زاهية، وكأنها رمز للحياة والدم معًا.

الهواء كان محملاً برائحة التراب المحروق والندى المتجمد، وأشارت تلك الرؤية في قلب كون شعوراً عميقاً بالأمل وسط الخراب، رغم الفوضى والدمار من حوله.

وفجأة، اقترب منه رجل عجوز، طوله يعلو معظم الرجال، صوته وقور وثقيل، كأنه صدى الزمن نفسه.

نظر إليه الرجل بعينين مليئتين بالحكمة والحزن وقال:

"أنت تعرف مصيرك، أيها الشاب... تعرف أين تضع سيفك، ولكن هل تسأله لماذا تضعه؟"

التفت كون نحو الفتاة التي لا تزال تتسلق النخلة:

"كلما كبرت، أصبحت أكثر جذباً للأنظار... وفي هذا العالم، كل شخص قادر على كشف جانب من الظلام أو النور، لكنها تقف في منتصف الطريق."

تنهد العجوز وقال بصوت منخفض:

"وهذا هو نادر... نادر جدًا. لا أحد يمزج بين الضوء والظلام كما تفعل هي. حتى لو كنت كفيفًا، فطاقة تلك الفتاة تُشعرني بذلك التوازن الذي طالما بحثنا عنه... ولم نجده."

شعر كون بشيء غريب في صدره، مزيجًا من القلق والفضول. العالم الذي يعيش فيه معقد، متشابك، مليء بالأسرار. لم يعد يفهمه كيف ولماذا، لكنه شعر أن هذه الطفلة تحمل مفتاحاً حقيقياً، أملأ لم يكن يتوقعه.

بالرغم من أنه يفتقر لأي موهبة خارقة، كان يعلم أن في يارا صفاءً ونقاءً لا يمتلكهما أحد، وهذا وحده ربما يكفي ليغير مصيرهم جمیعاً.



حين جنّ الليل على الساحة العظيمة، تحولت الأجواء تدريجياً إلى مزيج ساحر من الظلام والأنوار الخافتة التي تراقصت مع أصوات الأغاني المنبعثة من قلب الحشد الكبير. كانت ألحان احتفال قديم يعود كل مائة عام، حين يحتفل الجميع برحيل الشيطان الذي لطالما أرعب النفوس وأشعل الخوف في القلوب. وفي كل مرة، كانت الأسطورة تتكرر على ألسنة الجميع، يرددوها الصغار والكبار على حد سواء، ويفجر المكان جو يعبق بالذكرى والرعب المختلط بالأمل.

نهض كون ببطء، مقترباً شيئاً فشيئاً من وسط الساحة حيث تتلاقى أصوات الأناشيد والهمسات، وتتشابك الروائح الحارة للطعام الشهي المتتصاعد من أتون المواقد المنتشرة هنا وهناك. لكن أنفه الحاد لم يلتقط رائحة اللحم المشوي، بل لفت انتباهه رائحة أخرى أكثر غرابة وتعقيداً، رائحة احتراق ممزوجة بالغموض، تثير فضوله وتحفز حواسه كلها.

وسط الجموع، كانت تبرز فتاة تحمل سحراً غريباً، جسدها مشدود كهيئه صياد ماهر، مغطى بوشوم متشابكة تعكس حكمة أزمان مضت وأسرار محجوبة. كانت تلبس قناعاً يغطي نصف وجهها، ومع ذلك، لم يستطع القناع إخفاء شعرها الأبيض

المجعد، الفريد والنادر كثلج البرد الشديد. أسقطت القناع ببطء، فتكشفت عيونها السنورية التي تلتمع كعيون قط بري، جفونها بيضاء شفافة كأنها متأللة، وجسدها الأبيض المرن ينبض بالقوة والسر الخفي.

شم كون رائحة احتراق مختلفة، ليست كباقي الأرواح التي تصعد وتعود في طقوس السماء القديمة. تلك الرائحة كانت أقوى وأكثر حدة، كأنها كتلة لهب متوجة تزحف بهدوء نحو الساحة، تتحدى كل من حولها.

تمتم في سره: "تبًا... هل هذه روح أم عفريت؟"
فالعفريت، برغم تشابهها مع الأرواح، كانت أكثر خبثاً وأشد فتكا، تنبعث منها نيران تختنق وتلتهم كل ما يعرض طريقها.

بدأ الهلع يتسلل إلى قلوب الناس، وامتلأت الساحة بأصوات ترديد تعاوين غريبة، كلماتها العتيبة تملأ الفضاء كأنها تدعى قوى خفية لطرد الشر، وتنسج جواً من الترقب والخوف في آن واحد.

كان كون مستلقياً في الظل، عيناه تتلمسان تفاصيل المشهد، حتى لاحظ فجأة يارا التي لم تفارق نظرها ذلك العفريت. لم تكن تخاف، بل كانت تتأمل بفرح ودهشة غريبة، كما لو أنها ترى فيه شيئاً من وطنها أو جزءاً من ذاتها.

صرخ في داخله: "أيتها المجنونة، ابتعدي!"

لكن برغم صرخته، كانت يارا تسير بخطى ثابتة، وبراءة محيرة أمسكت بمقدمة ناب العفريت، مُظهراً شجاعة غير متوقعة.

العفريت لم يتحرك، وقف كتمثال من الجليد، منبهراً أو متأثراً بسحرها الغريب، وكأنه يعرف أنها مختلفة عن الجميع.

قالت يارا بصوت خافت متعرّل لكنه دافئ: "اجلس."

جلس العفريت، كما لو أنه يستجيب لأمرها دون تردد، واحتضنته بحنان غريب، مثيراً دهشة كل من حولهما.

تمتم كون بحسرة: "يا لك من يارا..." ثم نفخ الغبار عن كتفيه واقترب منها، محاولاً فهم ما يحدث وتفسير هذا المشهد الغريب.

فجأة، خفتت ألسنة النيران التي أشعّلها الحشد، وانقضّ الضوء ليعمّ الظلام من جديد، كما لو أنّ الليل نفسه استعاد سيطرته على المكان.

أمسك كون بيد يارا بحذر، لكن صوتها المتكرر "تاتا! تاتا!" كان يتصاعد في الهواء، مملوءاً بالخوف والارتياب، مذكراً إياه بالمسؤولية الثقيلة الملقة على عاتقه.

نظراته تموجت بالذعر والدهشة، حتى لمح في الظل العجوز الذي طالما زاره مراراً، واقفاً بهدوء عند رأس العفريت، يتربّق كل حركة وكأنّه مراقب حكيم لكل تفاصيل الحدث.

خلفهما، بدأ الحشد برمي تعاويذهم، كلماتهم الغامضة تملأ المكان بقوة غريبة، **حتى بدأت ظلال وأطيات أشخاص قدامى تظهر، تحيط بالعفريت من كل جانب، كأنّهم حراس من زمن آخر.

العجز بحركة بسيطة من إصبعه أطبق غطاء وعاء أسود عتيق على العفريت، حاصرته بقوة وسحر لا يُقهر، وكأنّها تغلق باب جحيم قديم لا يريد أن يُفتح.

كون، وهو يحمل يارا بين ذراعيه، لم يستطع أن يمنع ارتجاف يديه، وتمتم بدهشة: "ما هذا بحق الجحيم؟"

--

أخطأ يارا عندما لوحت نحو العجوز، معتقدة أنها تاتا، غير أنّ ما ظهر لم يكن سوى كهل في الأربعين من عمره، من أفراد شعب زورا. تلك الحقيقة صدمت كون بشدة، وكأنّه يغوص من صدمة إلى أخرى دون أن يمنحه القدر فرصة لالتقاط أنفاسه.

كان الرجل وسيماً، تغلفه ملامح خشنة تروي قصص الصبر والمعاناة، وجسد ممشوق تفصله عضلات بارزة بدت كأنها نحتت على صخور الزمن. شعره الأسود الكثيف كان مربوطاً بإحكام إلى الخلف، بطريقة تعكس انضباطاً صارماً. وعلى رأسه، ارتدى قبعة تقليدية تحمل نقوشاً عتيقة، شكلها مثلث مسطح يحاكي قبعات الأسلاف الذين ساروا على ذات الأرض.

وفجأة، انبعثت منه رائحة قوية، حادة، تحوم كعبير الأرض بعد المطر، مزيجاً يشبه التراب والجذور العميقية القديمة، لتمنح من حوله إحساساً بالصلابة والتاريخ الذي لا يمحى.

عندما، أغلق كون عينيه لبرهة، كما لو كان يريد استدعاء شجاعته من الأعماق، ثم فتحهما ببطء وهو يلهث بدھشة متجمدة على وجهه، وصوتٌ ممزوج بالدهشة والرعب: "عما... ماذا تفعل هنا بحق خالق السماء؟"

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة بلاء، تعكس ثقة مفرطة بنفسه وربما قليلاً من الاستهزاء، ثم ما لبث أن اندفع نحوه بخفة مفاجئة، محاولاً بسط يده نحو يارا.

تراجع كون بسرعة، عيناه تحرقان بالغضب، وقال بنبرة مشحونة بالتحدي والرفض: "عما، ماذا تفعل هنا؟ وما هذا الذي تفعله؟"

عض الرجل على شفتيه الغليظتين، كأنه يعبر عن كبرياته واستعلائه، ثم قال بصوت عميق مفعم بالغرور: "ابن أخي الأكبر... لقد أصبحت رجلاً وسيماً، لكنك لا تصل إلى رتبتي ولا لقوتي".

رد كون، صوته يصدح بالتحذير والغضب: "أنت أئمها الأحمق!"

سادت لحظة صمت فجأة، قبل أن يكسرها صوت جوارا، الذي كان يتثاءب ببطء بعد نوم قصير، قال وهو يحاول استجماع قواه بنعاس: "أبي، لماذا تبدو يارا متوتة هكذا؟ وجهها متصلب ومشدود..."

في تلك اللحظة، التفت كون بسرعة إلى يارا، التي كانت ترتجف بشكل واضح، جسدها يهتز كسمكة خرجت لتوها من أعماق البحر، تحاول التكيف مع الهواء الجديد الذي يحيط بها.

لكن العم لم يتوان، إذ بادر بسرعة، وأخذها من يد كون برفق حازم، ثم مددتها على الأرض.

بيد مرتجفة، أخرج من داخل ثيابه ورقة قديمة منقوشة برموز الأسلاف العتيقة، نُقشت بعناية وكأنها تحوي أسرار الأجيال.

وبينما رفعها أمام عينيه، بدأ يتمتم بكلمات غامضة، صوته منخفض لكنه صارم
وملئ بالقوة: "أيتها الروح، اتركي أرضاها، اخرجي وارفعي رجليك بعيداً عنها..."

ارتج جسد يارا بقوة، وكأنها تصارع شيئاً غير مرئي، إلى أن انطلق فجأة من رأسها
خيط متوجّج بلون أزرق سماوي ناصع، يلمع بضوء باهر، ينبعث منه وهج بارد ولكنه
قوي.

أمسك العم بالخيط بيد ثابتة، سحبه ببطء نحو الخارج، فتحوّل أمام أنظار الجميع
إلى سيف ناري أسود، ينبعث منه وهج قاتم وبارد في آنٍ معًا، كما لو أنه يجمع بين
النار والظلام.

وبلمح البصر، اختفى السيف في الهواء، وكأنه لم يكن موجوداً إلا للحظة عابرة، تاركاً
وراءه صمتاً ثقيلاً يثقل الأجواء، وأعين الجميع ترقب ما سيأتي بعد ذلك، وقلوهم
تحقق بقلق وترقب.

ثم انسحب العم وهو يتنفس بعمق، كان صدره يفرغ جباراً من الهواء المتراكם منذ
سنين، وعيناه تحدقان في كون بحدة تنذر بالخطر والتحذير، وقال بنبرة ثقيلة تحمل
غضباً مكتوماً وكأنها صفعة خفية:

هل تدرك، أيها المعتوه، أنك ترافق ملكرة من ملوك الأسلاف؟ إنها معرضة للهجوم أكثر من أي أحد آخر، وأنت أيضاً تُجرّ إلى الخطر بسببها... قل لي، أين وجدتها؟

ارتسمت على ملامح كون علامات التذمر والضيق، فزم شفتيه كمن يخفي سيلاً من الكلمات، ورد ببرود ممتنع بالحدّة واللامبالاة:

وما شأنك أنت؟ وهل ستجلس لتفسر لي ما حصل أيها العم الذكي؟

جلس العم أرضاً بثاقل، كمن يُسقط عنه أثقال الزمن ويقرر أن يطيل الحديث، ثم تربع في مكانه، وبدأت أصابعه الخشنة تربت على خصلات يارا الناعمة برفق غريب، لا يليق مع هيئته الصلبة. قال بصوت هادئ ينساب على نحو متناقض مع بريق عينيه المترقب:

يارا... فتاة مميزة، هذا واضح لا يحتاج إلى برهان. لكن، أخبرني بصدق، أين وجدتها؟

ألقى كون نظرة خاطفة نحو الحاضرين، وقد بدا على ملامحه ضيق خفي، ثم أشار إليهم بالانصراف بحركة حادة من يده. تفرق الجميع في صمت متوجس، باستثناء تلك الشابة التي بقيةت جالسة على مقربة، عينها تلمعان ببهجة غريبة أقرب إلى فرح مشؤوم، كأنها تتغذى على الترقب. غير أن كون لم يعرها اهتماماً، بل استمر في تركيزه

على عمه. أشار لابنه ليقترب، فجلس الصغير بجانبه بخطوات متعددة، ثم مال بوجهه نحو عمه وقال متهداً، كمن يثقل صدره سؤال لا يهدأ:

هيا، أخبرني... ما قصتها؟ لماذا الجميع يحدرونني منها؟ وما هذه القوة التي تخيمها في أعماقها؟ أخبرني.

جمع العم صوته الخشن في نبرة باردة كالثلج الجبلي، وقال ببطء يحفر في الجو صدى غامض:

يارا فتاة ولدت من جميع الأعراق... تحمل من كل نوع جزءاً يميزها، لكن... قل لي أين وجدتها بالضبط؟

رد كون بلا اكتراش، كأنه يستخف بوقع ما يسمع:

وجدتها بين حدود المورون.

ارتفع حاجبا العم بدهشة عابرة، وتمتم وهو يطوي الكلمات ببطء ثقيل:

حدود... المورون؟ وهل وجدت أمها بجانبها؟

نعم.

أطرق العم برأسه قليلاً، كمن يستدعي ذاكرة قديمة، ثم قال بنبرة متربدة تخالطها

جدية:

أتذكر تلك القصة التي صرعرك بها أخي عن الأمهات اللاتي يلتهمن أطفالهن بسبب
أزواجهن؟ أظن أن يارا ولدت من بين تلك الأمهات، لكنها لم تلتهم كبقية الأطفال.

نظر إليه كون ببرود، لكن عينيه لم تخفي استغراياً مكتوماً:

وما علاقة ذلك بقوتها؟ نحن أيضًا من أعراق مختلفة، وأمهاتنا سيئة. وجدتني -
حسب ما أذكر - تركت أبي وحيداً وهربت... ما الغريب؟

تغيرت ملامح العم فجأة، وانسابت على وجهه قسوة متأملة، وهو يحدق في يارا
بعينين نافذتين. ثم أشار بيده نحو كتفها وقال بصوت غليظ يشوبه قلق:

هنا يكمن الاختلاف... يارا ليست من نسل الشيطان، لكن ربما حدث أن الشيطان
غيّر جسده، كما يفعل عادة، ليغوي أمها. سيطرته كانت قوية لدرجة أنها كادت

تلتهمها. أنظر جيداً... هذا الجرح على كتفها هو أثر مخالفه. لون شعرها الأحمر وعيناها الزرقاوان... هذا من الغجر مثلنا، أما بشرتها الباهتة فمن المورون، وملامح الحزن التي تتسرب أحياناً إلى عينيها فهي من الرون. يارا لا تحمل طاقة واحدة، بل خليطاً ممزوجاً، وربما شعرت أنت بذلك من خلال غريزتك. لكن، من الجلي أن الوحش تبحث عن يخلق لها التوازن، وتظن أن أكله يمنحها هذا التوازن... وهذا تماماً ما فعله الشيطان المنبوذ.

وفي تلك اللحظة الثقيلة التي جمدت فيها الأنفاس، بربت من خلف أحد البيوت فتاة ذات شعر أبيض كثلج الشتاء، وعيناها تقدحان قبحاً وبشاعة، بينما ترتسم على محياتها ابتسامة تتسع ببطء... ابتسامة كأنها تتغذى من الظلام نفسه.

?

وأسود وجه كون فجأة، كأنما غطّته سحابة رعب ثقيلة، وارتجمفت عيناه بوميض الإدراك المذعور، ثم قال بصوت مبحوح وهو يلقط أنفاسه: "إذن... الذيرأيته خارجاً من فوهة الصحراء... هل هو ذلك الشيطان؟"

تصلب العم في مكانه، وتتجعد جبينه وهو يرمي بعينين متسعتين: "ماذا حصل؟"

ابتلع كون ريقه، وكأن حلقه صار من خشب، وقال: "لقد اعترضني وحش هائج، لم أر مثله قط... عيناه كانتا مثل جمرتين تستعلان وسط الظلام، وريشه كان أشبه بسلاكين من ظلال الليل، كل رفة من جناحيه كانت تولّد دوامات من الغبار الحارق. صوته... كان مثل صرير المعادن الممزقة ممزوجاً بزئير وحش جائع، يهتزّ له القلب قبل الأذن. لكن... فجأة، خرج سيف من العدم، كأنه انبعث من بين طبقات الهواء، وتلألأ بوجه باهر مزق أشلاء الطائر، فتناثرت في السماء كغبار أسود."

توقف لوهلة، وصوته يختنق: "ثم... فتحت الصحراء فمها فجأة، حفرة عملاقة لا نهاية لها، كأنها تسع الصحراء بأكملها، وبدأت تجذبني أنا والسيف شيئاً فشيئاً، وكأن جاذبيتها كانت تلتهم روحي قبل جسدي... لكن بيروم... بيروم أنقذني. بعدها، سُلبت مني إرادتي، شعرت وكأن خيوطاً خفية تشدّ عقلي، وسمعت صوتاً... صوتاً يشبه غليان الجحيم نفسه، يفيض من كل الجهات. ثم... سقطت، وبلمسة واحدة استطعت دحض الوحش، لكن... أخرجت من رأسي حجراً رمادياً بارداً كالموت، وسقطت أرضاً."

اتسعت حدة العم فجأة، وكأن الحقيقة ضربته في الصدر، ثم التفت نحو جوارا وهم بسؤاله: "بني... هل لاحظت على يارا أي تصرف غريب... أو، لا أدرى... اضطراب؟"

تهد الفتى قليلاً قبل أن يجيب، وصوته يختلط بالحيرة: "منذ الوهلة الأولى كانت يارا ساكنة، كأنها تمثال من الصمت، لكن فجأة بدأ جبينها بالتوهج بضوء غريب، ثم كتفها... بدأ ينزف بشدة، لكن ما خرج لم يكن دمًا... بل كان سائلاً أخضر، لزجاً كأنه

يحمل حياة أخرى بداخله... ثم، هدأت واستقرت فجأة، وكأن شيئاً ما انسحب من داخلها."

نظر العم إلى كون برع بـمكشوف، وقال بصوت خافت مشوب بالقشعريرة: "ما رأيته... كانت هيئة الشيطان. تقول الأساطير الأولى إن الشيطان كان امرأة فاتنة الجمال، جمالها كان يسحر العيون ويأسر القلوب، لكن هناك... في جبل المورون، كانت هذه المرأة تذهب ليلاً وتقتل الخنازير، تقتات على لحمها نيئاً. وبرغم أنها كانت تنتهي للبشر القدامي، إلا أن تصرفها كان غريباً حد الرعب. رأها أحد المارة ذات ليلة، وأفتشى سرها، فحكم عليها بالعقوبة، دون أن يفهم أحد سرّ شهيتها. حينها، كان الخنزير يحمل لعنة الخلود، أي أن من يأكل منه يصاب بخمول جسدي قاتل، ترافقه صحة دائمة ولكنها مشوهة، تُبقيه بين الحياة والموت. تلك المرأة... أكلت مائة خنزير. وهكذا... تجاوزت المرحلة الثانية من اللعنة، فأصبح نصف وجهها مشوهاً، بينما بقي جسدها ممشوقاً كأفعى متحفزة. هذه الأساطير... كابوس لكل من استقر في هذه الأرض.

لكن الشيطان، بعد أن اتخذ تلك الهيئة المرعبة والمميتة، أصابه جنون عميق لا يُحتمل، كما لو أن لعنة الخلود تلك التي ظنها نعمة، تحولت إلى سجن قاتل لقلبه وعقله. لم يكن يتوقع أبداً أن تكون ثمن الخلود هذه العواقب البشعة التي جرّدت روحه من توازنه. لقبوه بالشيطان، ليس مجرد قوته أو هيبته، بل لأن عينه التي تلمع

بالشر، عندما تلتقي بأي كائن كانت تغويه، تأسره، وتجرده من عقله كأنها لعنة مظلمة تتسلل إلى أعماق الفكر، وتجعل الضحية تائهة بلا إرادة.

وفي سخرية القدر، ربط على قفاه ثلاث عقد محكمة، كأنها أغلال من ظلال لا تنفك تحكم قبضتها عليه، وإذا حاول تحرير نفسه منها، يواجه جسده عذاب مائة خنزير ملعون، عذاب بطيء مؤلم يشل كل حركة وينهي الحياة ببطء مرعب.

لكن الشيطان لم يكتفي بهذه اللعنة التي قيده، بل بالغ في شره. لم يكن يكفيه أكل الخنازير فقط، بل انغمس في لعبة أغواء النساء، ل يجعلهن يأكلن أطفالهن، محملاً إياهن بنفس المصير السوداوي الذي يحملونه جميراً. لكي يضمن نجاح خطته الشيطانية، كان يمتص قوى الأطفال النقية والصافية من أمعاء أمها تهم، فكانت تلك الطاقة الثمينة تفوق قوة المرأة وحدها، التي لا تكفي لاستمرار تجدها وتجدد نسلها.

وهكذا، كانت تخدع النساء بأشكال وأساليب متعددة: أحياناً تغوي أزواجهن ل يجعلهم أدوات في يدها، وأحياناً تغوي النساء بأنفسهن، تسحب مهن الأمان والحنان، فتصبح هذه المرأة نفسها شيطاناً غائراً، بلا هوية، غارقة في الظلام والدهاء.

وبذلك، تحولت النساء، المغرّات والمسورات، إلى آكلات لأطفالهن، أجبرن على ذلك من أجل زوج يبدو في الظاهر رجلاً بوسامة ساحرة لا تُقاوم، لكنه في الحقيقة مخلوق قاتل، يتحول إلى ذلك الرجل المسؤول الذي يخفي وراء جماله الموت والدمار.

صُعق كون من هذه الحقيقة المروعة التي تزلزل أركان عقله، وشعر برعشة تسري في جسده، لكنه استمد قوة غريبة من عمق خوفه، مد يده المترجفة نحو يارا، ونظر إلى العم بعيون دامعة وهو يقول بصوت متواتر:

ماذا سيحصل ليارا؟

رد العم بنبرة قاتمة، تحمل ثقل أعباء الدنيا:

ستموت... ذلك الشيطان لن يهدأ أبداً حتى يمتص كل قطرة من طاقتها، وبما أنها فريدة من نوعها، فهي فريسة دسمة لا يمكن له أن يتغافلها أو يتهاون معها.

تردد كون للحظة، ثم سأله بقلق:

وماذا عن الوحوش التي تهاجمنا بلا هواة؟ ماذا سيحدث لها؟

هز العم رأسه ببطء، وجهه متجمد من الهموم، وقال بصوت منخفض:

لا نعرف على وجه اليقين... الوحوش بطبعها ترحب في البقاء حية، وهي تستشعر طاقة الفرائس التي تحمل أفضل الفوائد لها. على الأرجح، يارا ليست سوى فريسة أخرى، قطعة لحم طازج في شبكة مفترسهم.

وفجأة، قبض العم على سيف كون بقبضته حازمة، وعيناه تلمعان بارتباك واضح، وهو يوجهه نحو النخلة العملاقة التي كانت تتلوى في الظلام، تنبض بألوان قاتمة.

ارتباك كون من سرعة حركة عمه، وصاح بقلق:

ماذا هناك؟

أجاب العم بصوت خافت، يخلله توتر لا يخفيه:

هناك حالة خبيثة تتجول هنا... لكن الظلام يغلف المكان، ولا أستطيع رؤية المزيد
بوضوح.

ثم توقف، وأصدر تهديدة ثقيلة، وكأنها تخرج عناناً لكل التعب الذي حمله في رحلته،
وقال بلهجة منهكة:

لقد استنفدت كل طاقتى خلال هذه الرحلة القاسية. لنذهب إلى الداخل الآن، هيا.
ودعنا نجعل يارا تنام عندي... هي لطيفة رغم كونها مجرد فريسة لذيذة...

ارتفع شفاه كون بغضب مستتر، وهو يرد بغضب:

أنت وقح يا عمي، لا تقل مثل هذا الكلام عن طفلة!

ابتسم العم ابتسامة خفيفة، مفعمة بالحنان الغامض، وقال:
ستستمر بحمايتها، هذا شيء مؤكد.

التفت كون إليه بنظرة مملوءة بالشكوك، وكأنها تبحر في عاصفة من القلق، وقال بصوت خافت:

لا أعرف حقيقةً ماذا أصدق أو ماذا أفعل...

رد عليه العم بنظرة ملؤها الأسى، محملة بمرارة تجارب عمره الطويل، كأنه يود أن يقول له أكثر من الكلام، لكنه اختار الصمت، معتبراً عن ذلك في نظراته وحدها.

□

استيقظ الجميع من سباتهم الثقيل، وملامح التعب والرعب باديتان على وجوههم التي تكشفها ساعات السفر القاسية. بدأت الأنفاس تتلاحق في صدورهم، واستعدوا للرحيل نحو مصير محفوف بالمخاطر التي لا ترحم الضعفاء أو القادرين، فالهروب كان خياراً لجبناء لا يجرؤون على مواجهة قسوة العالم.

كان جوارا، الصغير الصامد، قد سبق الجميع وانطلق حاملاً أكياس الطعام الشهي التي قد تكون أملهم الوحيد في درب مجهول، لا يعرف وجهته ولا قدره. كان يراقب

يارا، تلك الطفلة المحمولة على ظهر العم الصامد، الذي تعهد بمواصلة الطريق معهم حتى نقطة تفرقهم.

وهنا، في هذه اللحظة الحاسمة، رغم أن المشهد لا يبدو متغيراً، تشتعل في قلوبهم الأسئلة: هل ستنجح يارا في تخطي ذاك الشر الغامض الذي يهددها؟ هل يمتلك جوارا، الذي يحمل إرث أجداده، القوة والإرادة لمواجهة ما ينتظره؟

جوارا، الفتى الذي ورث عزيمة أجداده، فتى صعب المراس، كما وصفه جده، لكنه يحمل في شخصيته تشابهاً واضحاً مع والده، ذلك الرجل الذي تثبت بألمه وكأنه رفيق دائم. بينما يحاول الجميع الهروب من أوجاعهم، وجد كون في ألمه ملاداً ورفيقاً بعض على قلبه في لحظات الخذلان.

تمتد الصحراء اللا نهائية أمامهم، كأنها بساط جاف ممزق بألوان الغبار والألم، لكنها تبقى ملجأهم الوحيد، مأوى يحميهم من قسوة العالم وبرده القارس.

كبرت يارا وجوارا وكون، رغم أن العم افترق عنهم في طريقه الخاص. واجهوا خلال رحلتهم مخاطر جمة، من بينها محاولة الفرار من قبضة حراس المورون، ذوي الأجسام الضخمة والعقل القاسي. جوارا وقع في الأسر، بينما أظهرت يارا، رغم صغرها، قدرة فريدة لقنت بها الحراس درساً لا ينسى.

كانت يارا الطيبة القلب، لكنها ساذجة براءة طفولة. حتى وإن لم تتجاوز السنوات الثلاث، كان غريباً أن تطلب من حارس صخم يبلغ طوله أربعة أعمدة خشبية أن يحملها، لكن الغريب حقاً أن يارا تمتلك نفوذاً غير مرئي ومكانة طبيعية يقرها الجميع. فهي تقع في المنتصف، لا تنتهي إلى نور المسكن، ولا إلى ظلام الوحشية، بل تحب وتقبل الجميع: الخير والشر، الظالم والمظلوم، الغريب والطبيعي.

تذكروا ذلك المورون الذي رفض تسليم جوارا، لكن يارا تحدته بنبرة متعلعة لكتها حازمة: "أنت قبيح..." لحظة فخر لكون، الذي رغم خطورة الموقف، لم يخف إعجابه بشجاعة ابنته الصغيرة. المورون لا يحبون الغرباء، لكن يارا لم تكن غريبة عن هذه الأرض، بل كانت جزءاً منها بطرق لا تُرى.

وأخيراً، خرج جوارا من الأسر، جسده ملطخ بالوحش والطين، علامات محنته وأسره، لكنه كان محبطاً بشدة. استقبلته يارا بحنان، عانقته بكل حب، رغم اتساخ وجنتها بالوحش وكأنها لا تكترث للأوساخ في وجه المحبة.

لكن القادم كان أصعب على يارا الصغيرة، فالشيطان الذي نبهتها إليه العجوزة "تاتا" كان في انتظارها. الكل يعرف أن يارا معرضة للهجوم، وأنهم جميعاً على خط المواجهة، لكنهم يقاتلون من أجل حمايتها، ليس لشيء سوى لأنها تمثل لهم ماضياً عزيزاً، وأملاً لم يمت بعد، وشعلة تنير دروبهم في عتمة المستقبل.

ينزل كون إلى النزل الأرضي العتيق، ذاك الذي شهد على آلاف السنين من قصص الرحّل وعبرهم الصحراء القاحلة، حيث لا يترك الزمن أثراً على ثباته وصموده. كان المكان متهالكاً، بأرضيته الترابية وجدرانه المتشققة، لكنه ظل ملاداً آمناً مثل رحّال مثل كون. عند دخوله، تهافت كون على السرير العريض الذي بدت أقمشته ممزقة ومهجورة من رائحة الغبار والقدم، لم يتحمل جسده المثقل بالإرهاق أكثر، فغاب عن الوعي بعمق.

بينما هو مستغرق في نومه الثقيل، كانت يارا الصغيرة تتفحص تفاصيل المكان بعينين فضوليتين لا تعرفان الملل. لفت انتباها على الطاولة المتهزة وردة سوداء ذات لون قاتم كأنها محمولة بأسرار قديمة، تأملت الوردة وكأنها تنبض بالحياة وسط ذاك الخراب. أما جوارا، فظل في الطابق العلوي، يعاني من جوع كاسح استولى عليه، كان بطنه لا يهدأ ولا يشبع، يترقب بشغف أي لقمة قد تسد رمقه. لم يكن الأمر غريباً، فهكذا حال الرحّل بين مشقات الصحراء المتتابعة.

تنهد كون بهدوء، وصرف نظره عن تعب جسده ليراقب تحركات يارا الصغيرة؛ كانت خطواتها الرقيقة قصيرة جداً، حتى بدا كأن قدميه النحيلتين تشبهان تلك السمكة المنتفخة التي تعيش في المياه الضحلة. وفي لحظة من اللطف، سمع ضحكته الخفيفة التي كسرت صمت المكان، فالتفتت يارا إليه ببراءة طفولتها، ثم اندفعت نحوه،

وقفزت على صدره الصلب، وبدأت تداعب لحيته التي طال عليها الإهمال بسبب حياته الشاقة المليئة بالمخاطر.

كان كون رجلاً ذا حضور قوي، وسحر جذاب يلفه رغم كل الصعاب، لكنه نسي العناية بنفسه، كما لو أن تلك المغامرات العنيفة كانت تتبع شيئاً من روحه وجسده مع الوقت. طلبت منه يارا، بنبرة بريئة، أن يحضر لها المشط الذي كان موضوعاً على طاولة مهترئة بجانب المرأة. بحنان، حمل لها المشط وسلمه إليها، بينما كانت عيناه ترافق من خلال المرأة تعابير وجهها المستدير، وشدة بياضه الذي يشبه الجليد، ونقاء عيونها الزرقاء الصافية كصفاء السماء.

تفحصت يارا نفسها بفضول، وقالت بصوت صغير ورقيق: "واو، أهذا أنا يا بابا؟" توقفت أنفاس كون للحظة، متفاجئاً بهذه الكلمة التي خرجت من شفتيها. قال وهو يبتسم بحذر: "لحظة... أنا من قلتها، يا يارا." لكن الطفلة لم تتركه ليفكر طويلاً، إذ ردت مبتسمة ومداعبة لحيته برقة: "بابا..." فأحمر وجه كون على الفور، لكنه استطاع كبح جماح خجله، وقال بسخرية خفيفة: "يارا، من علمك هذه الكلمة؟"

ردت بابتسامة بريئة على أصولها الطفولية: "تاتا الوحش" (وكان يقصدون عم كون)، فأزالها برفق من على صدره، وضرب برجله الأرض بعنف قائلاً: "أيها الملعون الشقي!"

في الجانب المقابل، شعر عم كون بحكة في أذنه، فنظر نحو المصدر وقال بابتسامة ساخرة: "من يتحدث عني؟" رغم ملامحه القاسية، بدا ذلك الرجل يحمل في عينيه دهاءً وحكمة عمر طويلة. بقيت نظرات يارا تتشبث بالبراءة، وكون لم يستطع مقاومة سحرها وجمالها الذي يأسِر قلبه في كل مرة (يا عيني ☺).

لكن ذلك الجو الدافئ تقطّع فجأة عندما لاحظ جوارا توّتر أبيه ونظرات يارا الساحرة، قبل أن يتمكن من التحدث، أسرع كون إلى الطابق العلوي هاربًا، تاركًا الصغارين في حيرة من أمرهما.

جلس وحيدًا، مشحونًا بالقلق والريبة التي تنهش داخله، وهمس في نفسه بحزن: "أنا لست أباً... أنا فقط رحال أشعث، لا أعرف كيف أقاتل مثل أقراني." كانت رائحة الخمر تغلف المكان، متغلغلة بين أنفاس الموجودين، كأنها سحبت عقل كون بعيدًا إلى عالم آخر. وأخيرًا، توقف صوتًا غليظًا: "تمالك نفسك، أيها الرجل... هل ستشرب كل هذا وحدك؟ ما المناسبة؟ هل ستتزوج؟"

بغضب واضح، بصدق كون الشراب وانزعج من التدخل، ونظر إلى صاحب الصوت بنظرة تشبه قطًا هائجًا وقال: "أحرس!"

كان ذلك الشاب يشبه كون بشكل غريب، لكن عيناه كانتا سوداويين عميقين، مختلفتين تماماً عن عيني كون الخضراء الحاملة. لكن كون لم ينتبه كثيراً، فقد تملّكه

الدوار والإرهاق من كثرة الشرب حتى أغمى عليه، وسقط رأسه وهو يصطدم بقوة على الطاولة، ليغرق في نوم عميق.

استمرت يارا الصغيرة بلا كلل في محاولة إيقاظ أبيها، فكانت تلمس وجهه بلطف وتحاول جذب انتباهه بحركاتها الصغيرة البريئة، لكن كونه كان غارقاً في سباته العميق، كان روحه قد تاهت في عالم آخر بعيد. حتى ابنه الصغير لم ينجح في إيقاظه، إذ وضع جواربه في أنف أبيه محاولةً لإحداث صوت أو إثارة ترد فعل، لكن دون جدوى. كان جسد كون جامداً، كأنه جثة بلا حياة، لا يتجاوب مع أي شيء من حوله.

في تلك اللحظة، ظهر ذلك الرجل الشاب الذي اقترب منه بخطوات هادئة وحازمة. مد يده ونقره نقرة قوية على رأسه، حتى عاد كون إلى وعيه وهو يتآلم من تلك النقرة المفاجئة، وعيناه تلتقطان محيطه ببطء. نظر إلى الشاب بغضب واضح على وجهه وقال بنبرة متألمة: "أيها الشيطان الملعون! هل هذه أصابع أم خناجر؟!"، لكن الشاب لم يبدُ متأثراً، بل رفع إصبعه إلى شفتيه في حركة صارمة لأجل إسكات كون، ثم رمقه بنظرة ماكرة وابتسمة هادئة، وكأنه يقول له: "اهدأ يا رحال".

رد الشاب ببرود وهو يشير إلى اللحية الكثيفة التي يملكتها كون، قائلاً: "أنت تملا المكان بضجيجك.. على الأقل احترم لحيتك، أيها الرحال."

لكن كون، مندهشًا وغاضبًا في آنٍ معاً، قام برمي يد الشاب بعيداً عنه بقوة، وقال بسخرية واضحة: "ومن أنت؟ آه، آه... أجمل رجل وأحسنهم خلقاً إذا كنت كذلك! أخرج من الغرفة، الأطفال مذعورون."

انحنى الشاب بهدوء، وابتسم بابتسامة دافئة، ثم وضع قبلة رقيقة على جبين يارا الصغيرة. بدت يارا مستسلمة لهذه اللفتة، أغمضت عينيها بلطف وكأنها شعرت بالأمان في تلك اللحظة. ثم تجاهل الشاب وجود جورا الصغير بجانبه، ووجه حديثه إلى كون قائلاً: "لديك أميرة جميلة هنا... هل هي ابنتك حقاً؟"

شعر كون فجأة بالخطر يزحف في قلبه، وتوجه نحو يارا بسرعة، أمسك بها بإحكام وهو يحدق في الشاب بحدة، وقال بصوت صارم: "أنت أغرب عن وجمي، وإلا شوّهت ابتسامتك المريضة هذه."

ابتسم الشاب بابتسامة ساخرة وقال بنبرة غير مهتمة: "فتاة مسكينة حقاً... يا لك من بائسة أن تصلي إلى مثل هذا". ثم فجأة، وجه كون لكمامة قوية مما أدى إلى سقوط الشاب أرضاً وهو يتقطّع أنفاسه وفمه ينزف ببطء.

ضحك الشاب بصوت خافت، وهو يحاول استعادة توازنه، وقال بصوت هادئ لكنه مليء بالثقة: "سأعرض عليك صفة، سأرافك، وسأنقذ صغيرتك من الموت الذي يهددها."

رد كون بغضب واضح وهو يبعده عنه: "احفظ هرائك لنفسك، أنا لا أثق بساحر مثلك".

جورا، الصغير الفضولي، نظر إلى والده بعيون واسعة وقال باندهاش: "بابا، هل هو ساحر؟"

أجاب كون بنبرة جادة: "نعم، ساحر يخدم الشياطين".

ابتسم الشاب بابتسامة مليئة بالثقة والبرود، وقال بهدوء: "عذرًا، أنا ساحر نزيه وأحترم نوعي وقومي. لست بخائن. أنا ساحر حسب الطلب، وحسب الدفع فقط. لا دخل لي بالمبادئ هنا".

كان كون ينظر إلى ويل بعينين يشتعلان غضبًا، كأن نارين متقابلين تتحديان السكون القاتم. أمّا ويل، فظلّ جالسًا ببرود، كجبل جليدي قديم لا تهزّه العواصف، وفي عينيه بريق مكِّر حادّ كحد السيف، كأنهما يختران سرًا لا يبوح به. بينما كان الهواء يثقل أكثر من الحديد، مشحونًا بتوتر يوشك أن ينفجر، حتى بدت الطاولة

الخشبية الفاصلة بينهما وكأنها ساحة معركة تنتظر شرارة أولى. وما جمعهما هناك لم يكن سوى يارا، تلك الفتاة التي كانت سبب هذا اللقاء المريء.

هي التي أقنعت والدها بأنّ ويل شخص جيد، وأنّها ترغب في مرافقته في رحلاته، مصراً على رأيها رغم شكوك والدها التي تنهش قلبه مثل أنياب خفية. وبرغم ذلك، انصاع الوالد الحنون لرغبتها، كيف لا وهي التي تحمل على خديها لون ورد الصباح، فيذوب عند إصرارها كلّ صلابة. وعلى مقربة منها جلس جوارا، يراقب ويل بعينين ضيقتين حادتين، كأنهما ميزان حسام يقيس خطر الرجل الجالس أمامه. ظلّ الصمت سيد الموقف، لكنّه صمت ثقيل، أشبه ما يكون بعاصفة تترّص خلف الأفق. كان الأب والأبن معًا يستشعران شيئاً مخيفًا يحيط بالغريب، ومع ذلك اختارا أن يكتما ما في صدرهما، متربصين بانكشاف الحقيقة.

وإذ فجأة، ومن دون أي تمهد، انفتح الباب على مشهد لا يصدق... أفعى سوداء، لامعة القشور، زحفت بخطوات متمايلة نحو الطاولة. لم يبُدُّ على كون أي خوف، بل رفع حاجبه ببرود العارف، إذ كان يدرك أنّ الأفعى ليست سوى رسولًا يحمل أنباء. توقفت أمامه، فتحت فمها ببطء كئيب، كاشفة أنيابها الحادة، ثم أسقطت ورقة حمراء على سطح الخشب.

مدّ كون يده متربّدًا وأخذ الورقة، وعيناه تجولان بسرعة بين السطور، لكن وجهه تجمد فجأة كمثال من حجر. كانت الرسالة من بيروم، يطلب منه العودة على الفور إلى الديار، إذ اقتحم ضيف مجھول قرية زورا وأسر النساء عنوة. كلّ من حاول من

المحاربين التصدي له سقط مهزوماً، فالضييف كان كالسراب، لا تؤثر فيه السيف،
ولا تطاله التعاوين، ولا تخدشه السموم. والأسوأ أنه كان يقود النساء الآن إلى مكان
مجهول، بعيداً عن أنظار الجميع.

شدّ كون قبضته حتى تحطم الكأس الذي أمامه، فتبعثر الزجاج على الطاولة كما
تناثر شظايا الصبر الأخير. رفع بصره ببطء، فإذا بعيون ويل تتوهج بشرر غامض،
وقال بنبرة ثقيلة تُنذر بالخطر:

"أظن أنّ الوقت قد حان لكي نتحالف، أيها الرجال."

أجابه كون، وصوته مشدود بالغضب وكأنّه يقاوم اعترافاً مُرّاً:

"هل لك علاقة بالأمر؟"

ابتسم ويل بخفة، وكان السؤال لا يعنيه إلا كتسليمة عابرة:

"لا أعرف حقاً... لكني جئت لأساعد فقط."

عصر كون عينيه بشدّة، وفي نبرته قسم لا رجعة فيه:

"أقسم أنني سأقتلك".

لكن التوتر لم يكتمل، إذ قاطعت يارا الموقف بكلمات بدت للوهلة الأولى بلا معنى، كلمات خرجت بصوت مختلف، حتى إنّ ويل نفسه لاحظ أنّ عينيه بدأتا تومضان بضوء غامض. وفجأة، انطلق من يدها سوط ذهبي، التفّ حول عنق ويل. قالت ببراءة، وكأنّها ما زالت طفلة:

"بابا... بابا، هل تريد أن نلعب مع ويل؟"

تبادل الجميع نظرات دهشة مذهولة، إلا ويل، الذي أمسك بالسوط ودفعه بعيداً، فكشف عن عالمة غريبة على جبهته. ثم نظر إلى الفتاة، وصوته ممزوج بإعجاب خفي وتحذير قاسٍ:

"أنتِ فتاة أمينة، تملكين غريرة الدفاع عَمِّن تحبين... لكن احتفظي بقوتك لمواجهة من سيقتلك، يا صغيرتي."

لم تحتمل يارا أكثر، فانفجرت بالبكاء، فانقضّ جواراً عليها واحتضنها بعنف:

"أيها الساحر البغيض، ماذا فعلت لها؟!"

غير أنّ وقع أقدام قادمين قطع الموقف تّوًّا. دفع كون الطاولة جانبًا، ويده امتدت كبرق خاطف إلى عنق ويل:

"سوف أقتلك... لكن يجب أن ننهي ما بدأ هنا."

وفي لحظة، وضع سيف بارد على رقبة كون من الخلف، وصوت حاد قال بصراحته:

"سيدي... هل نقتله؟"

ابتسم ويل ببرود غريب، وقال متهكّمًا:

"أنت وغباؤك... اهدأ، يا أخي."

رفع كون حاجبه بدهشة غاضبة:

"لست أخاك، أيها المهجن."

و قبل أن يتمكن من الرد، صرخ جوارا بذعر:

"أبي... خلفك!"

استدار كون، فإذا بامرأة نحيلة القوام، شعرها أحمر كلون النار المشتعلة، وعيناها زرقاءان بصفاء الجليد، تتقدم بخطوات بطيئة واثقة. كانت نظراتها ترکّز على يارا، التي ما زالت ترتجف في حضن جوارا. ارتجف الأخير، ورفع خنجره في وجهها، لكن عيني المرأة سطعتا بضوء حاد، حتى فقد وعيه في لحظة خاطفة.

أسرع كون، وسحب سلاحه وصوّبه نحو رأسها:

"ماذا فعلت بابني؟"

غير أنّ جوارا استعاد توازنه فجأة، وحدسه يعلو مثل صرخة داخلية:

"أبي... هذا الشخص سيخطف يارا. حدي لا يخطئ."

حدّق كون فيه بغضب، وصوته يتشقّق من ثقل الماضي:

"بئسًا لك، أهلاً الخائن... لماذا عدت بعد كل هذه السنين لتدمّر ما تبقى من عالي؟"

ردّ ويل بهدوء، كمن يستمتع باستفزازه:

"ابنك يملك حدس أمه... وتهورك... وذكاء عمه."

صرخ كون بغضب عارم:

"آخرس! أنت من استدعيت الوحش العاقد ليقتل أبي وزوجتي."

أجا به ويل ببرود أشدّ من صقيع الشتاء:

"أبوك كان عنيدًا... وزوجتك رفضت تسليم الطفل. لو أتّها سلمته... لنجدت."

ارتجم كون حتى كاد الغضب يفتك بعروقه:

"أنت تابع لذلك الشيطان... أليس كذلك؟"

قال ويل بابتسامة صغيرة، تحمل شيئاً من الجنون:

"لا... أنا أريد أن أصبح الشيطان."

لم يتمالك كون نفسه، فأطلق رصاصة نحو رأس المرأة، لكنها تفاتها بخفة مذهلة. أشار إلى جوارا، مفعلاً واقياً سحرياً جعلهما يختفيان عن الأعين، لكن المرأة انقضت على يارا، وأمسكت بها بقوة. فجأة، أطلقت الفتاة صرخة مدوية، هزّت المكان كله، وفي لحظة واحدة... اختفى جوارا ويara معاً.

وقفت المرأة مبهوتة، الدهشة على ملامحها:

"هذه الفتاة صعبة المراس حقاً... يا عزيزي ويل."

التفت كون إلى ويل، الذي كان سلاحه مصوياً إلى رأسه، وسيفه على وشك أن يغادر غمده. فقال الرجل ببرود آثم:

"سأتركك الآن... لكن مع حلول تجمع الوحوش العاقرة... ستجدني أمامك. لذلك، أحِمْ يارا، يا أخي الشجاع."

واختفى ويل فجأة، تاركًا كون يصرخ بغضب حارق يذيب صمته.

حينها، خرج جوارا من الخزانة التي كان يختبئ فيها، وعيناه متوجهتان نحو يارا التي ارتجفت كغصن في ريح عاتية. جلس كون على الأرض، يضع يديه على رأسه المثقل بالندم، وصوته يخرج كهمس ثقيل ينづف مرارة:

"ماذا سأفعل الآن؟"

كان كون ينظر إلى ويل بعينين يشتعلان غضبًا، كأن نارين متقابلين تتحديان السكون القاتم. أمّا ويل، فظلّ جالسًا ببرود، كجبل جليدي قديم لا تهزّه العواصف، وفي عينيه بريق مكّر حادّ كحد السيف، كأنهما يختزان سرًا لا يبوح به. بينما كان الهواء يثقل أكثر من الحديد، مشحونًا بتوتر يوشك أن ينفجر، حتى بدت الطاولة الخشبية الفاصلة بينهما وكأنها ساحة معركة تنتظر شرارة أولى. وما جمعهما هناك لم يكن سوى يارا، تلك الفتاة التي كانت سبب هذا اللقاء المريض.

هي التي أقنعت والدها بأنّ ويل شخص جيد، وأنّها ترغب في مرافقته في رحلاته، مصرة على رأيها رغم شكوك والدها التي تنهش قلبه مثل أنياب خفية. وبرغم ذلك،

انصاع الوالد الحنون لرغبتها، كيف لا وهي التي تحمل على خديها لون ورد الصباح، فيذوب عند إصرارها كل صلابة. وعلى مقربة منها جلس جوارا، يراقب ويل بعينين ضيقتين حادتين، كأنهما ميزان حساس يقيس خطر الرجل الجالس أمامه. ظلّ الصمت سيد الموقف، لكنّه صمت ثقيل، أشبه ما يكون بعاصفة تترّص خلف الأفق. كان الأب والابن معًا يستشعران شيئاً مخيفًا يحيط بالغريب، ومع ذلك اختارا أن يكتما ما في صدرهما، متربصين بانكشاف الحقيقة.

وإذ فجأة، ومن دون أي تمهد، انفتح الباب على مشهد لا يصدق... أفعى سوداء، لامعة القشور، زحفت بخطوات متمايلة نحو الطاولة. لم يبدُ على كون أي خوف، بل رفع حاجبه ببرود العارف، إذ كان يدرك أنّ الأفعى ليست سوى رسولاً يحمل أنباء. توقفت أمامه، فتحت فمها ببطء كثيف، كاشفة أنياها الحادة، ثم أسقطت ورقة حمراء على سطح الخشب.

مدّ كون يده متربّداً وأخذ الورقة، وعيناه تجولان بسرعة بين السطور، لكن وجهه تجمد فجأة كتمثال من حجر. كانت الرسالة من بيروم، يطلب منه العودة على الفور إلى الديار، إذ اقتحم ضيف مجھول قرية زورا وأسر النساء عنوة. كلّ من حاول من المحاربين التصدي له سقط مهزوماً، فالضييف كان كالسراب، لا تؤثر فيه السيف، ولا تطاله التعاويد، ولا تخدشه السموم. والأسوأ أنّه كان يقود النساء الآن إلى مكان مجھول، بعيداً عن أنظار الجميع.

شدّ كون قبضته حتى تحطم الكأس الذي أمامه، فتبعثر الزجاج على الطاولة كما تتناثر شظايا الصبر الأخير. رفع بصره ببطء، فإذا بعيون ويل تتوهج بشرر غامض، وقال بنبرة ثقيلة تُنذر بالخطر:

"أظن أنّ الوقت قد حان لكي نتحالف، أيها الرجال."

أجابه كون، وصوته مشدود بالغضب وكأنّه يقاوم اعترافاً مُرّاً:

"هل لك علاقة بالأمر؟"

ابتسم ويل بخفة، وكأنّ السؤال لا يعنيه إلا كتسليمة عابرة:

"لا أعرف حقاً... لكنّي جئت لأساعد فقط."

عصر كون عينيه بشدّة، وفي نبرته قسم لا رجعة فيه:

"أقسم أنّي سأقتلك."

لكن التوتر لم يكتمل، إذ قاطعت يارا الموقف بكلمات بدت للوهلة الأولى بلا معنى، كلمات خرجت بصوت مختلف، حتى إنّ ويل نفسه لاحظ أنّ عينيه بدأتا تومضان بضوء غامض. وفجأة، انطلق من يدها سوط ذهبي، التفّ حول عنق ويل. قالت ببراءة، وكأنّها ما زالت طفلة:

"بابا... بابا، هل تريـد أن نلعب مع ويل؟"

تبادل الجميع نظرات دهشة مذهولة، إلا ويل، الذي أمسك بالسوط ودفعه بعيداً، فكشف عن علامة غريبة على جيئته. ثم نظر إلى الفتاة، وصوته ممتنع بإعجاب خفي وتحذير قاسي:

"أنتِ فتاة أمينة، تملـكين غـريزة الدـفاع عـمـن تحـبـين... لكن احتـفـظـي بـقوـتك لـمواـجهـةـ من سـيـقـتـلكـ، يا صـغـيرـتيـ."

لم تحـتمـلـ يـارـاـ أـكـثـرـ، فـانـفـجـرـتـ بـالـبـكـاءـ، فـانـقـضـ جـوـارـاـ عـلـمـهـاـ وـاحـضـنـهـاـ بـعـنـفـ:

"أـيـهـاـ السـاحـرـ الـبـغـيـضـ، مـاـذـاـ فـعـلـتـ لـهـاـ؟ـ!"

غير أنّ وقع أقدام قادمين قطع الموقف تـوـاـ. دـفـعـ كـوـنـ الطـاـوـلـةـ جـانـبـاـ، وـيـدـهـ اـمـتـدـتـ كـبـرـقـ خـاطـفـ إـلـىـ عـنـقـ وـيلـ:

"سوف أقتلك... لكن يجب أن ننهي ما بدأ هنا."

وفي لحظة، وضع سيف بارد على رقبة كون من الخلف، وصوت حاد قال بصراحته:

"سيدي... هل نقتله؟"

ابتسم ويل ببرود غريب، وقال متهكمًا:

"أنت وغباوْل... اهدأ، يا أخي."

رفع كون حاجبه بدهشة غاضبة:

"لست أخاك، أيهما المهجين."

و قبل أن يتمكن من الرد، صرخ جوارا بذعر:

"أبي... خلفك!"

استدار كون، فإذا بامرأة نحيلة القوام، شعرها أحمر كلون النار المشتعلة، وعيناها زرقاوان بصفاء الجليد، تتقدم بخطوات بطيئة واثقة. كانت نظراتها ترگّز على يارا، التي ما زالت ترتجف في حضن جوارا. ارتجف الأخير، ورفع خنجره في وجهها، لكن عيني المرأة سطعتا بضوء حاد، حتى فقد وعيه في لحظة خاطفة.

أسرع كون، وسحب سلاحه وصوّبه نحو رأسها:

"ماذا فعلت بابني؟"

غير أنّ جوارا استعاد توازنه فجأة، وحدسه يعلو مثل صرخة داخلية:

"أبي... هذا الشخص سيخطف يارا. حدي لا يخطئ."

حدّق كون فيه بغضب، وصوته يتشقّق من ثقل الماضي:

"بئسًا لك، أئها الخائن... لماذا عدت بعد كل هذه السنين لتدمّر ما تبقى من عالي؟"

ردّ ويل بهدوء، كمن يستمتع باستفزازه:

"ابنك يملك حدمي أمه... وتهورك... وذكاء عمه."

صرخ كون بغضب عارم:

"آخرس! أنت من استدعيت الوحش العاشر ليقتل أبي وزوجتي."

أجابه ويل ببرود أشدّ من صقيع الشتاء:

"أبوك كان عنيدًا... وزوجتك رفضت تسليم الطفل. لو أتّها سلمته... لنجت."

ارتجم كون حتى كاد الغضب يفتك بعروقه:

"أنت تابع لذلك الشيطان... أليس كذلك؟"

قال ويل بابتسامة صغيرة، تحمل شيئاً من الجنون:

"لا... أنا أريد أن أصبح الشيطان."

لم يتمالك كون نفسه، فأطلق رصاصة نحو رأس المرأة، لكنها تفاتها بخفة مذهلة. وأشار إلى جوارا، مفعلاً واقياً سحرياً جعلهما يختفيان عن الأعين، لكن المرأة انقضت على يارا، وأمسكت بها بقوة. فجأة، أطلقت الفتاة صرخة مدوية، هزّت المكان كله، وفي لحظة واحدة... اختفى جوارا ويara معاً.

وقفت المرأة مهوتة، الدهشة على ملامحها:

"هذه الفتاة صعبة المراس حقاً... يا عزيزي ويل."

التفت كون إلى ويل، الذي كان سلاحه مصوياً إلى رأسه، وسيفه على وشك أن يغادر غمده. فقال الرجل ببرود آثم:

"سأتركك الآن... لكن مع حلول تجمع الوحوش العاقرة... ستتجدني أمامك. لذلك، أحم يارا، يا أخي الشجاع."

واختفى ويل فجأة، تاركاً كون يصرخ بغضب حارق يذيب صمته.

حينها، خرج جوارا من الخزانة التي كان يختبئ فيها، وعيناه متوجهتان نحو يارا التي ارتجفت كغصن في ريح عاتية. جلس كون على الأرض، يضع يديه على رأسه المثقل بالندم، وصوته يخرج كهمس ثقيل ينفر مراة:

"ماذا سأفعل الآن؟"

لم يعرف كون ماذا يفعل، ولأول مرة عجزت يداه المتمرسن، اللتان تعودتا على حمل السيوف ومواجهة الأخطار، عن القيام بأي حركة. كان جسده يختنق بين صراعات العقل والقلب، خاصة وأن أخاه كان في الواجهة، يسعى أيضاً لأخذ يارا، ما زاد من ثقل اللحظة على صدره. ووجه عينيه نحو المرأة ثم ابتسم بشكل هستيري، كأنه يطلق صرخة يأس في وجه القدر، وقال بصوت متهجد لكنه حاد: «بئسالك أهيا العاجر، بئسا.. لا أستطيع خسارة المزيد». ثم، فجأة، أدار وجهه ورفع كأس الماء الموضوع بجانبه، ورش وجهه به محاولةً لإيقاظ حواسه المبعثرة.

فجأة، استيقظ جوارا من نومه، وبصوت مفعم بالحيرة والقلق قال: «أبي، أتريد أن نذهب إليه؟» نظر كون إلى ابنه بحيرة، وأجاب بصوت ملئه التردد: «لا أعرف حقاً يا بني..» حاول جوارا التذكير، فقال: «لكنّك ذهبت إليه عندما مرضت أمي بشدة، فعالجها..» تأمل كون لحظة، وأجاب بثقل: «لكنه من المورون، لقد دفعت ثمناً باهظاً لذلك العلاج، والآن ماذا سأدفع؟»

قال جوارا بلا تردد: «إذن خذ هذا السوار.» انهر كون عندما أمسك بالسوار العاجي المنقوش عليه رأس طائر العنقاء البارد، تلك النقوش التي تلمع بتفاصيلها بدقة متناهية كأنها تنبض بالحياة. نظر إلى جوارا وسأله: «من أين حصلت عليه؟» فأجابه صوت خافت: «من يارا.. لقد وضعه ذلك الوحش من الرون على يديها، وأنا أخذته.»

تأمل كون السوار في يده، وقال في نفسه بتأنٍ: «كيف لم أتبصر بهذا من قبل؟ هذا السوار ثمين لدرجة أنه لو وصل إلى الأيدي الخطأ، فسوف يموت الكثيرون. لديه قدرة على تسكين الروح المتمردة، لكنه لماذا أعطاه يارا؟ وكيف وصل إلى ذاك الرون؟ المورون والرون نادراً ما يجتمعان.»

توقف لوهلة، ثم تذكر معلومة غامضة، وقال لنفسه: «هناك احتمال واحد فقط.. العنقاء، كل سنة تحوم حول الرون لتجمع القلوب التي ترمي في الشلال، فتحولها إلى حجارة بيضاء تشبه العاج، وتضع عليها بيضها. لذلك يزور الرون كل سنة المورون ليأخذوا تلك الحجارة ويحولونها إلى أسوره لعلاج الأرواح المحتاجة أو المريضة. الروح هي أساس كل شيء.»

تنهد كون طويلاً، وأدار نظره إلى جوارا قائلاً بصوت مفعم بالعزم: «لم يعد في وسعنا غير ذلك، يجب أن نذهب إليه لنجد حلاً لهذه الصغيرة.»

أخرج كون خنجره من غمده، ورفع طرفه إلى سماء الصحراء الواسعة، بينما كان يحمل يارا النائمة بين ذراعيه، وجوارا يسير أمامه بخطوات ثابتة وسريعة. فجأة، لمح

كون أجنحة مختلفة الأنواع تحلق في السماء، لكنها بدت غير خطيرة. كانت الصحراء، برغم جفافها القاحل، مسكنًا طبيعياً للطيور، تعج بالفرائس السهلة مثلهم.

كان كون يشعر بقلق عميق من البقاء في ذلك المكان، لأنه يعرف أن المورون، عندما يحسون بالخطر، يخفون أماكنهم بدقة متناهية. وكان يحس بقوة طاقة يارا المخيفة التي ربما تجذب الأنظار، لذا كان تونسي الحذر واجباً.

ثم أدار نظره إلى يساره، ورأى شخصاً ضخماً الجثة واقفاً بثبات، وعندما تأمل وجهه لفترة طويلة، عرف أنه شجرة عقيمة، مسكن المورون. أنزل كون يارا برفق على الأرض، ثم أخرج السوار وأطلق منه صوتاً رقيقاً يشبه تغريد العندليب، من خلال فتحة صغيرة في وسط رأس العنقاء الباردة. بعد ذلك، لمح خطافاً معلقاً فوقهم، وإذا به يصدر صوتاً خافتاً يقول: «أتبعني...»

تبعد كون والآخرون بحذر حتى وصلوا إلى مكان فارغ، كما كان كون يتوقع، لكن ما لم يكن يتوقعه هو أن ذلك المورون ظل يحدق في يارا، حتى شحب وجهها من المفاجأة والرعب عند رؤيته.

تحدث المورون بصوت مزعج ومخيف: «أنت كنز العالم، أيتها الروح.»

تملكه الرعب فوراً من هذا المشهد، فمسك جوارا وخرجه بيد مرتجفة، لكنه رأى المورون يتتحول فجأة إلى شكله الطبيعي، ووجه نظراته الحادة إلى كون، وقال: «لم أرك منذ وقت طويل، أيها الرحال، لتدخل.»

أحاط المكان بهالة من الغموض والخطر، وكان كون يشعر بثقل المسؤولية على عاتقه، وكان مصير الجميع معلق على هذا اللقاء.

دخل كون والطفلان النفق الضيق، المظلم كأحلال ليالي الصحراء، وكان يشبه أنفاق الاختباء القديمة التي تستخدمها القبائل للحماية، إلا أن هذا النفق بدا أضخم وأقدم، كأنه جزء من عالم غامض مدفون تحت الرمال منذآلاف السنين. الجدران الحجرية المحيطة به كانت ملساء من أثر الزمن، لكنها في نفس الوقت تفيض بهالة من الغموض والخطر، تعكس أصوات خافتة في زواياها وتصدح بصدى الخطوات الثقيلة التي تدوي في المكان.

دفع الرجل المورون بصندوق خشبي مهترئ إلى جانب الحائط، حيث بدا كأنه يحوي أسراراً وكنوزاً قديمة، ثم أخرج عصا طويلة سوداء اللون، منحوتة بنقوش غريبة تلمع بخفة تحت ضوء الشموع الباهتة. التفت ببطء نحو كون، وصوته ثقيل وحاد وهو يقول: «لو أنك لم تكن تحمل هذا السوار، لانتهت حياة هذه الطفلة منذ زمن بعيد.. ومع ذلك، لا أحب الزبائن الذين يأتون كثيراً.»

جلس المورون بثقة عميقه، ومد عصاه أمامه وكأنها رمح يحرسه من كل سوء، ثم أمر كون بالجلوس مقابلة. جلس كون، مع شعور متداخل بين الحذر والتوتر، فتحدث كون بنبرة مرتجلة لكنها تحمل ثقل خبرات أعوام: «أريدك أن تخفي قوتها.»

نظرت عينا المورون إليه بابتسمة متهكمة، رغم تعابير وجهه العبوسة، وقال: «يارا تستطيع أن تخفيها، لكنها لا تريده. مشاعرها متشابكة مع قوتها؛ عندما يشعر جسدها بالخطر، تنبعث هالة ضخمة تحيط بها، تصل أحياناً إلى حدود العوالم، ثم تختفي.»

توقف كون لوهلة، يتأمل الكلمات بذهول، ثم قال: «حقاً؟»

رد المورون بهدوء كأنه يؤكّد أمراً لا مفر منه: «أنت تعلم أنّي مطرود بسبب أخيك، صحيح؟ هو الذي ورطني بالدخول إلى هنا، وأنا لا أربح بزوار من شعب الزورا.»

حدق المورون في عينيه، وقال بحدة: «أعرف، لكن هذا الأمر مختلف. أخوك يسعى وراء شيء شرير.»

فرك المورون رأسه بنوع من الإحباط، وأكمل بصوت منخفض: «أخوك يريد أن يأخذ من كل عالم شيئاً جوهرياً؛ عكس الشيطان الذي يمتّص القوى ويخزنها في جسده. طريق أخيك سيقضي على العوالم نفسها، وليس نفسه فقط... الرون جلبوا الظلام

لأن النور لا يناسبنا نحن المورون وشعب الزورا. أخوك يريد يارا لأنها نتاج جوهري
لكل هذه العوالم.»

قاطعه جوارا بصوت طفولي لكنه مليء بالفضول: «يارا دائمًا تقول إنها ترى النجوم،
ونرى فقاعات، ودائماً تحلم بأطفال.»

أكمل المورون بنظرية متأملة: «يارا تحمل في داخلها كل ذكريات العوالم، تحمل النور
والظلم، الخير والشر، السكينة والغضب. إنها مزيج فريد من كل شيء، وهذا ما
يفتقده أخوك. لذا لا أستطيع مساعدتها إلا إذا قررت هي، ربما لا تستطيع فهمك،
لكن إذا واجهت روحها، سوف تفهم.»

سأل كون بقلق: «وكيف يحدث ذلك؟»

أجاب المورون بصوت يتسم بالغموض: «الروح تكبر الجسد بمائة عام، وتجره إلى ما
يبقىه حياً. بين يارا وروحها رابط قوي جداً. سأجرب شيئاً خطيراً.»

قال كون متممًا: «ماذا؟»

اقرب المورون ببطء، ومد يده على يارا النائمة، وقال بوقار: «لتقبلي أيتها الروح
بالسلام، ول يكن لسانك شاهداً.»

ارتجمت يارا قليلاً ثم هدأت، وظهر على ندبها وشم غامض ينبع من توهج خافت، ثم خرجت منها صورة امرأة فاتنة، متأللة بجمال وسحر غريب.

سأل كون مذهولاً: «هل هذه يارا؟»

قال المورون بثقة: «إنها يارا الكاملة.»

نظرت الروح إلى كون قليلاً، ثم تحدثت بصوت هادئ وثقيل بالمعنى: «سأخبركم شيئاً يارا مستعدة لفعل الكثير، وهي واعية بمصيرها. تعمد إظهار هالتها لجذب الجميع، لأن الحراس الأربعة سيفقدون قوتهم، وسيعود النور إلى العوالم. يارا تختار الآن من تدمج معه قوته، لتكمل وصية الأسلاف بخلود الظلام.»

فرك كون عينيه بدھة، وقال: «ماذا؟»

أجاب المورون بنبرة جدية: «أيتها الروح، هل يارا من...؟»

قالت الروح بثقة ووضوح: «نعم، يارا من نسل الأسلاف، بشرية، لكنها ولدت لغرض وحيد: إعادة التوازن.»

فقال كون، بعد أن أدرك ثقل كلام الروح، وصوته يخرج ببطء لأن كل كلمة فيه تحمل حمل قرون:

«ماذا بعد التوازن؟»

رفعت الروح رأسها قليلاً، كأنها تستمع لحنين قديم يتردد في جدران المكان، ثم قالت بنبرة جافة، باردة مثل صقيع الفجر:

«الموت.»

ارتجم صوت المورون، وملامحه تعكس مزيجاً من الرفض والذهول:
«لكن الأسلاف... لا يموتون!»

ابتسمت الروح ابتسامة شاحبة، وكأنها تتذكر شيئاً فقدته منذ زمن، ثم أطربت برأسها نحو يارا، تحدّق فيها بعينين يملؤهما الأسى:

«سوف تمر يارا بعقبات كثيرة، وسوف تنقذ الكثير... لكن حين تحتاج هي من ينقذها، لن تجد أحداً. محزن... محزن أنها ستموت، رغم أنها خالدة.»

رفع كون حاجبه في ارتباك، وكأن عقله يحاول رفض الفكرة:

«خالدة؟!»

أجابت الروح، وصوتها يمتنع بين الحزن والفخر:

«يارا تختلف عن أسلافها الذين حملوا نصف المعادلة فقط... لقد امتلكوا القوة لخلق جانب واحد من التوازن، لكن يارا هي التوازن نفسه. ولهذا فهي خالدة. أنها اكتشفت ذلك في اللحظة التي غرست فيها أظافرها في لحمها لتلتهمها، وأبوها... أبوها قرر الموت فداءً لهذا السر. لم يستطع البوح به لأي عالم، ولا حتى لأقرب المقربين. لكن رؤية المأساة تتكرر أمامه كانت كحجارة تسحق روحه... فاختار أن ينها، أن ينهي نفسه، ويترك أنها تائهة، ويترك ذاته تتحرر من العذاب.»

وفجأة قطع صوت الروح بشهقةٍ حادة، شهقة من جوارا، كأنها سكين اخترقت قلب الحاضرين. كانت الدموع تهطل من عينيه بحرارة، وصوته يتقطّع:

«هـ... هل ستموت حقاً؟»

أومأت الروح ببطء، والظل يزحف على ملامحها:

«نعم... لكن... هناك شيء فعلته أنا في حياتي كـ"يارا" كان سبباً في نجاتها. لقد نزعت من جسدها المشاعر، جعلتها فارغة من الألم... لكن الآن، أريدها أن تعيش كإنسانة.»

مال المورون إلى الأمام، عينيه تضيئان بتساؤل حاد:

«هل عشت هنا من قبل؟»

ضحكـت الروح ضـحـكة قـصـيرة، فـيـها مـرـاـرـة التـجـارـب الـتـي لـا تـعـدـ:

«نعم... أنا أـعـادـ إلى جـسـدهـا كلـ مـائـةـ عـامـ. أـعـيـشـ قـرـنـاـ كـامـلـاـ، أـرـىـ أـحـدـاـهـ، أـوـاجـهـ نـهاـيـةـهـ، لـكـنـ الأـشـخـاصـ يـتـغـيـرـونـ. هـذـهـ حـيـاتـيـ الثـالـثـةـ.»

انـحـنـىـ كـوـنـ لـلـأـمـامـ أـكـثـرـ، الـدـهـشـةـ تـكـادـ تـفـجـرـ مـلـامـحـهـ:

«لحـظـةـ... هـلـ تـقـولـينـ إـنـ يـارـاـ وـجـدـتـ قـبـلـنـاـ؟ـ»

نظرـتـ إـلـيـهـ الرـوـحـ بـعـمـقـ، وـقـالـتـ وـكـأـنـهـاـ تـفـتـحـ بـاـبـاـ نـحـوـ مـاـضـ لـاـ يـقـاسـ:

«يارا من الأـسـلـافـ. عـاـشـتـ مـعـهـمـ، وـشـهـدـتـ كـلـ العـصـورـ. لـكـ لـأـنـ مـصـيرـهـاـ هـوـ التـواـزنـ، وـلـأـنـهـاـ التـواـزنـ ذـاـتـهـ، لـمـ تـسـطـعـ أـنـ تـغـيـرـ بـشـاعـةـ الـعـوـالـمـ، وـلـأـنـ تـمـحـوـ الشـرـ المـدـفـونـ خـلـفـ الـظـلـامـ. لـقـدـ عـادـتـ، ثـمـ مـاتـ... عـادـتـ، ثـمـ مـاتـ... بـطـرـقـ مـتـعـدـدـةـ. أـحـيـاـنـاـ تـُـتـرـكـ لـتـسـقـطـ، أـحـيـاـنـاـ تـُـبـاعـ، أـحـيـاـنـاـ تـُـسـتـغـلـ. لـكـنـ فـيـ حـيـاتـهـاـ الثـانـيـةـ... قـبـضـ عـلـهـاـ الشـيـطـانـ، وـمـعـهـ أـخـوـكـ، وـاـسـتـخـلـصـواـ طـاقـهـاـ، وـاـسـتـدـعـواـ بـهـاـ الـوـحـوشـ الـعـاـقـرـةـ. وـالـمـؤـسـفـ أـنـ تـلـكـ الـوـحـوشـ لـاـ يـمـسـهـاـ الزـمـنـ، وـلـاـ يـبـطـلـهـاـ الـبـعـثـ... إـنـهـاـ دـائـمـةـ.»

ظل المورون صامتاً للحظة، وكأن الظلام حوله يثقل صدره، ثم قال بصوت مبحوح:

«والآن... ما العمل؟»

رفعت الروح رأسها، كأنها تلبست لسان يارا وعينيها تشعّان بعزم غامض رغم الارتباك:

«يجب أن أعيش... كإنسانة. يجب أن أصل إلى شلال السيرون، وأبعث الحياة في
العالم. لا... لا تدعوني أموت فقط.»

لکن یارا، هل تذکر کل ذلک؟

قالها كون بصوت بارد كالجليد، عيناه ثابتتان عليها دون رمشة، لأن كل كلمة منه سليم يخترق الصمت.

قالت الروح، بصوت يخرج من عمق الضباب المحيط بهم:

لَا, يَا رَبَّنَا لَا تَتَذَكَّرْ... وَمَنْ الْجَيْدُ أَنْهَا لَا تَتَذَكَّرْ.

لكنها، في زمن بعيد، في حياتها الثانية، عاشت طويلاً بلا مشاعر... وكان ذلك بسببي.
انتزعتُ منها مشاعرها حتى صارت تتلذذ بالقتال، بعد أن أخذتها أنت أيها المورون...

ارتجم الهواء فجأة، والتوى ظل المورون على الأرض كأفعى سوداء، وانقلبت عيناه
بحدة، وصاحت:

كيف؟ وماذا؟ أنا؟ كيف حصل ذلك؟

ابتسمت الروح ابتسامة حزينة، وكأنها تذكر أمًا غابرًا:

لقد أخذتها من حدودكم... كانت تشبهكم لدرجة أنكم ربّيتموها كواحدة منكم، علمتموها القتال تحت وهج الليل القارص، حتى صارت مقاتلة عظيمة. وربما هذا الشيء الوحيد الذي ستتذكرة.

ستكبر لتقول: "أنا من المورون" ... نعم، أحببتكم بلحمنها وعظمها وعروقها... أحببتكم، وربما بدأت تتذكر.

هناك ذكريات مؤلمة أفضل أن أمحوها أنا بنفسي، لأنها مأساوية للغاية...

سكتت الروح لحظة، والثلج بدأ يتتساقط حولهم في صمت ثقيل، ثم واصلت:
بعد أن عاشت بينكم، ذهبت للقتال مع حراس الحدود، لكن انتهى بها الأمر مقطوعة
الرأس... وعلقة هناك، حيث لا يراها أحد.

لا أحد تذكرها سوالك... وربما طردك كان لأنك أردت البحث عنها، رغم أنك لا
تتذكرة.

آه... أنا مجرد روح تخزن الذكريات المحطمة.

اقرب المورون خطوة، وبريق غضب في عينيه:
إذن، لماذا حصل هذا؟ ألم تقولي إنها قوية؟

ردت الروح بصوت متماوج بين الحزن والفخر:
قوية، نعم... لكن لم يعلمه أحد استخدام قوتها الحقيقة.
يارا لا تستطيع حتى استيعاب قوتها لأصفها... لكن،رأيت تلك النجوم الطائفة في
السماء؟

قوة يارا تكمن في جمع الطاقة من كل شخص يلمسها دون أن تؤديه، ثم تخزنها لتطلقها في لحظة... ربما عبر وميض في عينيها، أو لهب يخرج من يديها، أو تنقل خاطف، أو حتى إنقاذه أنت دون أن تدري.

مهمتها الوحيدة... إنقاذه الجميع.

تدخل جورا، وصوته يقطر دهشة:

إنهما تشبه الإلهة...

هزمت الروح رأسها ببطء:

ليس تماماً... لكن العالم صار فوضى عميقه لدرجة أنه اندمج معها وحسها سلاماً.
يارا وجدت... وحسب.

ولا أعرف حتى أنا كيف، لكن أظن أنها في النهاية تعرف...
أنا، روح تخزن حياة يارا فحسب.

وفجأة، تحركت يارا، عيناهَا تلمعان بنظرات حنونة، لكن خلفها ظل حزن عميق،
وكان روحها تتذكر كل من فقدت.

كان الجميع يحدقون بها بحسرة، فمدت يدها نحو سيف كون، قبضت عليه
بإصرار، وقالت بصوت خافت لكنه مليء بالعاطفة:

"إنه أخي... لقد حبسه الشيطان هنا، لكنه تحرر من سلطته. أظن أنني تذكرت يا أخي."

فما كان من السيف إلا أن نطق فجأة:

"أختي، نامي... أنا بجانبك."

شhec الجميع بدهشة، واقترب المورون من السيف بفضول حاد، رافعاً عصاهم، وأطلق منها وهجاً شاحباً تحول إلى روح مقاتل شاب، وجهه مليء بالعزيمة.

قال الروح الشاب بصوت هادئ:

"من أنت؟"

ردت يارا والدموع تلمع في عينيها:

"إنه أنت... يا أخي القديم. اشتقت إليك... ليتك عشت، وأنا مُتُّ."

ثم خارت قواها فجأة، وسقطت مغشياً عليها، والثلج يذوب فوق شعرها، فيما ظل الجميع واقفين في صمت، غير قادرين على فهم ما حدث للتتو...

بعد استدعاء المورون للروح من السيف الفضي، سقطت يارا فاقدة الوعي، وكأن جسدها لم يتحمل ثقل اللقاء. لكن الروح لم تختفِ... بل بقيت، تطفو أمامهم وهي تبكي بصوت متقطع، بكاءً يحمل شيئاً أعمق من الحزن العادي. لم يكن المورون أو كون قد رأيا الروح في هذه الحالة من قبل.

وقف المورون يحدق فيه للحظات قبل أن يتقدم نحوه، لتبدأ بينهما مجادلة حادة. صوت الروح كان مهترئاً، لكنه مليء بالغضب والخذلان:

"أتعلم...؟ يارا لم تكن مجرد فتاة بالنسبة لي... في حياتها الثانية، كانت أختي. تربينا معًا بين المورون، أكلنا من نفس الخبز، وشاركتنا نفس السرير البارد في الليالي الطويلة. قاتلنا جنبًا لجنب، حتى جاء ذلك اليوم..."

صمت للحظة، وعيناه الفارغتان كأنهما تبهران في ذكريات غارقة، ثم أكمل بصوت خافت:

"يومها، سقطت هي في المعركة... وسقطت أنا معها. لكن قدرني كان أبشع... فقد ظللت عالقًا بين عالم الأحياء والأموات، حتى قبض علىّ الشيطان، وأسرني داخل هذا السيف، ليستخدمني ورقة يبتز بها يارا متى شاء."

المورون نظر له بحدة، كأنه يقرأ ما وراء كلماته، بينما كان كون يستمع، يحاول أن يفهم كيف أن شخصاً من المورون تربى مع يارا صار أسيئراً في قطعة معدنية.

لكن فجأة، شعر المورون بشيء غريب، إحساس غامض يتسلل لعقله... كأن هناك دخيلاً من خارج المكان. أغمض عينيه، مستعيناً بقدرة الخطاف، ليرى بعينيه ما لا يراه الآخرون. المشهد كان مربعًا: فوق النفق، يتجلو وحش عاقد ضخم، وعلى ظهره امرأة غامضة، وبجانبها فتاة صغيرة مقيّدة، ملامحها تكاد تكون نسخة عن نساء الزورا، وكأن دمهم يجري في عروقها.

التفت المورون إلى كون، وأخبره بما رأى. لحظة الصدمة ارتسمت على وجه كون، فذكره المورون بأن بيروم حذر سابقاً من العودة، لكن كون كان منشغلاً بيارا ولم ينتبه. حينها كشف كون عن السبب الحقيقي لعودته: بيروم لم يأتِ من أجل يارا فقط، بل كان يريد إنقاذ نساء الزورا اللواتي اختطفهن الشيطان، وهذه الفتاة التي مع المرأة ليست إلا إحدى تابعاته.

اندفع كون للأمام، يريد الصعود للنفق، لكن المورون أوقفه، واصفعاً يده على صدره بقوة.

"تلك المرأة نصبت لك فخاً... وهي تعلم أن يارا هنا. الشيطان يريد استهداف شعبك ليبتزك أنت أيضاً".

ثم أشار المورون بخطة جريئة:

"اذكر اسم شخص ميت للعصا، وانطقه بلغة الشيطان... سنجعله يخرج بدلاً عنك".

نفذ كون ما قاله، فظهر أمامهم رجل مهيب الملائم... جده، الذي كان يعرفه الجميع بقدرته على التحكم بعناصر القوة. سحره المورون، وجعل ملامحه نسخة مطابقة لكون، ثم أرسله نحو المرأة.

عند النفق، التقت العيون. المرأة، ما إن رأت كون المزيف، حتى ذبحت الفتاة أمامه بلا تردد، وأطلقت قبة نارية حوله. لكن الجد، بخبرته وقوته، حطم القبة باندفاع هائل، وأسرع بسيفه نحوها. المرأة قفزت بخفة شيطانية، وفي لحظة خاطفة، تحول الوحش العاقد الذي كانت تركبها إلى امرأة أخرى فاتنة الملائم، لتقف بجانها.

المعركة بدأت... سيف الجد، المتنكر بيئة كون، يلمع في الهواء، يصد ضربات الاثنين ويهاجم بلا هوادة. وفي أسفل النفق، كان كون الحقيقي يراقب المشهد عبر العصا، وقلبه يخفق بعنف، وهو يرى جده يواجه امرأتين إحداهما ليست بشرية على الإطلاق.



استمرت المرأة في تلويع طاقتها، خطوط داكنة ملتوية تتماوج في الهواء مثل أفاعٍ هائلة تلتف حول فرائسها قبل أن تخنقها، لكنّها لم تقترب من كون المزيف بما يكفي لإصابة جسده. كانت تلامس الرمال الذهبية فقط، تثير غباراً يلتف في دوائر بطيئة، وكأنّها تتعمّد استفزازه لا أكثر. عيناهما ضاقتا بابتسمة ماكرة، مزيج من التحدّي والاستهزاء، كأنّها تعرف أن أي خطوة يخطوها ستكون محسوبة عليها.

كون المزيف تقدّم خطوة بلا تردّد، أمسك مقدّمة السيف الحادة بيده العارية. المعدن اخترق كفّه بسهولة، واندفعت الدماء الدافئة من جرحه لتساقط على الرمال. القطارات، بدلاً من أن تنتشر، بدت وكأن الأرض نفسها تشربها بنهم، تاركة وراءها بقعًا داكنة تتلاشى بسرعة. لحظة صمت ثقيل سيطرت على المكان، ثم اهتزّت الأرض تحته قليلاً، كما لو أن الدم أثار شيئاً قدّيمًا يختبئ تحت السطح.

شهيقه صار مضطرباً، والسعال الحاد مزق صدره، دافعاً بمزيج من الدم والهواء إلى الخارج. وعياته، رغم الألم، انجذبنا نحو المرأة الثانية التي وقفت في الخلف، تمسك عصاً داكنة يتصاعد منها بخار بارد. هناك، خلفها، كان يقف جده الميت... أو ما يشبهه، بملامح جامدة وعيين لا حياة فيها. فجأة، شعر ببرودة حادة تخترق كتفه، رمح من طاقة غامقة اللون غاص فيه حتى ارتج جسده، وفي اللحظة نفسها انفجرت الذكريات في رأسه بلا رحمة.

رأى نفسه في زمن آخر، جسد آخر... رأى يارا، لكن ليست يارا التي يعرفها الآن، بل نسختها من حياتها الثانية. كانت محاطة باللهم والفووضى، تصرخ وهي تُسحب بعيداً عن مكان ينهر. أمامها كانت نينا... نفس المرأة التي تقف الآن، لكن بملامح أقل قسوة، تدفع يارا بعنف للخروج من ذلك الجحيم، تلتفت مرة أخرى بنظرة غامضة، ثم تختفي وسط الظلام. تلك اللحظة علقت في ذهنه كطعنة باردة في القلب.

عادت الحاضر فجأة، وكون المزيف يختنق تحت قبضة نينا التي التفت حول عنقه بإحكام. أنفاسه صارت قصيرة، والألم في كتفه يشتعل كالنار. خلفها بدأ الفضاء نفسه يتشقق، خطوط سوداء تتسع، والهواء يندفع نحو الفراغ الجديد بقوه كادت تقتلع الرمال من الأرض. دوامة ضخمة تشكلت، تبتلع الضوء والصوت والحرارة.

نينا سحبت جسده بقسوة، خطواتها ثابتة وسط العاصفة، وعيناها تلمعان ببرود. اقتربا من حافة الدوامة، والظلام العميق في الداخل بدا وكأنه يتنفس، يرسل موجات من الرهبة حتى إلى العظم. قبل أن يقفز، لمح كون المزيف ومضة من النار الحمراء في قلب الظلام، وصوتاً عميقاً يخرج من الأعماق، لا يشبه أي صوت بشري، يهمس باسمه وكأنه كان ينتظره منذ قرون.

قفزت نينا ومعها كون المزيف إلى الداخل، واختفيما في لحظة، تاركين خلفهما فراغاً مخيفاً وهدوءاً غير طبيعي. وفي أعماق ذلك الظلام، كان الشيطان ينتظر، وساحة معركة أخرى تتهيأ للاشتعال.

نينا... ذلك الاسم الذي كان يقطر حقداً كما يقطر جرح قديم صديداً.

رغم بشاعة عينها اللتين كانتا كشجين عميقين في بحرٍ من الظلم العكر، ورغم ابتسامتها التي تشبه أكثر ما تشبه انكماشة جرح يرفض الالتئام، كانت تحمل في قلها ثقلًا هائلاً من آسى شعما المنقرض، ذكريات موتها تتثبت بروحها كما تتثبت الأظافر المتسخة بجدار رطب. كانت تعرف أن ذلك الحزن هو ما يقيها من السقوط في العدم، لكنه أيضًا كان وقودًا لحقدتها.

ويارا... آه يارا. كانت بالنسبة لها صورة مستفزة لما لن تناله أبداً. مميزة بلا جهد، لأن السماء نفسها أعطتها كل شيء منذ ولادتها، بينما نينا كانت تضطر أن تمزق نفسها يومياً لتناول فتات اعتراف. لم يكن الحقد الذي تكنه مجرد منافسة، بل كان شعوراً خانقاً، لأن يارا هي الشمس التي تحرقها وهي معلقة في الظل إلى الأبد.

حين التقى لأول مرة، نينا في الثانية عشرة ويارا في التاسعة عشرة، كان الفارق بينهما كهوة سوداء، خاصة وأن يارا كانت خالية من المشاعر، باردة كتمثال رخامى. وحتى حين كلفت نينا بحمايتها باعتبارها نصف مورون، لم تجد منها سوى الاحتقار، ذلك الاحتقار الهدى الذي يقتل أكثر من الشتائم.

كانت تلك النظرة من يارا كافية لأن تُشعّل في قلب نينا قسماً خفيّاً: "سأعلو فوقك مهما كلف الأمر". ومنذ ذلك اليوم، تحولت حياتها إلى سباق محموم لتحطيم كل معيار، حتى بلغت رتبة يارا وهي في السادسة عشرة. لكنها لم تجد أمامها إلا يارا التي في الثالثة والعشرين لم تلتفت لها، لأنها لم تر إنجازها أصلاً.

ومع ذلك، لم تتوقف نينا. كانت تعرف أن الع神性 الحقيقية تُثبت في لحظات الانكسار. وجاءت تلك اللحظة في المعركة العظمى بعد موت الأسلاف. الوحوش اجتاحت الحدود، والسماء كانت سوداء بجناحات الموت. نينا، وعينيها تلمعان بخبث، دفعت يارا إلى قلب الجحيم، حيث أسراب الطيور الحديدية.

وقفت تراقب من بعيد، شفاتها ترتجفان من النشوة وهي ترى الطيور تلتف حول يارا، مخالبها تمزق لحمها، وأجنحتها ترفرف كالسلاكين. لم يرف لنينا جفن وهي ترى ذراع يارا تُتنزع من جسدها، الدم يتفجر كنافورة على أرض المعركة الموجلة. كانت تستمتع... نعم، تستمتع وهي تشاهد ذلك الكائن الذي احترقها ينهر أمام عينيها.

لكن النهاية لم تكن كما توقعت. وسط الفوضى والدخان، ظهر شخصان، يبدوان خارج الزمن، وجهيهما خاليان من أي تعبير. أحدهما نظر إلى يارا المشوهة، ولم ير فيها جرحًا أو ضعفًا، بل رأى في داخلها طاقة تكفي لسحقه إن تحررت. إلى جانبها كان أخوها، يتنفس بصعوبة، يودع آخر لحظاته.

حين حمل الرجل يارا، اشتعلت روح الأخ بالغضب واليأس، لكنه لم يجد صوته. أمسك بالسيف الفضي، وضغط عليه حتى سال الدم من قبضته، واندفع بجنون ليقطع طريقهما. لكن ضربته تحطمته كما يتحطم زجاج هش أمام جدار من الفولاذ. سقط، وروحه تتبعثر من جسده، حتى أمسك بها الرجل، وحبسها في السيف كما تُحبس الأرواح في الأحجار الملعونة.

بعد ذلك إستخلص الشخصان قوتها كلها وقطعها رأسها كي لا يشك أحد أنها كانت مخطوفة و كان رأسها جلياً لكل الذين يمرون من تلك الأرض البور التي حطمت فؤادها

...

استيقظت يارا من كابوسها، ودموعها تسيل بلا توقف. لاحظ المورون بكاءها، لكن وجهها ظل جامداً، كأنها لا تعرف لماذا تبكي. وعندما لامست جمجمتها قطرات دم كون، انفجرت الذكريات في رأسها.

رأت النجوم اللامعة تحييها كملكة، لكن تاجها كان من الشوك، كل شوكة تنغرس في جلدتها وتقطر دمًا ساخنًا على وجنتها. التفت نحو كون، وقالت بصوت ثقيل كالرصاص:

- الشيطان يريدني... لا يريدك.

انتفض كون، ووجهه شاحب، فقد رأى في العصا مشهدًا يقشعر له البدن. الشيطان كان جالسًا على عرش من الجمام، هيكل العرش متشابك من عظام بشرية، وكل جمجمة تحمل قصة موتها. كان يمسك برأس طفل رضيع، وجهه ما زال يقطر دفء الحياة، لكن قسماته مشوهة، ليست من الزورا، ومع ذلك تشبههم بطريقة مقلقة، لأن الدم قد اختلط في رحم مجھول.

الشيطان لم يأكل الرأس كما يفعل المفترسون... بل كان ينهش منه ببطء، يقطع اللحم بأسنانه السوداء الطويلة، يلوك كل قطعة حتى تتحول إلى عجينة دممية، ثم يبتلعها بصوت طقطقة وعروق تتمزق. الدم يسيل من زاوية فمه، يقطر على الأرض، فيتحول حيث يسقط إلى ديدان سوداء تتلوى وتصرخ كأنها تتألم.

كانت عيناه حمرتين تحرقان من الداخل، والجلد حولهما متشقق يخرج منه دخان رمادي. على رأسه قرنان ملتويان، يلتف حولهما حبل من شعر بشري معقود بخرز أحمر داكن.

وفوق العرش، كانت جمجمة ضخمة لخنزير عملاق، بلا أي ملامح مألوفة للخنازير، لكن عينيه... عينيهما كانتا شيئاً آخر. لم تكن عيون حيوان، بل عيون كائن جائع منذ الأزل، تشبه وحش العاقد، لكنها أعمق، أظلم، وأشد قرفاً، كأن كل قذارة العالم سُكبت فيها.

شهق كون، وهمس المورون، وكأن الهواء نفسه صار ثقيلاً:

- ما هذا...؟

ظهرت يارا فجأة أمام الشيطان، ودموعها تنهر كالشلالات التي تهطل من السماء الغائمة، تعجب المورون كيف اختفت تلك اللحظة كأنها سراب، كأنما خفتت كواحدة من أشباح الماضي. لكن حين رأى كون ذلك المشهد من خلال العصا، اجتاحته صدمة عميقة تسربت إلى عظامه وكادت تكسر روحه من هول ما رأى.

وقفت يارا هناك، أمام الشيطان، وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة باردة، كأنها شفرة حادة تنزف جليدًا. وصوتها الهشّ صارخًا في آنٍ معًا:

«كفى... كفى... أنت بغيض. لماذا لا تتركني؟ لماذا؟

أنا أكرهك. أكرهكم جميعًا... لقد مللت.

«أتريد قوتي؟ خذها... لكن توقف!»

نظرت إليه بعيون ترتعش من الخوف والتمرد في آن واحد، والرجفان يتسلل إلى جسدها كنسائم شتائي قارس. كانت هذه لحظة ضعفت فيها الحواجز، فتسلى الشيطان بكل خبث، واستغل الفرصة التي منحته إياها.

بلا تردد، رمى رأس الطفل بعيدًا، كأنه قطعة خردة لا قيمة لها، وأمر أخ كون بإحاطة المكان بأسوار من الظلال والأسلام المضيئة، تحكم السيطرة على كل من فيه.

لكن يارا لم تستسلم، رفعت يدها نحو السماء الملبدة بالغيوم، وقالت بصوت مفعم بالتحدي واليقين:

«إن لم تمت الآن، فسوف أقتلك.»

ضحك الشيطان ضحكة مملوءة بالتهكم والسخرية، صوتها يرن في أذني الحضور كعقارب ساعة الموت. وقال بصوت خشن وكأنه ينبعث من أعماق الجحيم:

«أنت كما أنت، ولو عشت مئات السنين، تعالى يا أيتها الأميرة، تعالى.»

ابتسمت يارا بسخرية باردة، وقالت بصلابة:

«أنا لن أتي. هل تظنني خائفة؟ أنا لست خائفة منك، ولا منه، ولا منها.»

ثم، بصمت يملؤه الألم والحنق، التفتت يارا إلى نينا، عينيها تلمعان بدموع لا تكاد تُرى، وقالت بصوت كأنه ينساب من قلبٍ ممزق:

«لو كنت أكثر تقبلاً لحقيقةك، أيتها الهجينة... أنت نصف مورون، لكنك كنت طماعة، وبعت نفسك لهذا الشيطان.»

خفضت يارا يدها ببطء، ووجهت السيف ببرود نحو نينا، وعندما لامس طرف السيف عنق الأخيرة، تسارع نبض الشيطان، واندفع بلهفة نحو يارا كما لو أن حياته تعتمد على ذلك.

لكن، في تلك اللحظة، جمدت يارا الوقت، توقفت الحركة، وانحبس الزمان في فقاعة من السكون، كان العالم بأسره أصبح أسيراً بين يديها.

ظل الأشخاص الذين كانوا يوماً ما نقية، أصبحوا الآن أشخاصاً ملوثين، أراهم كما لو أنهم قيدوا بأغلال مظلمة، وكان المحاولات التي دفعت ثمنها يارا للتغيير لم تفلح.

انهارت يارا باكية، دموعها تساقط كحبات لؤلؤ تتلاشى في الفضاء، وقالت بصوت مليء بالحزن:

«لماذا... لماذا أنا؟ لماذا لا يعود السلام؟ هل هذا مستحيل؟

هل سينسفني القدر كل مرة حتى يعود السلام؟

أنا تعبت... لقد تعبت.»

ثم أغمضت عينيها، وتسليلت إلى أذنها دقات قلبها المتسارعة، كانت موسيقى النهاية والبداية معاً.

فتحت عينيها فجأة، لترى نفسها في مكان فارغ لا حدود له، كأنها معلقة بين الواقع والخيال. أمامها، امرأة تحدق بها بحنان لا مثيل له، وصوت يارا ارتفع في صرخة مؤلمة:

«أمي... أمي، أرجوك، خذيني معك. خذيني يا أمي، لا أريد البقاء هنا، لا أريد، يا أمي... آه!»

كانت دموعها تتناثر كأنها لآلئ مضيئة تذوب في مجرات لا متناهية، ووسط هذا السكون، سمعت دنو روح أبيها، صوته كان منكماً ومؤلماً، لكنه كان يحمل قوة لا تُقهر: «ابنـي... أنت أقوى مما تتـصورـين.

تحملـين كل شيء... استـمرـي في التـقدـمـ، وـحـقـقـي السـلـامـ.
الـعـدـمـ سـيـنـتـشـرـ بـدـونـكـ، يا اـبـنـيـ.»

قبلـتهاـ والـدـتهاـ بـهـدوـءـ، وـبـرـقـةـ لـمـ تـشـهـدـهاـ منـ قـبـلـ، لـكـنـ يـارـاـ رـفـضـتـ، وـقـالـتـ بـمـرـارـةـ: «لا... لا... لا، هذا غير عـادـلـ.

أـنـاـ أـرـيدـ أـنـ أـكـونـ مـعـكـمـ، لـمـاـذـاـ تـرـكـتـمـونـيـ وـحـيـدـةـ؟
لـمـاـذـاـ... لـمـاـذـاـ... لـمـاـذـاـ؟»

صـدـحـتـ صـرـخـتـهاـ فـيـ الـفـضـاءـ الـلـامـحـدـودـ، حـتـىـ كـادـتـ تـحـطـمـ الصـمـتـ وـالـفـرـاغـ الـمـحـيـطـ، فـجـاءـتـ هـالـةـ مـضـيـئـةـ تـتـجـمـعـ حـولـهاـ فـجـأـةـ، كـأـنـهاـ قـمـةـ نـورـيـةـ تـحـيـطـ بـجـسـدـهاـ الـمـزـقـ.

فـتـحـتـ عـيـنـيهـ لـتـرـىـ أـنـ الـأـشـخـاـصـ الـمـتـجـمـدـينـ مـاـزـالـواـ سـاـكـنـينـ بـسـبـبـ قـوـتـهـاـ، نـهـضـتـ بـيـطـاءـ، وـنـظـرـتـ إـلـىـ نـيـنـاـ، وـالـسـيفـ عـلـىـ وـشـكـ أـنـ يـدـخـلـ عـنـقـهـاـ، لـكـنـ بـرـقـةـ غـيرـ مـتـوـقـعـةـ، مـسـحـتـ يـارـاـ بـيـدـهـاـ عـلـىـ خـدـ نـيـنـاـ، وـقـالـتـ: «أـنـتـ بـرـيـئـةـ.

ربما في المرة القادمة، سوف تكون أصدقاء.»

عضت يارا شفتيها بإمتعاض وإنكسار كأنها لا تريد فعل هذا وقالت والأصوات
تتزاحم داخل عقلها الصغير...

هذا مشين أنها القدر... هذا مربك وقاسي ومحزن جداً لماذا..لماذا
ثم صوبت نظرها نحو كون المزيف في مشهد ينفطر منه الحجر الصلب واقتربت منه
وقالت..

سامحني يا كون..أعرف أنني أناانية وأنك حاولت جاهداً مراها و تكرار إنقاذي من هذه
الفوضى...لكني سأعود إلى مكان ينتهي إلى و أنتي إليه...ليس إلى عالم تحكمه الغريزة
قبل الإنسانية...ليس إلى هنا...ربما ستتألم و تصرخ و تقول أنني سأنقذها مثلاً لـ
أنقذ زوجي... و سيقول جواراً أنني فتاته المستقبلية..لقد رأيت في حياتي
الثانية..كنت معتوها و تائها دون وجهة... و الآن ما زلت هكذا و ستظل الشخص
الودود بالنسبة لي
ثم ضحكت يارا و هي تتنهد..

أظن أنني سأمي هذه البداية.. لأعود إليك أيتها الأنـا ..أيمـا الموطن الغابر و النـجمـة
المـرشـدة للـسـلامـ إـغـمـريـنيـ بـالـعـبـيرـ...لـأـعـودـ وـرـدةـ فـيـ بـسـاتـينـكـ..أـرجـوكـ

ثم أعادت يارا الحركة إلى الأجسام الخامدة وعاد كل شخص إلى ما كان يفعله وقبل أن يصل الشيطان إليها...

أطلقت صوتها يشبه نداء أخيرا نحو السماء المظلمة وتبخر كل شيء.. و قالت...
لن أعود إلى المنتصف...أقلني إليها المجهول..و إطردني من هذا المعلوم سأتعلم القناعة
بالمحتوم..أرجوك

و إنتفضت الأرض الجرباء من تحت قدميها و تحولت إلى بحر أزرق صاف و إحتضنها
الموج و سكنت يارا إلى هدوئها و فتحت يديها على مصراuemها

و مرت كل الذكريات أمامها كقطار قديم.. ذكريات عتيقة لم تلبث أن تحولت إلى
بتلات من نرجس... و قالت يارا.. و وجهها يكسوه الطمأنينة

النرجس... أحب النرجس.. كما كنت أحب أن أمتطي الجواد كثيرا و الألعاب الأطفال....

ثم تهاوى جسدها عبر الماء الثقيل و كأنها غارقة في بئر و فتحت عينيها للتجدد نفسها
ممددة على رمال ذهبية و ضوء حارق يزحف إلى عينيها الزرقاويين...

رفعت يارا رأسها كأنها تعلم ما حدث
و قالت

بداية آخرى في بعد آخر... لن أكون الجيدة بعد الآن.... سأرسم بالطباشور آمالى على
كل جدران العالم

و إلتفت إلى مجموعة من الصغار يلعبون بالكرات و مشهد مدينة حديثة

..و قالت..

لن أضطر لإنقاذهم أيها القدر.... فإختار شخصا آخر

ثم إستلقت على الرمال و إستسلمت إلى النوم

حسنا، بعد أن انتقلت يارا، أحسست بالارتباك الشديد وهي تفتقد إلى كل ما كان
مأولاً في عالمها السابق. كانت في عالم آخر، عالم متطور مليء بالأصوات والضجيج
الذي يملأ صدرها الضيق كأنه لا يترك لها مجالاً للتنفس.

ووجدت نفسها تمثي بجسد مختلف، جسد فتاة شابة في الخامسة والعشرين من عمرها، عينان مختلفتان، وصوت جديد غريب، يشبه صوت الماعز، كما لو أن القدر أراد أن يزرع فيها سخرية مؤلمة لكنها مريحة في نفس الوقت.

كانت تائهة وسط هذا الزحام البشري، الناس حولها كالنمل يمضون بسرعة في طرقات المدينة الحديثة، أصوات المركبات، الموسيقى الصاخبة، أصوات النيون الملونة تراقص على الوجوه المتعبة.

في قلب هذا الضياع، عرفت أنها مرتبطة الآن، وأنها في طريقها لمقابلة حبيها. ضحكت يارا من أعماق نفسها، ضحكة طازجة، طفولية، لم تشعر بمثل هذه الظرافة والمشاعر من قبل.

وعندما جلست على الكرسي في الحديقة التي اتفقا على اللقاء فيها، ارتعش قلبه رغم غياب السيطرة على جسدها الذي تصرف دون إذن منها.

برز بجانبها شاب طويل القامة، وسيم، ولكن بملامح ناضجة تشبه رجال الأعمال. كانت نظراته حادة، وله حضور قوي يملأ المكان.

تمالكت يارا أعصابها، وصوتها هادئ لكنه مريب، قالت:

- أنت...

قاطعها الشاب بابتسامة جافة وباردة، وقال:

- لننفصل.

تفاجأت يارا للحظة، ثم ضحكت ببراءة مكشوفة، وكأنها لا تصدق ما تسمعه.

ازداد انزعاج الشاب، وقال:

- أنت غريبة الأطوار.

لم تتردد يارا، فمسحت دموعها التي تسللت بلا إرادة، وأمسكت بخد يه برقه،

قرصتها برفق، ثم طبعت قبلة طفولية على جبينه وقالت:

- أنت ذكي حقاً، لكن إذهب.

أكملت ضحكتها الطائش، ضحكة غريبة، مؤلمة، لكنها مرضية لها، لأنها لأول مرة تعرف طعم مشاعر الحب، شعور جديد كلياً لم تعشه من قبل، فقد تعلمت طوال حياتها الوفاء والإخلاص للوطن والقوم، لكنها لم تعرف قط كيف تحب من تلقاء نفسها.

هكذا، ظلت تائهة في شوارع المدينة الكبيرة، تبحث عن طريق بين أضواء المدينة البراقة وصخما المستمر، ولكنها كانت في ضياع كامل، لا تعرف أين تذهب، ولا كيف تجد نفسها.

كانت أصوات الموسيقى تعلو من بعيد، وموجات البشر تتدفق كأنه تيار لا يمكن مقاومتها. دون قصد، وجدت يارا نفسها تدخل إلى أحد المنتجعات الليلية التي تضيء أضاؤها النيونية الشاهقة، ودخان السجائر يملأ الجو برائحة حادة.

كان المكان يعج بالموسيقى الصاخبة والناس الذين يختلطون في حركات متشابكة، يرقصون ويتحدون بصخب. في تلك اللحظة، شعرت يارا بالغرابة والإثارة والخوف، وكل المشاعر المختلطة التي يمكن أن يعيشها إنسان جديد على عالم الليل والضجيج.

بين الزحام، لاحظت بعض المتحرشين الذين يحاولون التقرب منها بنظرات جريئة وأفعال غير مرغوبة، لكن يارا لم تستسلم للخوف، بل وقفت بشجاعة، نظرت لهم بعيون صارمة كأنها تقول لهم: "لا مكان لكم هنا."

ثم، بخطوات ثابتة لكنها هادئة، دخلت إلى غرفة مغنى معروفة في ذلك المنتجع. كانت الغرفة مظلمة نوعاً ما، لكن الأضواء الخافتة تعطي جوًّا من الغموض والترقب.

المایک کان امامہا، والمغني يتألق بصوته الجذاب، يملأ الغرفة بألحان تخترق القلب،
ويبدو أن يارا تجد في تلك الموسيقى ملادًّا من الفوضى التي تعيشها.

وقفت تستمع، تترك نفسها تغوص في الإحساس، وتدرك أن هذه اللحظة هي بداية
فصل جديد في حياتها، رحلة لم تكتمل بعد، لكن فيها بذور التغيير والبحث عن ذاتها
الحقيقية.

بعد أن ظلت يارا برهة طويلة متسمرة في مكانها، عيناها معلقتان بألحانٍ غريبة
تتسرب من شفتي ذلك المغني، كانت موسيقى غير مألوفة، تحمل في طياتها نغمات
حزينة متناقضة مع حيوية المكان. توقفت الموسيقى فجأة، وتحول الجو من سحر
خافت إلى صمت مشحون بالتوتر، وكأن لحظة واحدة جمدت الزمن.

ارتسم على وجه المغني تعبير غريب، وكأنه شبح خافت يخرج من الظل، ثم مد صوته
بتلعثم وارتباك:

- من أنت؟

أجابت يارا هدوء عميق، صوتها الناعم يحمل ثقة غامضة، كأنها تملك سرًا لا يريد
أن يُكشف:

- ما هذا الصوت الجميل؟ أنت حقًا بارع، لا شك في ذلك.

تملّك المغني شعورًا مفاجئ بالفخر يعتلي صدره، لكنه سرعان ما حاول أن يكبح نفسه وقال ببرود وادعاء:

- موهبتي لا مثيل لها، والجميع يعرف ذلك.

ولكن بين كلمات الكبراء تلك، تسلل إلى يارا سؤال عميق يختلّج في صدرها سؤال عن سبب تواجد مبدعين كثري في مكان يشبه السجن، محاطين بحشود صاحبة، حيث تبدو الأرواح محاصرة وسط جنون العالم.

كانت كلمات يارا صادمة، وصفها الدقيق كأنه مرأة عاكسٌ ما يخفيه المغني عن نفسه، وصعب للحظة، متلبدًا بمشاعر متناقضة، لكنه لم يملك وقتًا للتفكير.

فجأة، اقترب أشخاص من المكان، يضجون بحضورهم، فأراد المغني بسرعة الإمساك بيد يارا ليمنعها من المغادرة، لكنه لم يحسب ردة فعلها.

بحركة رشيقة خفيفة، دفعت يارا يده أرضاً، فوقع الرجل على الأرض بسقطة صادمة، وأصدر ظهره صوت طقطقة مزعج من أثر السقوط.

ارتسمت على وجهه علامات الدهشة والألم معاً، وقال بدهشة واحترام:

- أنت بارعة حقاً!

نظرت يارا إليه بحدة، وعيناها تتلألأ بسخرية لطيفة، وقالت بابتسامة خفيفة:

- أنت رجال هذا العالم أكثر نعومة مما كنتم عليه في عوالمنا السابقة.

لم تستطع مقاومة الإغراء، ولمسّت وجهه برقة، لكنها فوجئت بردة فعله حين أبعد يدها بحدة وتذمر:

- لقد سرقتِ منا رجولتنا، أيتها الغريبة!

ضحكـت يارا، ضـحـكة عـمـيقـة قـادـمة مـن أـعـمـاق رـوـحـها، مـزـيج مـن المـرـارة وـالـاـنـشـاء، ثـم مـدـّـت يـدـها لـمـسـاعـدـته عـلـى النـهـوضـ.

جلس الرجل على الطاولة، وقد بدت عليه علامات الارتباك، يحاول استيعاب شخصية الفتاة الغامضة التي تقف أمامه.

في عمق قلبه، كان هناك شعور غريب، رغبة متتجدة في الاحتفاظ بهذه الفتاة إلى جواره، لمعرفة سر لمعان عينيها، التي كانت كالنجوم في ظلام هذه الليلة.

كانت تلك الصدفة عشوائية، لكنها حملت معها وعداً بلقاءات أخرى، ربما تغير مجرى حياتهما إلى الأبد.

في لحظة مفاجئة، قبلت يارا جبينه بلطف، قائلة:

- أنت تفكّر كثيراً، يا صديقي.

خرجت من الغرفة بخطى واثقة، بينما تبعها رون وهو يرتجف، لا يخفي ارتباكه بعد قبلة خاطفة منها.

وفجأة، ظهر من خلف يارا خيط متوجّج بلون أزرق بارد، ينساب بهدوء بين الظلال، وأضاء وسط العتمة كأنه شعاع من عالم آخر.

صدم هذا المشهد المغنى بشدة، لكنه تمالك نفسه وأخذ يتبعها بخطوات حذرة بين الحشد المتدقق، رغم أن تلك الحفلة كانت ستدر عليه ملايين.

كان هناك شيء في داخل قلبه يخبره بأن يتبعها، شيئاً لا يمكن تفسيره بالكلمات أو المنطق.

تابع خطواتها المتسارعة عبر شوارع المدينة المضيئة، حيث أصوات النيون تعكس ظلالهم المتحركة على الأرصفة الرطبة.

وصلت يارا إلى مكان هادئ نسبياً، لكن الرجل ظل يبعها، لم يكن مجرد رجل عادي، بل كان ينظر إليها بعينين لا تريان جسد الفتاة فقط، بل تستحضران يارا الحقيقية، بكل أسرارها وألمها.

همست يارا بقلق، تتلفت خلفها:

- هذا الرجل... مثير للمتابعة.

كان صمت الليل يحيط بها، والمدينة نائمة حولهم، لكن في داخلها، كان نبض قلتها يتتسارع، يدرك أن هذه اللحظة ليست كباقي اللحظات، وأن شيئاً كبيراً على وشك الحدوث.

وإستغرقت يارا في تأمل النجوم المعلقة في السماء... كانت صغيرة مقارنة بذلك العالم الكبيرة والمتوھش ثم دفعت بكلماتها نحو فمها لتقول: أشتاق إلى جمال البراءة حقا... جمال شائب من الضفينة

فقال المغني بكل سكون: من أنت حقا

قالت يارا و يدها مستمرة في اختراق خصلات شعرها و قالت:

أنا التي سأصبح شريرة

فجأة تراخت أعين المغني بوجهه الذي يشبه حد كبير وجه جوارا الذي تذكرته يارا
على غير العادة....لقد حفر ذلك الشخص ذكراه عميقا في صدى رأسها

و هنا بزغ القمر و كشف عن عيون زرقاء جذابة لذلك الرجل الطويل

فقالت يارا بإندفاع:

كلكم ضخام البنية لكن ضعفاء

فأصدر المغني صوت إصطكاك من أسنانه و قال: من تنعتين بالضعف أيتها الغريبة

ثم إقترب منها و أمسك ذراعها و رفعها إلى فوق...

لكن جمالها كان فتاكا فأسره.. رغم ذلك قاوم

رون لا يقابل العديد من النساء بسبب إنعزاليه عن المجتمع ولأنه سهل الوقوع في شراك النساء ليس لأنه غبي.... لأن جموح عاطفته كان يقوده تلقائيا

كان رون كما وصفته يارا ناعما مثل المياه

تلك المياه التي نقلتها إلى هذا العالم المعقد

ظللت أعين رون منشغلة بقراءة ما وراء هذه الفتاة... لكنه إنتبه إلى الظلام الكثيف و قال بحدة: ألا تخافين من التجوال وحدك في هذا الوقت

قالت يارا و هي تصاحك بمكر... لا أيها الجميل

أزعجه تملق يارا فترك يديها و قال بنبرة طفلية: ..

هل لديك مكان للذهاب إليه

وردت عليه يارا بنفس النبرة التي أزعجه و عيونها لا تفارق وجهه الوسيم:

أنا غريبة هنا ولتقل أني ضائعة عن بيتي....

فتاجئ و قال: كيف لا تعرفين طريق بيتك و تعرفين المجتمعات الليلية و طريق غرفة

الغناء

قالت و الضحكة لا تبارح فمها الرقيق: أحب أن أضيع في الأماكن التي يتواجد فيها
الوسيمون

فإحمر وجهه للحظة ثم فرك مؤخرة شعره و قال: لا تمانعين إن أخذتك إلى فندق
صحيح فحسب ما أرى فأنت مفلسسة مجنونة

تغيرت ملامح يارا فجأة و لكمته على كتفه العريض: أيها الغريب الفظ...كن لبقا و
أنت تحمل هذا الوجه الأبيض

نظر إليها و هو لا يصدق كيف له أن يكلم فتاة غريبة في وسط حديقة مهجورة

إستيقظت يارا على أصوات السيارات المندفعة في الشارع، هدير المحركات المتشابك مع صفير الإطارات فوق الإسفلت الرطب كان يتسلل إلى أذنها كإبر رفيعة، يزيد من ثقل رأسها ويثير في صدرها انزعاجاً خانقاً. لم تكن تلك الأصوات غريبة عليها، لكنها هذه المرة بدت وكأنها مطرقة تضرب على أوتار أعصابها، تمنعها من الغرق في نوم هادئ. حاولت أن تدير جسدها على الجانب الآخر عليها تجد راحة، لكن إرهاق الأمس كان أثقل من أن يُتجاهل، فانزلقت ببطء في غيبوبة النوم، لتسسلم فجأة ل CABOOS داهمها بلا رحمة.

ووجدت نفسها تطفو في فضاء أسود ممتد بلا نهاية، الظلام كان كثيفاً، حياً تقريباً، يلتف حول جسدها كما يلتف ثعبان عملاق على فريسته. الهواء -إن وجد- كان خانقاً، بارداً لدرجة أن عظامها ارتجفت. وسط هذا السواد العميق، بدأت تظهر عيون صخمة،

تحدق بها من بعيد، حدقاتها لامعة بلون دموي، تتسع شيئاً فشيئاً حتى شعرت أن النظارات تنفذ إلى عمق عقلها. أفواه هائلة انفتحت في الظلام، تتساقط منها دماء كثيفة لزجة، ترسم خطوطاً حمراء متقطعة على العدم.

ومن بين هذا السواد، خرجت حبال سميكة، داكنة كالفحى، تتحرك ببطء مقزز كأنها أفاعٍ زاحفة، وانقضت فجأة على جسد يارا. التفت حول ذراعيها وساقيهما وصدرها، وانغرست أطرافها الحادة في جلدتها. الألم كان حارقاً

، كأنه آلاف الشفرات تمزق لحمها من الداخل. شرقت يارا وصرخت، صرخة حادة ارتدت في الفضاء المظلم حتى شعرت أنها تسمع صداحاً يهشم فوقها.

فجأة، ومن العدم نفسه، ظهرت مرأة ضخمة، إطارها من حديد أسود متآكل، سطحها العاكس مغطى بضباب بارد. اقتربت يارا بخوف، لكن ما انعكس أمامها لم يكن هي كما تعرف نفسها...

كان انعكاسها نسخة مشوهة، جسدها مغطى بخدوش غائرة وندوب قديمة، بشرتها باهتة كالجثث، وعيناها غائرتان في محجريها حتى بدت كحفرتين مظلمتين.

تقدمت تلك النسخة ببطء نحوها، خطواتها ثقيلة كوقع المطرقة على الأرض. في يدها، سحبت الحبال الملففة حول جسد يارا وكأنها تنتزعها من ملكيتها،

وكل سحب كان يترك خلفه ألمًا يتغلغل في العظام. تأوهت يارا من شدة الوجع، لكن النسخة لم تُبد أي تعاطف،

بل اقتربت أكثر، حتى شعرت يارا بأنفاسها الباردة على وجهها. قبلتها قبلة جافة، باردة، كأنها وسم من الجليد، ثم قالت بصوت بارد، متزن، لكنه يقطر احتقاراً:

- أنتِ أنانية يا يارا... ورغم أنكِ هربتِ، فسوف تعودين مرة أخرى، مقيدة بسلامـل مصـيرـك...

سوف يعثر عليك الشيطـان... ذاك الذي خلـقتـه أنتِ من غـفلـتكـ، ومن ظـلـنـكـ أـنـكـ حـرـة في هـذـا الـعـالـمـ.

سيأتي ويفتح جراحاً لن تندمل، وسيترك وراءه دمأً شاملاً.
ذلك الشيطان... هو من صنعتك أنت... صنعته من أديم جبنك.
أنتِ جبانة، لأنكِ تركتِ الجميع يتأملون،
وتركتِ قلوبهم معلقة على المحك.
القدر لا مفر منه... وإن كنتِ قد فررتِ إلى هذا العالم الشائب بالسلام، فسوف
تسقطين في واقعك ومصيرك... أيتها المختارة.

تراجعت يارا للخلف، قلماً يخبط بعنف داخل صدرها، لكن كلمات النسخة
التصقت بأفكارها كوشم لا يمحى. وفي لحظة خاطفة، تلاشى كل شيء...

فتحت عينها بفزع، وعيناها تبحثان عن أي أثر للحجال أو الدماء، لكنها وجدت
نفسها في غرفة الفندق. كانت أنفاسها سريعة، و قطرات العرق البارد تلمع على
جبينها.

حدقت في السقف للحظات، ثم تمنت بصوت مبحوح وهي تحدق من النافذة حيث
المدينة تلمع بأضواء الفجر:
- أنتِ لستِ السبب يا يارا...

لم يدم هدوء الصباح طويلاً، إذ قطعته طرقات متتابعة على باب غرفتها. في البداية
تجاهلتها، مغمضة عينيها على أمل أن يرحل الطارق، لكن الطرق استمر بإصرار.

ثم جاء صوت مألوف من خلف الباب، صوت ذلك المغني الذي تبعها البارحة:

- هل ما زلتِ حية؟

أجبت بإنهالك، وهي تجلس على حافة السرير:

- أنا حية...

قال صوته من الخارج بنبرة حازمة:

- هيا، اخرجي من هناك... أريد محادثتك.

رفعت رأسها نحو السقف، تحدق فيه بفراغ، قبل أن ترد ببرود:

- أنا آتية.

فتحت الباب ببطء، فوجدت رون واقفًا، عيناه تحاولان أن تلتقيا بها لكنهما تهربان بخجل نحو الأرض، وأذناه محمتان حين رأها بملابسها الفوضوية وشعرها المبعثر.

بدا عليه شيء من الارتباك الممزوج بالاستغراب، وقال وهو يرفع حاجبه:

- هل حصلتِ على كفايتك من النوم البارحة؟

قالت بجمود، وهي تحاول مسح التعب من ملامحها:

- لا... مَاذَا أتَى بِكَ؟

تردد قليلاً، يبحث عن الكلمات المناسبة، ثم قال متلماً:

- بِسَبَبِ... بِسَبَبِ... أَرِيدُ أَنْ أُرِيكِ شَيْئاً... هَلَا تَأْتِينِ مَعِي؟

لم تكن يارا مهتمة برون، الذي يمسك بيدها بكل حزم وحنان، كأنه وجد فيها ما كان يبحث عنه طوال حياته الممزقة بالوحدة. نظرت إليه بعينين باردتين، تحاول قراءة ما يختبئ خلف تلك النظرة الصامتة، وقالت في نفسها بصوت خافت لكنها صارم: ستذوق طعم الخيانة عن قريب...، فالمشاعر جميلة ولحظاتها ممتعة، لكنها تسلبك ما فقده، وتترك في قلبكندوباً لا يداومها سوى الزمن.

تمعنت يارا بطول رون الشاهق، بكتفيه العريضين وملامحه الصارمة، وشعره الذي يلمع تحت أشعة الشمس الذهبية، وقالت له بصوت حازم:

- اتَرَكْ يَدِيْ، رُون.

نظر إليها كأنه كان ينتظر هذه الكلمات، وكأنها الشارة الوحيدة التي تمنحه الحق في الاقتراب أكثر، مزال يمشي بخطى سريعة على الطريق الترابي الذي يؤدي إلى جبل في آخر المدينة. الشمس كانت تحرق المكان بحرارتها، تلقي بأشعاتها على وجههما، محدثة ظللاً طويلاً على الصخور المتناثرة حولهما، مزيداًً مساعر يارا توهجاً وحزناً في آن واحد. كل مشهد جميل يعيد لها نفس السيرة القديمة، كل لحظة من صمت أو ابتسامة، تعيد ذكريات مؤلمة، ترسم على قلبه خطوط الجرح والحنين في آن واحد.

كانت عيون رون الغريبة عنها، تحمل شيئاً من صمت الروح... شيء يقول له: أنا يتيم الأُم، لم أذق الطمأنينة، ولكني ما زلت أبحث عن من يهتم بي. كان إنطوائياً، ربما هذا ما جعله يتمسك بيara بهذه الطريقة، كأنها خلاصه الوحيد من العزلة التي اعتادها منذ ولادته.

قالت بسخرية، بصوت يمزج الألم بالاستفهام:

- حتى هنا، الجميع يلجأ إلى طالبين مني الكمال... لا يفهمون أنني مثلهم أشعر بكل مشاعرهم الثقيلة. أنظر إلى الأفق وأفك... هل سيسقط الأفق؟ وهل سأتمكن من إنقاذه؟ الجميع يريدون الشفقة، ولا أحد يهتم بمساعدتي. ربما كان هروبي حلاً جيداً...

وصل رون بعد أن تقطعت أنفاسه من المسافة التي قطعها، ووقف أمامها يطلب منها الجلوس على صخرة كبيرة بجانب شجرة وارفة، أوراقها تتمايل مع نسيم خفيف، تحجب أشعة الشمس أحياناً، وتلقي بظلالها على وجههما. الهواء كان معبداً برائحة التراب الساخن والأعشاب البرية المنتشرة حول الجبل، بينما كان صوت الطيور يضيف نغمة هادئة وسط صخب المشاعر.

يارا لم تكترث لما سيحصل، شعرت كما لو أن الأمر أشبه بقضاء أمسيّة في حفرة مظلمة، الكآبة كانت تحيط بها من كل جانب، تمتصها بلا رحمة. لكنها لم تكن تعرف أن رون أخرج من جيده كاميلا صغيرة، عينيها اتسعت من الدهشة لهذا الجهاز الصغير، فطلّب منها أن تجلس بجانبه، فسمحت له. وما إن جلس حتى التقى صورة لهما،

ضحك رون، وارتسمت الفرحة على وجهه، رغم التعب والعرق الذي يغطي جبينه:

- أنا آسف... لكن أردت بشدة أن تجمعني صورة معك. دائمًا يطلبون مني المعجبون أن أشاركهم صورة، لكن أنت... أنت مختلفة.

نظرت يارا إلى عينيه، شعرت بصدق كلماته، برائحة روحه التي كانت تنساب منها رائحة الأرجح، أخبرتها بصدق مشاعره، رغم غرابتها: هو يحبها، رغم كل شيء، رغم أنها غريبة. وهي، رغم غرابتها عن العالم، شعرت بأنها تشبهه في تلقي الألم، في المشاعر، في الأسئلة التي لا تنتهي. لقد ولدا من أمهات مختلفات، مروا بنفس التجارب القاسية...

لكن لماذا تقول عنه غريب؟ لماذا لا تكون هي الغريبة، التي أفسدت كل شيء؟ العالم يحبها لأنها مميزة، لكنه لا يحب يارا.

شعر رون بحزنه المحفور على وجهها، قال برقة، وهو يربت على شعرها المجعد:

- لست مولعاً بتتبع النساء العشوائيات، لكن أحب أن أحظى بتجارب عديدة... رغم أن الجميع يسيئون فهمي.

ابتسمت له يارا، ابتسامة ودية كنسيم صباح هادئ، شعرت أنها بصيص من الأمل زرع في قلب هذا الرجل، الذي اعتادت روحه أن تتحمل الكثير. قبل رون جهة يارا، وكاد أن ينصرف، لكنها أمسكت يده فجأة، بنبرة ضعيفة لكنها حازمة:

- أريد أيضاً أن أعيش تجربة مثلك... أرجوك... أرشدني.

لمعت عينا رون فجأة، واحمر وجهه بخجل، ثم قال:

- غداً صباحاً... سألاقاك في الفندق، اتفقنا.

كان مشهد هبوط رون مع يارا أشبه بنجمتين ضالتين تبحثان عن مستقر، تمسكان بأيديهما بحنان، كأنهما وجا في بعضهما الحرية التي فقدوها، والأمان الذي طالما حلموا به.

الأشجار، الجبال، ونسيم المساء، وكل شيء من حولهما بدا وكأنه يشهد هذه اللحظة، وكان الطبيعة نفسها أيدت شعورهما، وسرّهما المشتركة في الألم والفرح، في الوحدة والحنان.



عند عودة يارا إلى الفندق مع رون، كانت خطواتهما تتناغم على بلاط المدخل البارد، لكن قلب يارا لم يكن على الإطلاق في تناجم مع أحد. نظرت إليه وهي تهم للصعود على الدرج الحلزوني المكسو بسجاد أحمر داكن، تخلله إضاءات خافتة من مصابيح جانبية قديمة الطراز. رفعت عينيها إليه بنظرة مشوّبة بالابتعاد

وقالت، بصوت منخفض لكنه حاد كحد السكين:

- لا تخدع بالزهور، فأغلبها يخفي سموّمه خلف الوانه.

كانت كلماتها موجّهة في حقيقتها إلى نفسها، كأنّها صفعة خفية تذكّر قلّها بسمومه المخفيّة، لكن رون لم يفهم. اكتفى بتركها تصعد ببطء إلى غرفتها، مغادراً المكان بخطوات ثابتة، وهو لا يدرك أن ذلك المكان أصبح الآن ملاذاً لأفكار يارا السوداء وأسرارها العميقّة.

غرفتها كانت هادئة على نحوٍ غير مريح، الستائر نصف مغلقة، وأشعة الشمس المتسللة من الشقوق ترسم خطوطاً ذهبية على الجدار، تراقص ذرات الغبار في الهواء. جلست على حافة السرير، ووضعت كفيها على وجهاها، ولأول مرة، بدأت تفك... بجدية في مصيرها...

في هويتها المسمومة التي لطالما أخفتها خلف قناع الكمال المتصوّل، وفي نفسها التي تكسوها الهالة المبهرة بينما ينبع منها الفراغ من الداخل.

أغمضت عينها على وقع تلك الأفكار، وشعرت بالظلم يثقل على جفونها، حتى
استيقظت فجأة لتجد رون واقفًا أمامها

أنه هنا وقالت، بصوت مبحوح ومعالم النوم لا تزال بادية عليها: ، ينظر إليها بهدوء غريب، وهي تفرك عينيها بدهشة. ثناء بت للحظة، ثم استوعبت

- کف دخلت؟

ابتسامة ابتسامة صغيرة وأجاب بهدوء:

- لقد تركت الباب مفتوح.

كان وجهه المنشرح يثير فيها نسوة غريبة، نوع من الدفء الممزوج بالدهشة، وكان ابتسامته الطفولية قادرة على إذابة الجليد المتراكم على قلبه. اقتربت منه بلاوعي، مدت يدها، وشدت شعره فجأة بقوة وهي تهمس بلهفة ساخرة:

- أنت غريب أطوار حقا.

ارتبك رون لهذا التصرف المفاجئ، وانفجر وجهه خجلاً، كأنه طفل ضبط وهو يسرق قطعة حلوي. ضحكت يارا، ضحكة قصيرة لكنها خفت ثقل الجو، ثم وقفت وقالت وهي تتأمله:

- أنت خجول... مثل قطة مؤدبة.

مد رون يده يرتب خصلات شعره السوداء وقال وهو يشيح بنظره قليلاً:

- ممم... سوف أنتظرك في الخارج. تركت بعض الملابس لترتديها.

فتحت يارا الهدية بعفوية، وألقت نظرة على الملابس الجديدة، وقالت بابتسامة مقتضبة:

- شكرًا...

خرجت يارا من الغرفة بعد قليل، بخطوات رشيقه وكأنها ملكة تهبط على أرض موكيها.

رون كان واقفًا ينتظرها في الممر، وحين رأها، انعكس الضوء على شعرها المتموج، فتوهجت ملامحها، وأحمرت أذناه دون أن يشعر،

ليقول بصوت خافت لكنه واثق:

- ما أجملك.

لم يكن يبالغ، رغم أن يارا كانت في جسد غريب عنها، إلا أن جمالها ظل ناصعاً، كأنه لا يتأثر بالزمان ولا المكان.

تقدمت نحوه، أمسكت بيديه، وبدأت ترکض به في الممرات وعلى أدراج الفندق، وكأنها طفلة هاربة من قيود العالم.

حاول أن يهدئ من سرعتها، وهو يلهمث من شدة الجري، لكنها تجاهلتة تماماً، وظلت تجره في الشوارع المرصوفة بالحجارة القديمة، ضحكتها تتطاير مع الهواء، وقالت وهي ترفع وجهها للشمس:

- إن الشمس منعشة...

ثم فجأة توقفت، وكأن عينيها وقعتا على كنزة، لترى مجموعة من الدراجات المصفوفة أمام متجر قديم.

- ما هذا؟

قال رون وهو يلهمث، واصعاً يديه على ركبتيه من شدة التعب:
- إنها دراجة هوائية... كيف لا تعرفنها؟

اقربت يارا من إحدى الدراجات، وملامح الدهشة على وجهها، ثم فجأة أحاطتها نور خلاب أزرق اللون،

لامع كالبلور في ضوء النهار. تحولت الدراجة أمام عيني رون المذهول إلى عربة مزخرفة التفاصيل،

عجلاتها تتلألأً وكأنها صنعت من الفضة، والمقاعد مبطنة بالمخمل.

فتح رون فمه من الصدمة، لكنه لم يجد الكلمات، بينما كانت يارا تقول بثقة:

- إن القوة تنفع لإسعاد النفس.

لم تمنحه فرصة لطرح الأسئلة، صعدت إلى العربية ودعته بلمحة من عينيه، فجلس بجانبها. كان داخل العربية جميلاً، جدرانها الداخلية مرسومة بألوان سماوية ونقوش تشبه زهور الغابة،

أما رون، بخصلات شعره السوداء المبللة بالعرق، وعيونه الزرقاء التي تعكس السماء، فكان مأخوذاً بيارا وهي تضحك بانشراح،

حتى لم يلحظ أن العربية بدأت تبتعد عن الأرض، ترتفع ببطء في الهواء.

جذبته يارا برفق، وأشارت إلى الخارج:

- انظر...

التفت، ليجد نفسه أمام مشهد أسطوري؛ البيوت الصغيرة أسفالهم كأنها لعب أطفال، الأشجار تمتد مثل بحور خضراء، والأنهار تتلألأ كأشرطة فضية تحت ضوء الشمس.

- بئسًا... ما هذا؟!

ضحكـت يـارـا، وـقـالـت وـهـي تـتـنـفـس بـعـمـقـ:

- إـنـه مشـهـد طـبـيـعـي... وـمـنـاظـر عـجـيـبـةـ. المـكـان جـمـيـلـ... لـا يـشـبـه الصـحـرـاء المـسـكـوـنـةـ
بـالـوـحـوـشـ الـفـظـيـعـةـ.

ثم مـدـّـت يـدـيـهـا، قـرـصـت خـدـيـهـا بـخـفـةـ، قـبـلـت وـجـهـ رـوـنـ بـسـرـعـةـ، وـصـرـخـت بـصـوـتـ يـمـلـأـهـ
الـحـمـاسـ:

- أـرـيد الـبـقـاءـ هـنـا إـلـى الـأـبـدـ!

لـكـنـ رـوـنـ، وـسـطـ هـذـهـ الـبـهـجـةـ، لـحـ وـمـيـضـاـ خـافـتـاـ مـرـ بـيـنـهـمـاـ، ثـمـ اـخـتـفـيـ كـأـنـهـ لـمـ يـكـنـ.
أـطـلـقـ فـيـ نـفـسـهـ دـوـنـ وـعـيـ: يـاـ لـهـاـ مـنـ فـتـاةـ...

كـانـ مـعـتـادـاـ عـلـىـ التـجـوالـ فـيـ الصـبـاحـ الـبـاـكـرـ وـحـيـدـاـ، بـيـنـ الـمـحـلـاتـ وـالـأـرـوـقـةـ، لـكـنـ هـذـاـ
الـنـوـعـ مـنـ التـجـوالـ الـذـيـ يـشـبـهـ الـحـلـمـ، كـانـ يـسـحـرـ عـقـلـهـ وـيـقـلـبـ مـواـزـيـنـ قـلـبـهـ.

اندفعت العربية الطائرة فوق الأشجار الكثيفة، حتى هبطت فجأة على مرج أخضر واسع، الهبوط كان مروعًا، حتى أن التراب تناشر على ثيابهما. لكن رون لم يهتم، بل مدد يد يعانق يارا برفق،

وقال بصوت مبحوح:

- أنت ربيع نائم، وقد استيقظ لتو... إبقي هكذا، فالناس هنا مملون.

ابتعدت يارا بسرعة، وكأنها هاربة من وقع كلماته، وظللت ترتب شعرها وهي واقفة، بينما هو ما زال ممدداً على العشب، يحدق في السماء ويقول بهدوء:

- يا له من حلم...

فجأة رفعت يارا تنورتها قليلاً، ربطت شعرها إلى أعلى، ثم قفزت من المرج بخفة، متوجهة إلى بحيرة قريبة كانت قد لمحتها. المياه كانت تعكس السماء كمرآة، والأشجار تحيط بها كحارس صامت.

اندفعت بجنون، حتى انتبه رون، فلحق بها. كانت سترته تتطاير مع هبات النسيم، ويara لا تهتم إلا بالبحيرة التي قفزت نحوها

، تاركة قطرات الماء تتناثر حولها كالماس، وهي تقول بابتسامة عريضة:

رائحة الماء منعشة...

ألقت يارا بجسدها المشوّق على المياه، كأنّها تطلق العنان لكلّ ما تراكم في روحها من ضيق، فتناثرت قطرات الماء في كلّ مكان محدثة صوتاً شجياً، أشبه بضحكه الطبيعية وهي تتلقّف جسدها بين أحضانها الباردة

كان ذلك الصوت يتردد في الأفق، يتداخل مع خرير الماء ورائحة الأعشاب المبتلة، حتى بدا وكأنه لحن خاص لا يسمعه إلا قلب يارا.

توقف رون، وقد جمده المشهد، لينظر إليها عن كثب. كان شيء ما في طريقة تحركها يجذبه، كأنها كائن أسطوري خرج للتو من أسطورة قديمة. مشهد شعرها المتموج، الذي تراقص فوق سطح المياه كأمواج ذهبية مشوهة بلمعة داكنة، وبشرتها الحنطية

التي انعكست عليها أشعة الشمس فزادتها دفأً، وعيناها الواسعتان اللتان كانتا
تلمعان بصفاء غريب

... كل ذلك أوقعه في سحرها، وأسره بلا مقاومة. شعر أن كل ما حوله اختفى، ولم
يبقَ في هذا العالم سوى تلك اللحظة.

يارا، التي لم تمر بهذه المشاعر المرهفة من قبل، شعرت وكأن قلبه يتسع لأول مرة
ليستوعب كل هذا الجمال والهدوء في آن واحد.

غمرتها البهجة حتى أغرفت كل ظل للهمّ في داخلها، وانسابت بخفة في المياه الصافية.
كان جسدها يرقص داخل الماء بخطوط ناعمة وانسيابية

، كأنها تعيد رسم علاقتها بالحياة، ليست علاقة حرب وبقاء فقط، بل علاقة انسجام
ومصالحة.

ثم رفعت رأسها قليلاً لترى رون وهو يقفز في المياه، وجسده عاري، فتسدل إلى داخلها
إحساس غريب... مزيج من الدهشة والارتباك، وكأنها تُختبر بمشهد لا تعرف كيف
تصنفه. لكن قبل أن تترك الفكرة تتمدد في ذهنها، باغتها صورة من أعماق ذاكرتها...
صورة جوارا.

لوهله، لم تكن في الماء، بل كانت عالقة بين زمينين. ملامح جوارا طفت أمام عينيهما فجأة، وامتدت الذكريات كأنها شريط قديم يمر بعنف أمام ناظريها. عصر قلمها زخم من الصور والمشاعر؛

وجوه أحبتها، أماكن فقدتها، لحظات لم تنج منها روحها بالكامل. لكن يارا، بجهد أشبه بالقتال، لوحت بذلك الضباب المزعج عن رأسها

، وكأنها تمسح بيدها عن مرآة ملطخة، وقالت لنفسها بهمس عميق: أنتِ حرة يا يارا، كما لم تكوني يوماً...

سبح نحوها رون محاولاً إمساكها، لكن المياه جعلت حركته بطيئة وثقيلة، فلم يستطع لمسها قبل أن ترفع رأسها إلى الشمس الذهبية.

انهارت بمشهد الطبيعة الفاتن؛ الأشجار الزاهية التي امتدت على ضفاف البحيرة كحراس قدامى، المرج الأخضر الذي تلأأ بأزهار صغيرة كأنها نجوم أرضية

. صرخت يارا بسعادة لم يسبق لقلمها أن عاشهما، كأنها ولدت من جديد.

رون، الذي لم يطق هذا الجمال المشحون بالعاطفة، شعر بحرارة تصاعد في وجهه، واحمررت وجنتاه بينما يدفع شعره المبلل إلى الأسفل. كانت كلمات يارا تتسلل إلى

أعماقه، حين قالت بصوت يملؤه الصفاء والرجاء: إن هذا المكان جميل... ليتني لا
أعود، وأبقى هنا إلى الأبد

اقرب منها رون بخطوات هادئة، وكأنه يخشى أن يوقظ حلمًا، ووضع يده على
خصرها، لكنها ببلاهة طفولية قبلت جبينه كما تفعل دائمًا، وكأنها تثبت حدود
العلاقة التي يراها هو تتسع.

عندما، طبع على خدها قبلة طويلة واحتضنها، بينما في عينيه لمعان خفي لم تهتم يارا
بقراءاته.

لكن قبل أن تترك نفسها تماماً لهذه اللحظة، أحسست بصوت مألوف في باطن المياه...
كان الصوت أقرب إلى نداء مكتوم قادم من الأعماق. التفتت بعينيها نحو الأسفل،
لتشاهد خيالاً تعرفه،

وكان هناك مرأة تحت الماء تعكس شخصاً يريد تمزيق صفحة الماء والخروج منها.
فجأة، ارتجت البحيرة للحظة، وصعدت فقاعات إلى السطح، وكان أحداً كان يتحرك
في الأسفل بعنف.

عمقت يارا نظرها، لتجد شاباً جميلاً، شعره أسود فاحم، وعييناه زرقاء وان تلمعان في
الظلام المائي مثل شعتين جليديتين.

شُقت، وهمست وهي تحاول الاحتفاظ بما تبقى من أنفاسها تحت الماء: جوارا...

خرج رون من البحيرة مذعوراً، وظل ينادي على يارا بعد أن رأها تهبط نحو القاع. كانت المياه تجمد رويداً رويداً، لأن بروادة خفية تزحف إليها من روح مجهولة. لم يستطع رون المكوث أكثر، فغاص خلفها قبل أن تتصلب البحيرة بالكامل. لكن قبل أن يصل إليها،

صعدت يارا إلى السطح، ومعها جوارا، الذي كان يحملها بين ذراعيه بعدما فقدت الوعي.

عندما التقت عيناً يارا بعيني جوارا، اضطرب قلبه، وكأن نبضاته انفجرت في كل أنحاء جسدها. وفي لحظة، خرج من جسدها شبح يشبه جسدها الحقيقي، شفاف لكنه مهيب. تجمد جوارا من الصدمة،

ثم أسرع نحوها حين رأها توشك على الغرق مجدداً، وأمسك بها، رغم أن جسدها كان يبعث طاقة أحرقت ذراعه، لكنه تحمل الألم بلا أنين، ومددها على العشب.

رون، الذي كان يقف مصعوقاً، لم يفهم ما الذي يحدث أمامه. عيناه تتبعان جوارا وهو يقبل يارا ويسع على وجهها، الذي بدأ نصفه يتغير ليكشف عن وجهها الحقيقي، وكأنها بدأت تنسليخ من وعاء مزيف لطالما كانت حبيسة فيه.

هزها جوارا بعنف وهو يقول: يارا... أرجوك، استيقظي... استيقظي.

وفجأة، دوى صوت تصدع من الأعماق، لكن من أصابع يارا تسرب جليد أزرق باهت، تسلل إلى البحيرة الهائجة التي كانت تتبع من قبل شقاً كبيراً. وصل ذلك الجليد إلى عمق البحيرة، وجمدّها بالكامل، لقد جمدّت يارا البحيرة وهي فاقدة الوعي.

اضطر جوارا إلى حملها والهرب إلى أبعد مكان، لأن الأرض نفسها بدأت تتراجح تحتم، وتنصاعد طبقات الجليد من يارا، لأن روحها تحاول إيقاف كارثة لكنها في نفس الوقت تخلق أخرى.

أسرع جوارا بكل ما يملكه من قوة، كل عضلة في جسده مشدودة كوتر مشدود، عينيه متسعتين من الرعب والحدر، لأنه ما كان خلفه سوى مشهد مررّ لم يشهد له مثيل: يارا، تلك الفتاة التي لطالما حاولت السيطرة على قوتها، مزالـت تصارع ذلك

التصادم الذي حدث بينها وبين جوارا، تصارعه جسدياً ونفسياً في آن واحد، وكأن كل ذرة في جسدها ووعدها أصبحت موصولة بعالم آخر، عالم يختلف تماماً عن الواقع، عالم القوة المطلقة والخطر المدمر.

قوتها، التي طالما كانت محدودة، تدفقت بحرية مرعبة من خلال أناملها، تصيب البحيرة المتجمدة المتواجدة أمامها، وتجعل المياه تتتحول إلى بحر من طاقة متألئة، تتطاير منها شظايا الجليد في الهواء، تتلاأً كأشعة الشمس المقطعة إلى ملايين القطع الحادة، كل واحدة منها كأنها سيف صامت يقطع كل ما يقف في طريقه. رون كان يركض بجانبها، قلبه يكاد ينفجر من الخوف، عيونه تتسع لرؤيه وجه يارا المنسلخ بين واقعين، جسدها الأبيض الناعم كالحليب، طاقتها المرعبة التي تدمر كل ما حول البحيرة، وكأن الطبيعة نفسها فقدت صوابها فجأة.

الأرض صارت جليدية، الأشجار المتناثرة حول البحيرة بدأت تتلون بلون فضي متألئ، والهواء محمل بجزيئات متألئة من الجليد، تتحرك وكأنها كائنات حية صغيرة، تترافق مع الريح التي حملتها قوة يارا. فجأة، خرجت من المياه يد شفافة ضخمة، تشبه يد الأشباح، تمدت دون أن تتأثر بالجليد، لتلمس السماء المطلخة بلون الدم القاتم، اللون الذي يذكر جوارا بموت ودمار الصحراء البعيدة.

يارا فتحت عينيها، لكن ليس استيقاظاً حقيقياً، بل كانت تحدق بلاوعي، عينيها تشعان بضوء خافت غير متماسك، تحدقان في اليد العظيمة، في القوة التي لا تعرف حدودها. الجليد المنتشر في البحيرة بدأ يتجمع تدريجياً في نقطة واحدة، يتحول إلى

شكل امرأة هائلة، ضخمة، تضع اليد في غياب الصدع، ثم تشق بعاصها السماء لتصبح كلها منيرة، شعاعها يخترق الظلام، يسطع فوق كل جبل، يعكس ضوءاً يتغلغل في كل حجر وشجرة، ويترك خلفه وهجاً يثير الرعب في قلوب كل من يراه.

جواراً ابتعد عن سريان قوة يارا، لكنه وضع يده على عينيهما بحذر، يعرف أن الألم النفسي والجسدي سيكون شديداً، ثم أخرج خنجراً، أمسكه بفمه بإحكام شديد، حتى ثار الدم من شفته ونزل على شفاه يارا، كأنه جسر بين قوتها وبين العالمين المتصارعين. فجأة، ارتفع جسدها، وتحول المشهد إلى فضاء رمادي مشوه، حيث تفاعل دم جواراً، الممزوج بقوة العالم الآخر، مع جسد يارا المرتبط بهذا العالم. كل تناقض بين العالمين بدأ يتجلّى، أي محاولة لدمج هذه التناقضات تهدّد بوقوع كارثة لا تحمد عقباها.

لكن، فجأة، هدأت يارا، عادت إلى هدوئها الداخلي، رغم أنها مازالت غير واعية تماماً، مدركة أن الأرض المنيرة التي تركت بصمتها عليها قد تحولت إلى كارثة، برق مهيب امتد من البحيرة الصامتة إلى أعلى الجبل، كأنه صاعقة متجسدة، تضيء كل شيء حولها، ويهز الجو بقوة مخيفة، كأن الطبيعة نفسها تصرخ من الرعب.

استيقظت يارا، تتأمل جواراً، غير مصدقة أنه واقف أمامها، قوته وهدوئه كانا جسور الأمان الوحيد بين الفوضى والطاقة الغامرة التي حولها. الخوف احتفى من وجهه ببطء، لكن رون، الذي عانى عناء التصديق، جلس يضغط على جرحه في قدمه؛ إحدى السهام الجليدية اخترقت قدمه، تتسرب قطرات من الدم على الثلج،

لكن ذلك لم يكن غريباً بقدر وجه يارا المشوه، الممزق بين جمال غريب وسحر خفي،
جمال يأسر العقل ويربك الحواس، كأنها كائن من عالم آخر يمزج بين الرقة
والوحشية في آن واحد.

نطقت يارا ببعض حروف مهمتها، صوتها ضعيف لكنه محمّل بثقل ما حدث، وقالت:

< هل انتهى؟

رد جوارا بصوت هادئ، لكنه مليء بالمسؤولية والثبات:

< نعم يا يارا، لقد انتهى... أنا بجانبك فقط.

ثم، ببطء، اقترب ميض خافت يشبه نجمة عائمة، ضوءها يتراقص حول يارا، ينير
ملامح وجهها المتعبة، يترك أثراً من الدفء وسط كل الفوضى المحيطة. همسَت
النجمة بغموض:

< سوف تعودين...

لكن سرعان ما انقلب هذا الوميض، وتحول إلى وجه قبيح مشوّه، يحدّق بها بعينين ملتهبتين، صوته حاد كالسكين:

< ماذا تشعرين الآن، عندما أفسدتِ النظام بمشاعرك البالية؟ أنت حقًا شريرة.

الهواء حول يارا اهتز، كل شعاعها تلاشى في موجة من الطاقة الغريبة، تاركًا الجو مليئًا بالتوتر، وكأن العالم نفسه ينتظر رد فعلها، في مواجهة ما بين القوة، والوعي، والخطر الكامن الذي يهدد كلاً من العالمين.

فتحت يارا عينيها بصعوبة بالغة، وكان جفونها كانت أثقل من الجبال، فوجدت نفسها مستلقية على سريرها في الفندق، والهواء من حولها دافئ لكن مشحون بطاقة غريبة، ووجه يطل عليها من مسافة قريبة، يراقبها بخوف واضح يكاد يتسلط من ملامحه.

تلك العيون الزرقاء، التي تذكرها بصفاء السماء قبل العاصفة، كانت الآن تحمل توبراً غريباً، وكأن لونها نفسه قد خفت من هول ما رأى. وجه الشاب بدا مألوفاً، لكنه لم يعد ذلك الوجه المطمئن، بل صار قاسي الملamus، مشدوداً، كأن أحداث الليلة الماضية قد حفرت فيه خطوطاً من القلق والخوف، وشفاهه الرقيقة كانت تلمع برذاذ رطب، كأنها تقطر مياها باردة في ليلة شتاء.

حاولت يارا أن ترفع رأسها، لكن رأسها أثقلها صداع شديد، وكأن أصوات الأمس كلها كانت ما تزال تصرخ في جمجمتها. امتد الألم إلى جسدها، فأحسست بوهن يعتصر ذراعها اليمنى، خاصة أصابعها التي شعرت وكأنها محاطة بأغلال خفية.

خفضت بصرها نحو ذراعها، فوجدها متورمة، والجلد مشدود عليها بشكل مؤلم، ومن بين مسامها وطبقاتها برزت خطوط غريبة، أشبه بعروق متعرجة، لونها أسود قاتم، وكأنها جذور نبات مسموم تغلغلت تحت الجلد.

نظرت يارا حولها بعينين متعبة، تبحث عن معنى لما حولها، فرأت رون واقفاً كتمثال لا يتحرك، عيناه مفتوحتان على اتساعهما، وكأنه لم يفق بعد من صدمة ما رأى. أما جوارا، فكان أمامها، ساكناً، لكنه في الوقت ذاته يفيض بشيء من القلق العميق، وكأنه يحمل على كتفيه ثقل ما حدث.

لم تتمالك يارا نفسها، فاندفعت نحوه، تحيطه بذراعها بحضن متشبث، وهي تبكي بصوت مكتوم، دموعها تساقط قطرات حارة على فراشها، تختلط بحرارة اللحظة.

جوارا، الذي بدا متفاجئاً في البداية، ردّ عليها بعناق أقوى، كأنه يحاول أن يعيد إليها الأمان الذي انزع منها، يواسها بصمت، وصدره يعلو ويهبط بأنفاس ثقيلة.

قالت يارا بصوت مبحوح وهي ترفع رأسها قليلاً لتأمل وجهه:

ماذا حصل؟ كيف وصلت إلى هنا؟ ولماذا... لماذا حدث هذا كله؟

شدّ جوارا قبضته على طرف السرير، وكأن ذكرى ما رأه تخترق جلده، وقال: لا أعرف... حتى أنا... كل ما أذكره أني كنت أنا وأبي نهرب من قبضة الوحش الجامحة، تلك التي استنزفت كل قوانا بعد المواجهة. كنا نركض بين أنفاس الرمال والرياح، وفجأة شعرت أني تجمدت في مكانني. نظرت إلى أسفل، فوجدت قدمي عالقة في شيء أسود، لامع، يشبه مرأة سوداء تمتص الضوء.

توقف لحظة، وابتلع ريقه بصعوبة، ثم تابع:

لكن ما أربعني أني رأيتكم هناك... وجهكم كان مشوّهاً، لم أتعرف عليه أولاً، عيناك كانتا غريبتين، وكأنهما تنظران من عالم آخر. سحبتي نحو المياه، بينما كنت أصرخ داخلياً وأبحث عن أبي، الذي... الذي اختفى فجأة، وكأنه ابتلعه الهواء. ثم الأرض... الأرض انفجرت من حولنا، ليس انفجاراً عادياً، بل كانت كأنها تنسق لتلد شيئاً شريراً. الصحراء القاحلة تحولت إلى ضباب، وكأن السماء والأرض تأمرتا علينا... والبقية... أنت تعرفينها.

قالت يارا بصوت منخفض:

لماذا؟ لماذا كل هذا؟

لکنها فجأة، وهي تلتفت قليلاً، رأت انعكاس وجهها في المرأة المقابلة للسرير... فتوقفت الكلام في حلتها.

الوجه الذي رأته لم يكن وجهها الذي عرفته... عاد لون بشرتها إلى بياضه المشرق، وعيناها كانتا زرقاوين صافيتين، لكن شعرها... شعرها كان باهتاً، أبيض كالثلج.

شهقت يارا بصدمة، وكتمت صرخة، لكن صوتها خرج مخنوقاً: وجهي... شعري... ماذا حدث لي؟

نظر إليها جوارا مطولاً، ثم قال بنبرة حذرة: ربما... ربما إنسلاخت روحك عنك في البحيرة. وربما تلك الروح، التي رأيتها، هي التي أعادتك إلى طبيعتك، أو بالأحرى إلى ما تظنين أنه طبيعتك. هذه فرضية فقط... لكن ما أنا متأكد منه أن شعرك، الذي كان أحمر قانياً، لم يعد كما كان، لأن القوة التي أطلقها هناك لم تكن طبيعية.

أهوت يارا برأسها نحو السرير، كأن ثقل العالم انسكب على كتفها، وقالت بصوت يائس:

لم أعد أفهم شيئاً.

و قبل أن يكمل أي منها الحديث، بدأت الأرض تهتز من جديد، لكن هذه المرة كان الاهتزاز أعمق، وكأن قلب الأرض نفسه ينبعش بعنف. من السماء، انطلق صوت حاد،

يخترق العظام، جعل الهواء يهتز من حولهم. حاولت يارا أن تهض، لكن جسدها كان منهكاً إلى حد لا يصدق.

اقرب رون من النافذة بخطوات متعددة، وعيناه تتسعان أكثر كلما نظر إلى الخارج، ثم شحب وجهه كلياً، وقال بصوت مرتجف:
الأرض... الأرض تغلي... كأننا فوق فوهة بركان.

لم يصدق جوارا ما سمعه، لكنه اقترب من النافذة، وعندما رأى المشهد، اتسعت عيناه بذهول. الأرض حقاً كانت تغلي، لكن ليس بالحمم الحمراء، بل بمادة سوداء لزجة، تختلط فيها ديدان ملتوية، تتحرك وكأنها تنسج لعنة تحت أقدامهم.

وفجأة، دوى صوت رهيب من السماء، صرخة عميقة، ثقيلة، نادت باسم يارا:
!!!!!!ارا!!

ارتجم قلها، شعرت به ينقبض وكأن يداً جلدية قبضت عليه. لكن قبل أن تدرك، كان جوارا قد حملها بين ذراعيه، وركض بسرعة، ينزل الدرج الذي بدأ لونه يتغير، يصطبغ بلون النيران، فيما كانت مادة مجهرولة تجتاح المكان، تذيب الأخضر واليابس.

يارا، التي لم تحتمل المشهد، أغمضت عينها بقوة، وفي الظلام رأت ما هو أبشع: أطفال يضحكون بهستيريا مجنونة، أشباح تحمل رؤوسهم وهي تمثي نحو كهف

مظلوم، قلوبهم تحجرت، ورجل ما، لا ملامح له، يلتهمها بلا رحمة. ثم رأت السماء وهي تمطر شيئاً أسود يتضاعد ويتکاشف...

بذلت يارا ما تبقى لديها من قوة، واستجمعت كل ذرة طاقة في جسدها، ثم قالت بصرامة:

لن أموت اليوم.

طلبت من جوارا أن ينزلها، فتردد، لكنه أنزلها برفق. وقفـت، بالكاد متماسـكة، ورفـعت يـدهـا السـليـمةـ، فـانـطـلـقـتـ مـنـهاـ طـاقـةـ هـائـلـةـ، أـكـثـرـ وأـشـدـ منـ تـلـكـ الـتـيـ أـطـلـقـتـهاـ الـبـارـحةـ. اـهـتـزـ جـسـدـهاـ معـ اـنـدـفـاعـهاـ، وـأـحـاطـتـ بـهـذـهـ الطـاقـةـ الـفـنـدقـ كـلـهـ، وـهـيـ تـصـرـخـ بـصـوـتـ اـخـتـرـقـ كـلـ شـيـءـ:

لن أعود أـيـهـاـ الـقـدـرـ... لـيـسـ الـآنـ! إـنـ كـنـتـ تـرـيـدـ هـزـيمـيـ هـنـاـ، فـهـذـاـ جـبـنـ!

تحول المشهد البشع من حولهم إلى نور ساطع، نور غطى الأرض والسماء، تراجعت المادة السوداء، انسحبـتـ، وهـدـأـتـ السـمـاءـ، وـعـادـتـ الـأـرـضـ إـلـىـ سـكـونـهاـ. اـبـتـسـامـةـ باـهـتـةـ، ثـمـ انـهـارـ جـسـدـهاـ عـلـىـ الـأـرـضـ.

حملـهاـ جـوارـاـ بـسـرـعـةـ، وـعـيـنـاهـ تـبـحـثـانـ عـنـ أـيـ خـطـرـ آـخـرـ. لـكـنـهـ تـوـقـفـ فـجـأـةـ... أـمـامـهـ، وـسـطـ السـمـاءـ الـتـيـ مـاـ زـالـتـ تـتـوـهـجـ بـالـدـمـ، كـانـ هـنـاكـ شـخـصـ هـبـطـ بـبـطـءـ. رـكـزـ بـصـرـهـ... وـعـنـدـمـاـ اـقـرـبـ، اـتـسـعـتـ عـيـنـاهـ أـكـثـرـ:

إـنـهـ... أـبـيـ.

أثناء رحلتهم من المدينة الصغيرة التي تحولت إلى فوضى كارثية، كانت يارا غارقة في سبع نومها داخل سيارة رون، جسدها شبه متمدد على المقعد، وعقلها يغوص في أعماق الأحلام المتشابكة،

حيث تصطاد ذكرياتها مع الواقع بطريقة تجعل كل شيء محيّراً ومرعباً في الوقت ذاته.

كانت ترى نفسها تتلاشى كذرات غبار متناثرة في الماء،

تناثر بلا وزن ولا هوية، شعور بالخوف ممزوج بالحرية

ووهلة من الإحساس بالمسؤولية الثقيلة التي كادت تسحق روحها. كل نسمة هواء تدخل أنفاسها شعرت بها وكأنها ثقيلة، تضغط على صدرها، تكاد تختنقها، وكل حركة جسدها تتطلب مجهوداً خارقاً

، وكأن كل جزء من جسدها يرفض أن يتماشى مع العقل.

رون، المسكين، جلس جامدًا على مقعده، عينيه متسعتان على وسعيهما، لكنه عاجز عن الكلام، عاجز عن التحرك. كل شعور داخله ينهشه، بين الرعب والدهشة، وكأن قلبه محاصر بين صرخ داخلي لا يستطيع الإفصاح عنه. كان يشعر بالثقل الهائل للواقع الجديد

، كل حدث وكأن له صدى داخل قلبه، وكل نظرة إليه تشعره بأنه مجرد شاهد عاجز على قوة تفوق فهمه.

جوارا، من جانبه، كان قريباً منها، محاطاً بحيرة وقلق لا يفارقه. لم يفهم هذا العالم الجديد بعد، لكنه كان يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يبدو هادئاً ومتماساً. كل خيط من شعوره كان موجهاً لحماية يارا

، كأنه يحمل ليس جسدها فقط، بل كل ما تبقى من الأمان الذي يمكن أن يمنحه له هذا العالم الجديد. كل خطوة، كل نظرة،

كل حركة منه كانت مليئة بالاهتمام والحرص، كأنه يحاول سد الفراغ الكبير الذي تركته الأحداث وراءها.

عندما وصلوا إلى العاصمة الكبيرة، شعرت يارا بأنها عالقة بين كوابيسها الحقيقية والأحلام المختلطة بالواقع. كل شيء أمامها اختلط: الماضي، الطاقة الغامضة التي تحرك الكون، والحاضر مليء بالحشود والآصوات الغريبة. شعورها بالذنب أصبح أثقل من أي وقت مضى

، وكأن العالم كله معلق على أكتافها، وهي الوحيدة التي تعرف الحقيقة: أن اختيارها للهروب تسبب في تغيير كل شيء، وأن كل خطوة تقوم بها لها صدى مدمر على الوجود نفسه. كل نسمة هواء شعرت بها كانت تذكرها بمسؤولية لا تحتمل، وكأن الأرض نفسها تنتظر منها قراراً.

بعدما استفاقت يارا في غرفة كبيرة ممتلئة بالناس، كان أول ما وقع عليه نظرها هو وجه جوارا. كان المسكين مرتبكاً من كل شيء، لم يعرف كيف يتصرف في هذا العالم الحديث، لكنه كان يقف بجانبها،

يحاول أن يمنحها الأمان الذي تحتاجه. عينيه الزرقاء تلمعان بالدهشة والقلق، لكنه كان يحاول أن يظهر هادئاً، متماسكاً، وكأن كل خطوة خاطئة قد تهدد يارا أو العالم من حولهم.

شعرت يارا أن شعورها بالارتباك والخوف يختلط بلمسة غريبة من الراحة مجرد وجود جوارا بجانبها. اقترب منها بحذر، يلمس وجهها بعينيه الملئتين بالاهتمام، قائلاً بصوت خافت:

"أنتِ بخير؟"

لم تكن يارا متأكدة مما حدث، كل شيء كان مشوشاً داخلها، كل الأحاسيس تتصارع: الخوف، الصدمة، الراحة الغريبة من وجود جوارا بجانبها. شعرت أن كل نبضة قلبتها تعكس قوة هائلة

، قوة لم تعرف كيف تتحكم فيها، قوة تجعل العالم كله يبدو وكأنه يتوقف ويتربّع خطواتها.

بعد قليل، اقترب كون، وجهه قد تغير بعد مرور الزمن، يبدو أكبر وأكثر حكمة، تقرّياً في الأربعين، بينما جوارا عمره 19 فقط، ما خلق تبايناً غريباً بين الشخصين. كان حضور كون ثقيلاً

، وكان كل خطواته محسوبة، وكل نظرة منه تحمل وزناً غير مرئي، وكأنها تحدد مسار المشاعر والأحداث.

بلا تفكير، وضفت يارا يديها على وجه كون بعفوية، محاولة أن تشعر بالحنان والدفء الذي فقدته

، محاولة أن تعود إلى شعور بالأمان ولو لبرهة قصيرة، وكأنها تبحث عن نقطة ثقل تثبت عليها نفسها في بحر من الفوضى النفسية والعاطفية الذي يعصف بها.

رون جلس جامداً، قلبه مشدوداً من المشهد، لا يفهم ما يحدث لكنه يشعر بثقل المشاعر المتشابكة حوله،

بكل تفاصيل المشهد الذي أصبح واضحاً أمامه بشكل يفوق قدرته على الاستيعاب.

كون، بصوت صارم لكنه دافع، قال لها:

"لابد أن تعودي".

ردت يارا بعفوية وارتباك:

"مستحيل أن أعود إلى ذلك المكان، ذلك العالم دمرني."

كون شد على وجهها بحزم، لكنه لم يخف حنان قلبه:

"أنتِ لستِ السبب. هناك أمور غريبة تحدث، يا يارا. بعد رحيلك، الوحش هاجت، والشيطان وأتباعه أيضاً... بعد مغادرتك، توقف الزمن عليهم، فهم الآن محاصرون في دائرة الزمن. هذه نقطة إيجابية، لكن الجانب السلبي أن الرون والمورون بدأوا يتصارعون على شلال السيرون."

كل شيء أصبح دموياً ومكثفاً بالمشاعر والعنف المتبادل، الحراس الأربعة من الأسلاف الذين حافظوا على الظلام اختفوا

، والزمن أصبح أطول على النور، وكل ذلك أثر مباشرة على شعب الزورا والمورون. الرون أصبحوا تحت ضغط شديد، والمدينة تئن تحت وطأة الأحداث التي لا تستطيع يارا فهمها بالكامل

، شعورها بالعجز يزداد، وحرقة قلها تتضاعف مع كل نفس جديد، وكأن الكون كله يراقبها ويقيم تصرفاتها.

يارا جلست مستمعة، مصدومة، وعقلها يدور بلا توقف، وهي تحاول أن تلتقط فكرة واحدة، أي سبب من هذه الفوضى

. فجأة اقترب رون منهم، الصمت يخيم، وقال الطبيب الذي جاء لمراقبة حالتها:

"هل تريدين شيئاً؟"

ردت يارا بصوت ضعيف، وجهها شاحب وجسدها يرتجف:

"كأس ماء..."

كون، بقوة وإصرار، شد يدها وقال:

"إياك أن تنفعلي.. مشاعرك الآن تخرج منك طاقة كبيرة، كما حدث سابقاً. حافظي على صفاء ذهنك، يا يارا."

ترجفت يارا، عينها مليئة بالخوف والحيرة، وقالت:

"ما الحل إذن؟"

رد كون ببطء، صامتاً في البداية، ثم قال:

"لا أعلم، لكن يجب أن تعودي، ربما يتغير شيء."

هنا شعرت يارا بأنها محاصرة، عالقة بين عالمين، غير قادرة على فهم ما حصل عندما ذهبت إلى البحيرة ورأت جوارا

، قلبها ممزق بين الرغبة في الهروب ومسؤولية التوازن الكوني.

نظرت إلى جوارا، وقالت بغضب وحيرة:

"لماذا جئتم إلى هذا العالم؟"

ردوا في نفس اللحظة، بصوت مليء بالغموض والحدر:

"ربما القدر لديه حديث آخر عنك، يا يارا."

أخذ كون ابنته إلى زاوية منفردة، بعيداً عن صخب الغرفة وضوضاء الأقدام والهمسات، حيث كان الضوء خافتًا يتسلل من النوافذ العالية، يلقي ظلالاً متحركة على الجدران العتيقة،

ويمضي الجو شعوراً بالرهبة والقلق الخفي. هناك، جلس كون على حافة المقهى، عيناه تتحفصنان ابنته بجدية مختلطة بالحرص والحيرة، وكان صوته مثلاً بالمسؤولية حين قال:

"إياك أن تخبرها عن اقتراب السماء من الأرض... أظن أن يارا لا تدرك أنها دفعت المصائب إليها".

ثم تهدى ببطء، وكأن كل شهيق وزفير يحمل ثقل اللحظات العصيبة التي مرّوا بها، ونظر إلى رون، الذي بدا مذهولاً ومربيكاً، لكن حاول أن يظهر التصديق، ربما كتحية للنظام الذي لا يفهمه،

أو كوسيلة لإخفاء خوفه. اقترب كون من رون بهدوء وثقة، وكلماته كانت تمثل مزيجاً من الأمر والنصيحة:

"شكراً على اهتمامك بيارا، لكن من الأحسن أن لا تطيل التفكير فيما حصل... يارا ضعيفة جداً الآن، لذلك يجب أن تستعيد قوتها. اعنِ بها أيها الغريب عندما لا تكون هنا، أنا أثق بك".

ثم انصرف كون، تارِّكاً رون في حيرة تامة، بينما بقي جواراً واقفاً، قلبه يرفرف بسرعة، وعقله يتسائل عن تلك اللحظات العجيبة، خطوات والده التي تركتها علامات على الأرض أثرت فيه،

فقرر قطع صمت الغرفة بسؤال مباغت:
"لكن يا أبي، نزولك من السماء كان مفاجئاً، وعندما وجدتكم لم تتضرر... كيف حصل ذلك؟"

جلس كون على المهد، جسده مائل قليلاً إلى الأمام، وعيناه تتفحصان الأرض كما لو كان يحاول جمع خيوط الوقت والمكان معًا، ثم بدأ بالكلام بصوت هادئ لكنه مثقل بالتجربة:

"حتى أنا لا أدرى... عندما جرفك الشق، أمسك بي الطائر وحلق بي إلى السماء، وفجأة، بينما كنت أحاول الإفلات من مخالبه، ظهرت يد قد اتجهت نحو الشق الذي انزلقت منه.

بدأت السماء تقترب بشكل مخيف من الأرض... تشبثت بها كي لا أموت، وصعدت بي إلى سماء هذا العالم. هناك، في تلك السماء، وجدت عيوناً تراقب وتنتظر شخصاً ما... لكنه ليس أنا... ربما يارا. لكن حين وجهت بصري إلى الأسفل، اختفت اليد،

وبدأت الدماء تهطل من فوق، وتغير لون السماء. أظن أن يارا قد أغضبت القدر
بتمردها على مصيرها

، وفي النهاية... ها أنا بينكم.

صمت جوارا للحظة، وشعور التوتر يلفه، قلبه ينبض بسرعة، وأفكاره تتتصارع بين
الغضب والخوف والدهشة،

بينما تراقص الصور المرعبة للسماء المتقاربة من الأرض والدماء المتساقطة أمام
عينيه. ثم قال بسخرية:

"يا لها من سخرية، أن يضعننا القدر هنا، في بيت ذلك الغبي... انظر إليه، كيف يحوم
كالغراب حول يارا... أريد قتله حقاً... لكنني جائع... أريد أن آكل شيئاً."

رد كون بنبرة باردة، صوته محمل بالإزدراء والحدّر:
"لا أعرف لماذا انجذب إليها... ربما هناك سر فيها حتى هو لا يعرفه... لماذا شخص
عشوائي يقترب من يارا لهذه الدرجة ويتبعها كظلها؟"

رمق جوارا والده بعينين متسائلتين، ووجهه يفيض بالقلق والحيرة، وقال:

"إنه مهووس منحرف... انظر إلى عضلاته وغده..."

ابتسم كون، صحكة خفية تكاد لا تظهر، لكنها كانت تعكس إدراكه لطبيعة الغيرة في قلب جوارا:

"بئس لك... اترك الشاب وشأنه، واذهب إلى يارا... ربما تستيقظ".

ذهب جوارا نحو يارا، شعوره مشحون بالمسؤولية والحدر، قلبه يثقل بالقلق، ويده ترتعش قليلاً عند لمس جسدها للتأكد من سلامتها. بعد أن طمأن عليها قليلاً، ذهب يبحث عن طعام،

وكل خطوة كان يتزدّها في المنزل العملاق مليئة بالانتباه، إذ كل ظل وحركة كانت تجعله متيقظاً. صادف شخصاً غريباً يحمل كاميرا، يبحث عن رون، لكن جوارا لم يفهم هدفه، واستمر في التجول حتى وصل إلى المطبخ، حيث ظهرت الثلاجة أمامه كجدار ضخم يختزن الغموض، وخوفه زاد.

سحب سيفه بحزم، ودفع قدمه نحو الثلاجة بسرعة متأهبة، ثم ظهرت فتاة غريبة تضحك بسخرية من خلفه، لم تتراجع ولم تُبدي أي خوف، بل وضعت في فمه تفاحة حمراء بمكر، ثم انسحبت. سرت قشعريرة سامة في جسده، تخبره بأن هذه المرأة تنوى شرّاً،

لكنه تجاهل ذلك واستمر في العبث بالثلاجة حتى فتحت، فتراجع ببطء، ثم رأى الطعام، سال لعابه وبدأ يأكل، وملأ بطنه أخيراً. شرب الماء وهمس لنفسه:
"لم أذق الطعام منذ أيام... آه يا بطني."

ثم سمع أصواتاً متعددة لأناس في الخارج، فتوجه نحو النافذة، ورأى حشدًا ملتفاً حول المنزل ينادي ويصرخ، لاحظ مرور رون مع تلك المرأة، وهو يرتجف ولا يريد الخروج، لكنها أصرت على ذلك وقالت بنبرة خانقة:
"كل ذلك بسبب تلك الغريبة الساحرة..."

"لقد أثرت ضجة ومكان جميل بأكمله دمر بسببك... كيف ستبرر ذلك للناس؟"

ظل رون صامتاً، يراقب بدهشة، بينما همس جواراً لنفسه بصوت منخفض:
"ساعد يارا... إنها في خطر."

?

سمعت يارا الضوضاء الخارج من المنزل، فشعرت بغضبٍ عميق ينهش روحها كما لو
أن ناراً مشتعلة قد اجتاحت كل خلية فيها. لم يكن هذا غضباً عادياً، بل شعوراً ثقيلاً
وكثيفاً، كأن كل صوت غريب يغرس سكيناً حاداً في قلبها، وكل اهتزاز في الهواء
يوجعها. نهضت بخطوات متثاقلة، ظهرها مقوس كما لو أنه يحمل ثقل العالم
بأسره،

وكل حركة من جسدها كانت كإشارة تحذير لا يمكن تجاهلها. الهواء حولها بدا ثقيلاً
يتكتف، وكأن الجدران نفسها تتنفس تحت وطأة الطاقة التي أنبعثت منها.

من حولها، شعر الجميع بالهالة الغامضة التي انطلقت منها، لم تكن مجرد حالة
مرئية، بل تموجات تخلل الروح والقلب، تؤثر على كل من حولها، حتى من لم يفهم
معنى الغضب شعر بها. كون، الذي كان واقفاً أمام المشهد، لاحظ الصحفيين الذين
اكتظوا أمام المنزل

يارا لم تكن بوعيه، كانت أسنانها تحتك بشدة، تصدر صوتاً مؤلماً يقطع الصمت،
ويند لها المليئة بالخطوط السوداء بدأت تنبع

لحمها الشاحب تحول تدريجياً إلى أسود حalk، متماوج كأن الظلام نفسه صار ينساب عبر جلدها. وجهها حافظ على هدوئه الظاهري، لكنه لم يكن إلا قشرة رقيقة تحجب عن العالم عاصفة الطاقة المرعبة التي كانت تتدفق من جسدها.

تمسّر كون في مكانه، عاجز عن تحريك ساقيه، وكل شعور بالخوف والرهبة يتصرّع في داخله، لأنّه كان يشعر بأن الطاقة التي تنبّع من يارا حالية تماماً من أي تميّز بين الخير والشر، النور والظلام، الوحشية والسلام، كأنّها سبات كوني متجمد لا يهدأ، يلف كل شيء حوله في صمت رهيب.

قدمت يارا، وفتحت الباب بكل هدوء، لتكشف ألواناً من الوجوه، مثل نجوم صاحبة مضيئة، وكل منها يرمز إلى حالة من الرهبة والدهشة. الحشد كله توقف، وكان الزمن تجمد للحظة واحدة، وكان الهواء نفسه أصبح كثيفاً وممتلئاً بالتوتر.

لكن المرأة التي أفلتت يد رون لم تتركها تمر، اندفعت نحو يارا بعينين متألّتين بالطمع، وقالت بصوت مخنوق: "هذا كنزي، هذا مجدي!"، إلا أن اختناقها لم يكن بسبب يارا مباشرة،

بل بسبب سرب من الأرواح والوحوش امتنج في هيئة واحدة، أحاط بجسد يارا، كأنها درع حي يلتهم كل شيء حوله.

الوحوش والأرواح تمازجت في حركة شبه سائلة، تترافق في الهواء، تتفاعل مع كل نبضة في قلب يارا، والوحشية التي تنبعت منها جعلت كون وجوارا يشعران بأن الكون نفسه يهتز تحت أقدامها، والوقت يتلوى حولها.

جوارا انزل من النافذة كالصاعقة، يواجه الصحفيين وأعينهم التي ذبلت من الرهبة، ثم أطلق صرخة نداء لأبيه من الداخل. خرج كون، يمسح تعابير الصدمة عن وجهه، ملوحاً بسيفه نحو الكيان الذي ظهر فجأة

، أظافر طويلة تخرج من جسد المرأة، تتحول إلى أشواك تطعنها، ثم تتلوى كالثعابين، ثم تتحول إلى رمال سوداء تتطاير في الهواء، تلتهم كل شيء بالقرب منها.

نظر كون إلى يارا، وهي تحدق في السماء الملطخة بالدماء، التي أصبحت أكثر بشاعة من أي وقت مضى، وقال موجهها كلامه لجوارا: "لا تقترب منها، فقط انتظر حتى تطأ

قدمها التراب... لن يمر هذا بسلام إلا إذا تركت يارا هذا العالم، أرجوك يا ابني، لا تهور".

جوارا ربط رأسه الذي ارتطم إثر تلويع الكيان بأشواكه، والسماء لم تهدأ، بدأت تطلق أصواتاً مزعجة، كان الجحيم نفسه قد انتقل إلى الأعلى. الأرواح والوحش ظهرت للملأ، ولم يستطع أحد التحرك

، لا كون، ولا جوارا، لأن يارا أوقفت الزمن، كل شيء متجمد، حتى الرياح توقفت، وكل ورقة، وكل شعاع ضوء، وكل قطرة مطر معلقة في الهواء.

اقربت ووضعت قدمها على الرصيف، وبمجرد أن لامس التراب أصبح أحمر، وكان الأرض نفسها تنزف، وأخذت حفنة منه ورشه على شعرها الأبيض، الذي تحول بعد ذلك إلى مادة سوداء كثيفة، كأنها تجسد الظلام في أبسط صورته وأكثرها كثافة.

رغم تجمد كون بالوقت، استطاع تحريك فمه قائلاً بصوت مختنق:

"يارا، أرجوكي، لا تفعلي! سوف تصبحين الظلام، وسوف يسجنك داخله! الكون أنت وأنت الكون، فلا تختاري شيئاً على شيء... العالم يتغير إن تغيرت، إن استسلمت لضعفك، إن قررت تغيير من أنت، فالكون سيغير هويته! أرجوكي!"

لكن يارا لم تبالي ظاهرياً، فهي محاطة بقوة أعظم من أي تحذير،

وعينها في السماء، تشاهد تلك العين التي رأها كون من قبل، تحولت مباشرة إلى ثقب
أسود ينظر إليها بشرابة لا نهاية

، يبتلع كل الضوء وكل الفهم من حوله.

صرخ كون بأعلى صوته:

"يارا!! أرجوكي! يارا، لا تذهب... إذا ذهبت إليها، سيختفي التوازن! تذكرني كل من
أحبك: أنا، جوارا، أمك، أبيك، المورون... الجميع سيساعدك لتجاوز هذا! أنت لست
وحذك!"

بدأ كون يسعل من شدة الضغط المحاط به بسبب الزمن المتجمد حتى الرياح
توقفت، بينما التفتت يارا إليه بعينين باكيتين، وقالت بصوت حزين وممزق:
"سامحني... إنه ينادياني كل يوم، تزورني كوابيس هذا العالم وذاك، كل الأموات وكل
الأخياء... أنا لا أستطيع، أرجوك افهمي".

ثم نزلت من السماء حبال بأفواه متجهة نحو يارا لتجذبها إلى العين السوداء، وكانت
السماء تقترب، ودماءها تتصبغ بشكل أشد رعباً، بينما يارا تبكي وتتوسل لكون:
"أنا خائفة يا كون! أنا خائفة! أرجوك أنقذني، أنا حقاً بحاجة إلى الإنقاذ!"

صرخت يارا، وأنفاسها تصاعد بشكل متقطع وعنيف، جسدها يرتجف تحت ضغط السماء الذي يسحبه نحو الأعلى، كل عضلة مشدودة كما لو أن كل شعور مكبوت منذ زمن بعيد انفجر دفعة واحدة. صرخاتها لم تكن مجرد أصوات، بل كانت موجة من الألم والخوف والغضب امتدت لتغمر المكان كله، تخترق كل زاوية وكل شبر، حتى كون الذي شعر بالدهشة والرعب في الوقت ذاته، لم يستطع تحريك أي جزء من جسده.

"لا لا لا لا أرجوك، لا أريد... أريد أن أكون معهم! لماذا يحتم عليّ البقاء داخل الرماد؟" كلماتها كانت متقطعة، تخللها تقطيعات النفس المتلاحقة، لكنها حملت صراعاً داخلياً هائلاً بين رغبة الحرية والخوف من المجهول، بين التمرد على المصير واستسلام القوة الخارقة التي تحيط بها.

"لا أريد، أرجوك... لقد هربت لكي أنعم بالحرية... لماذا تجرني إلى هذا السجن... أنا أنا!" الصراخ كان كال العاصفة، يختلط فيه الألم بالخوف، والحنين بالحرية المفقودة،

والدموع الساخنة كانت تنهمر على التربة الحمراء، تتغلغل في التراب كما لو كانت تحاول غسله من كل ألم ودمار. كل قطرة دمعة تصنع دوائر صغيرة عند ارتطامها، تنشر الحزن في كل أرجاء المكان.

ابتلعتها العين، تلك العين الغامضة الصادرة من السماء، وابتلعت كل وجودها، تاركة فقط آثار العيون الباكية، كأنها آخر لحظة لإنسانيتها. السماء نفسها انطفأت فجأة، تاركة الأزرق يخيم على المكان، لأن الكون توقف للحظة صمت مطبق، يتأمل في ما تركته يارا من أثر، وكان الهواء أصبح ثقيلاً من شدة الصدمة.

ثم تدفقت الحركة فجأة في أجساد الجميع، لأن الزمن استعاد نفسه بعد صمت طويل، كل من حولها شعر بالاهتزاز، بالارتجاف، وكان العالم كله ارتعش مع انفجار مشاعرها. يارا اختفت من الأعين، والصدمة انتشرت في عروق كون، جعلته يقف مشدوهاً، لأن كل حركة كانت تؤلمه على نحو شخصي.

رافعاً صوته، صرخ كون وهو راكع في المكان الذي تركت فيه يارا آثار قدمها: "مستحيل، مستحيل، مستحيل! ليس هي... كيف... كيف... كيف لي أن أتحمل خسارة أخرى؟" صوته كان امتداداً لصراخه الداخلي، كل كلمة مشحونة بالألم واليأس والغضب، لأن الكون كله يستمع إليه.

"لا... أيمها الكون اللعين! أيتها النجوم والوحوش والبعد اللعين! أيتها الأسرار التي أكلت قلوبنا... ابتعدني... ابتعدني... ليس يارا!" كانت الكلمات تتطاير، كشرر من نار داخلية،

كل حرف من صوته يخترق الهواء الثقيل، يهز كل شيء في المكان، وكان صوته يزيد مزق العالم ذاته.

أجهش بالبكاء، صوته الخشن يخرق الصمت، يتعدد صداؤه في الجدران والهواء، يترك أثراً كالصاعقة في الأجواء. المكان أصبح ساكناً بالكامل، سوى صدى بكائه المتكرر، وكان العالم نفسه يصغي إلى حزن الإنسان وفقدانه الأعظم.

الجميع فقدوا وعيهم، لم يعد أحد قادرًا على النهوض، سوى كون الذي نبش بأظافره التراب الأسود المتحجر، كل حركة منه ترك أثراً قاتماً، وكان الأرض نفسها تشارك في وجوهه. نزفت أصابعه، واللون الأحمر احتلّ بالأسود، كان دم قلبه امتنج بالحزن المكبوت، ثم فجأة ظهرت وردة سوداء أمامه، تسقط أمامه كرمز لما فقد، وسقط مغشياً عليه من شدة الألم والعجز.

استيقظ جوارا، وهو يشعر بأن جزءاً من يومه قد انتزع من ذاكرته، لا يتذكر شيئاً سوى والده أصبحت كالصنم، عيونه كئيبة، بلا أي تعابير، تعكس الصمت والفراغ الذي حل بالعالم من بعد اختفاء يارا.

رجع كون وابنه إلى الصحراء البائسة، بلا أي أثر لما فقدوا، بلا أي أثر لما كان يُحتمل أن يكون. عادوا إلى موطنه الذي أصبح نصفه مدمرًا بسبب التداخل الكارثي مع العالم الآخر، الذي لم يترك شيئاً على حاله. مات الجميع، كل من عرفوه، كل من أحبوه، حتى الهواء بدا وكأنه يئن من الثقل الذي تراكم في المكان.

ظل المورون يحاولون تجديد ما دمر ، عبثاً ، في حين كانت العين التي خرجت من السماء تتسلل من أرضهم ، تهتز الأرض تحتهم كأنها مريضة ممومة ، والهواء أصبح ثقيلاً ، كل شيء حي ذبل وسقط ميتاً ، لكن هذا لم يعد بهم أحداً.

لم تعد يارا موجودة ، ربما كانت في مكان أفضل كما قال كون ، لكن أثرها ظل محفوراً في كل شيء حولهم . كانت معلقة بين نور وظلام ، سلاسل النار تلتهب حولها ، لأن كل شعاع قوة في الكون حاول أن يمسك بها ويعيدها إلى مكانها .

ستعاقب على هروبها ، هذه الحقيقة تلوح أمام كل من يعرفها ، وكل العالمين يشعرون بخطورتها . كان هذا الهروب ضربة قاضية للعوالم ، إذ أن كل توازن هش قد انهار ، وكل رابط بين الأبعاد تهشم . يارا ، التي أصبحت شخصاً آخر ، بارداً ، غير مكترث بما يحصل أمامها ، يسمع صوت ستون قاضياً يوجهون أصواتهم نحوه .

رفع أحدهم قبعته ، وأمر بروح قوية أن تضرب يد يارا الغارقة في السواد . تلك اليد ، التي كانت سبباً في إتلاف الرابط الوحيد لحماية العوالم ، أصبحت أداة كارثية ، مزقت التوازن وفتحت الطريق للكوارث المتالية .

هناك بين العوالم، كان هناك رابط دقيق لحماية الموازنة، ومنع التداخل بين الوجودات، لكن يارا، بقوتها الجبارة، وبجهلها، مزقت كل شيء، وأطلقت العنان للفوضى.

?

هناك، في مكان لا يعرف زماناً ولا مكاناً، عُلّقت يارا بين عالمين: أعلى، سماء مرصّعة بالنجوم، كل نجمة تشع وكأنها عين تراقبها ببرودٍ أزلي. وأسفل، هوة لا متناهية، سوداء كالموت، تفغر فمها كوحش قديم ينتظر وليمة جديدة. لا أرض تحت قدميهما، ولا هواء تتنفسه سوى ذرات غريبة من نورٍ باهت يتلاشى من حولها.

أمامها، مصطفون في دائرة هائلة، ستون حاكماً كونياً. كانوا عمالقةً في حالاتٍ متوجهة، لا تُرى ملامح وجوههم كاملة، بل كانت عيونهم وحدها بارزة كنجوم سوداء، ثابتة بلا رمش، وكأنها تحكم عليها بمجرد النظر. أصواتهم حين نطقوا لم تكن مجرد كلمات، بل ارتجافات في الوجود كله، صدى يخترق العظم والروح.

لم تأبه يارا لتلك اليد السوداء التي طوّقت مucchها، ولا لأولئك العيون الجامدة التي تشدّها نحو محاكمة بلا رحمة. كانت قد فقدت كل ما يربطها بالحياة الحرة. لقد سُلّبت منها الحرية، وسلّب كل شيء معها.

قال أحد الحكم، صوته كالرعد:

"ستُنفيين."

أجابت يارا ببرودٍ مميت:

"لَا هُمْ."

تقدّم آخر، صوته أشبه بصرير أبواب جهنم:

"جُرمك لا يُغتفر يا يارا... لقد سحقتِ الروابط بين العوالم بهروبك، وأحدثتِ شرخاً لا يندمل. هل أنت واعية بحجم المأساة؟"

ابتسمت ساخرة، وكشّرت عن نابيهما في تحديٍ ساخر:

"لَا هُمْ أين أذهب... فأننا لست حرة أبداً."

حينها، ارتفع صوت ثالث، كالقدر المكتوب:

"إذن، سُتُّسلِّين كل ممیزاتك وقوالك. لن تعودي يارا كما كنتِ. ستعيشين حياة الرماديين".

ساد الصمت، سوى نبض قلبه الذي تباطأ كأنه يستعد للنهاية. همسَت ساخرة: "الرماديون؟... أهذا حكمكم العظيم؟ حياة الرماديين البائسين؟... البؤس يمر، أما السعادة فيُبحث عنها... آه، أيها القدر المشؤوم... آه."

وفي لحظة، انفلتت من قيدها، وانزلقت إلى الهوة. لم يكن سقوطاً عادياً؛ كان غوصاً في العدم، الريح تمزق شعرها، العتمة تلف جسدها. ومع ذلك، لم تصرخ... بل ابتسمت، وأغمضت عينيها وهمست: "هذا مريح... سأعيش مجردة من الكمال."

فتحت يارا عينيها، فوجدت نفسها في عالم آخر. لم يعد هناك سواد ولا نجوم، بل منزل قديم تعلو الألوان الباهتة: بني متر، جدران متشققة، أثاث بسيط كُسرت بعض زواياه. لم يعد هناك سحر يحيط بها، بل أصوات أطفال يركضون، صبيح عادي اخترق أذنها حتى أوجعها.

شعرت ب طفل صغير يشد طرف فستانها المتسخ، يطالها بانتباهٍ لم تفهمه. على المائدة جلس رجل وسيم، لكن وسامته كانت مشوبة بحزن دفين، نظراته مثقلة وكأنه يحمل هموماً لا تنتهي. رفع عينيه نحوها وقال بنبرة هادئة لكنها كسيرة:

"اسكري الحسأء... لماذا أنت شاردة؟"

ارتجمفت يارا، تركت ما في يدها واقتربت من النافذة. في زجاجها البالى انعكس وجه غريب: امرأة في الثلاثينات، شعرها أشقر ناعم ينسدل على كتفها، عيونها خضراء باهتة، جسدها جميل لكنه بلا إشراق. لم تعد يارا هي يارا.

الأسئلة تكاثرت على رأسها كزوبعة: من هي؟ ما هذا المكان؟ أين قوتها؟ أين عالمها؟ لكن الذهول انكسر فجأة حين أحاطها زوجها بذراعيه بلطفي غير معتاد، وهمس لها:

"هيا... اسكري الحسأء، الطفل ينتظرك."

التفتت، ورأت الطفل الذي يشهرا تماماً. وفي قلها اشتعل شيء غريب... دفء صغير، سعادة عابرة. ابتسمت وقالت في سرها:

"عائلة...!"

لكن سرعان ما تجمّدت تلك الشرارة، حين تذكرت أن الرماديين لا يعرفون السعادة ولا الحزن. حياتهم مستقرة، بلا فوضى، بلا مشاعر جارفة... حياة مسطحة، لا لون لها سوى الرماد.

رفعت عينها نحو الفراغ، وأدركت الحقيقة:

"هذا ليس عقاباً... بل جزاء... حياة الرماديين ليست موتاً... لكنها موت بطيء، في ثوبٍ من الاستقرار."

هناك، على سفح الجبل البعيد، تقطن يارا في عالم يغزوه البرود. هواء ثقيل يزحف بين الأغصان اليابسة، يلسع الخدوود، ويترك على الجدران طبقات من جليدٍ كأنها وشوم منسية. مشاعر النسيان تتسلل إلى كل القلوب كما يتسلل الضباب إلى الوديان. لا أحد يستطيع إخمام جبروت النسيان، تلك اللعنة التي تطفئ ببطء كل شعلة حرية. إنه عقاب من يبحث عن الانعتاق، قيد يلتقي على الأرواح بدل السلائل.

تنظر يارا من خلال نافذة المنزل، النافذة المطلة على جمالٍ ساحرٍ للطبيعة، جبال شامخة وسماء زرقاء صافية، لكن كل شيء باهت مقرن من أي لون مبهج. الأشجار عارية إلا من ظلها الرمادي، الثلوج يغطي الأرض ببياضٍ ميت، لا يثير الفرح بل يضاعف الوحدة. نظرت إلى انعكاسها: شعر بلاطيني طويل يتلألأ بخفوت، وعيون حضراء عميقة لكن لا حياة فيها. عندها تذكرت أنها كانت سجينهً في قفص أبشع من هذا، سجينه في عوالم الحكام الكونيين. لكن سؤال يلحّ عليها: لماذا هذا العقاب المجنف؟

لم تُمهلها الأفكار وقتاً لتمادي، إذ قاطعها صوت زوجها. كان صوته دافئاً لكنه مرهق، كصوت رجلٍ يحمل على كتفيه ثقل سنوات من التعب. أمسك بيدها المبللتين من غسل الأواني، نظر في انعكاسها في الزجاج وقال:

"لقد تأخر الوقت، لنذهب إلى النوم عزيزتي... غداً سنذهب لجمع الحطب كما المعاد".

قبلها قبلة خفيفة على جبينها، قبلة روتينية بلا شغف، ثم ترك لها شمعة صغيرة. اللهب تراقص في الظلام، كأنه يفضح ملامح المطبخ: أوانٍ نحاسية متآكلة، طاولة خشبية متصدعة، وأرضية يغطّيها غبار الثلوج الذي تسلل من تحت الباب.

لطمّت يارا خدها بخفة، كمن تحاول إيقاظ نفسها من كابوس، وقالت:

"حياة الرماديين غبية حقاً... لا أعرف كيف سأتأقلم هنا."

مسحت تعابير السخط من على وجهها، وتقدّمت بخطوات رشيقّة نحو غرفتها. كانت الغرفة منسية، جدرانها عارية، ألوانها لا تحمل سوى لون الخشب القوي المزخرف بنقوشٍ بسيطة. زوجها كان نجاراً محترفاً، تنبض يداه بحرفية نادرة، وعلى النقىض منها هي، خياطة ماهرة. لقد تزوجا وهربا إلى هذا الجبل بعيداً عن القرية. كان يقول لها: "الحياة في القرية أشبه بالموت بقطرات الماء... كلهم نسوا أحبابهم وذكرياتهم، ثم قتلوا... يقتلون من ينسى أو يدفنه الزمن".

خلعت فستانها المحتوى، ووقفت أمامه بسؤال يشبه طعنة:

"ماذا بشأننا؟"

أجاب وهو يحدّق في ملامحها بإمعان، عيناه تحترقان بصراع داخلي:

"أنا لم أنسك أبداً. ربما أحياناً... أتوق إلى قتلك، لأن هذه اللعنة تجبرني. لكن لا أنساك. ربما لهذا حفرت اسمك على ذراعي، واسم ابننا، كي لا أجن. وجدت شيئاً أنقذنا نحن الاثنين: ابننا لا ينسى أبداً. كلما ناداني بكلمة "بابا" أستيقظ من سباتي وأتذكر. لذلك أريد البقاء هنا إلى الأبد... كي لا أقتلكم."

عندما نطق بهذه الكلمات، تلألأ عيناه ببريق غريب، خليط من الرجاء واليأس. في تلك اللحظة، تألقت دموع يارا وانسكت، دموع صافية لأنها وأخيراً فهمت عقابها: ستensi. ستensi ذكرياتها... ستensi كون وجوارا، ستensi عالمها، ستensi أمها وأباها. ستensi هويتها، وكل ما جعلها استثناءً. كان عقابها الحقيقي ليس الحرمان من القوة، بل الحرمان من الذكرى.

مدّ يده المترجفة، جذبها بقوة، أسقطها على السرير، احتضن جسدها النحيل الأبيض. أصابعه المحترقة من العمل مسحت دموعها بصبرٍ صامت. كان قد نسي اسمه حتى، لكنه تذكّر حين همست له شفتيها:

"أزيل..."

ذلك الاسم كان الجبل الأخير الذي يربطه بالإنسانية.

نامت يارا بين ذراعيه، لكن قلبيا ظلّ مستيقظاً.

مع بزوغ الفجر، استيقظت يارا مبكراً. فتحت الباب الخشبي المتهالك، خرجت إلى الهواء البارد. الرياح قرصت عظامها، خدّاها توهجاً بلون قرمزي جميل، الشتاء كان يبتلع الجبل. وقفـت تتأمل المشهد: الجبال مغطـاة بالثلـج، الغـابة نائمة تحت بطـانية بيضاء، والسمـاء رمـادية كأنـها لوحة غير مـكتمـلة. فجـأة أحـاطـ بها ابنـها الصـغيرـ، ضـمـمـها ببراءـة كـاملـةـ. كان يـشـبـهـها بـطـرـيقـةـ حـزـينـةـ وـمـفـرـحةـ فـيـ آـنـ وـاحـدـ، جـمـالـهـ رـقـيقـ كـزـجاجـ قد يـنكـسـرـ مـنـ مجـرـدـ لـمـسـةـ.

حملـتـهـ بيـنـ ذـرـاعـيـهاـ وـاتـجـهـتـ نحوـ البـئـرـ. المـاءـ كـانـ متـجمـداـ، صـدـىـ صـوـتـهاـ اـرـتـدـ منـ أـعـماـقـ الـجـوـفـ. هـمـسـتـ:

"الـشـتـاءـ جـمـيلـ...ـ لـكـنهـ لـاذـعـ."

في تلك اللحظة، تفطّن أزيل لغياب زوجته. نظر حوله، نسي للحظة من هي، ظلّ يهمـهمـ بلاـ وـعيـ، يـبـحـثـ فيـ عـقـلـهـ عـنـ خـيـطـ. ثـمـ لـمـحـ اسمـهـ مـحـفـورـاـ عـلـىـ ذـرـاعـهـ، فـاستـيقـظـ فـجـأـةـ كـمـنـ خـرـجـ مـنـ حـلـمـ خـانـقـ. أـخـرـجـ خـنـجـراـ صـغـيرـاـ، خـدـشـ إـصـبـعـهـ، اـمـتـصـ قـطـرـاتـ

دمه. كانت تلك طريقة ليهدي القوى الكامنة داخله. قوى تشبه دبًا هائجًا يبحث عن فريسة.

ارتدى قميصه الصوفي بسرعة، واندفع نحو الباب. عندما فتحه، تجمد الدم في عروقه: رأى جسد زوجته الضئيل مع ابنهما قرب البئر، وعلى بعد خطوات، كان شيء أسود عملاق يتقدّم. دبّ ضخم، عيناه ناريتان، فروه يتماوج مع الريح، زئيره يشق السماء.

صرخ أزيل بكل قوته، صرخة هزّت الجبل:

"إميليا... إهري! إهري!"

يارا لم تفهم ما يحدث، لكن شعرت بالهواء يثقل فجأة. الأرض تهتز تحت أقدام الدب، خطواته تمزق الثلوج. حملت ابنها بكل قوتها، ركضت، قلماها يخنق بعنف، وشعرها الطويل يتطاير خلفها كراية ذهبية. وشاحها الذي طرزته صباحاً سقط، طار مع الريح، لكن لم تهتم. الطفل يبكي في حضنها، دموعه تزيد من رائحة الخوف التي اجتذبت الوحش أكثر.

انفجر الباب خلفها، وخرج أزيل حافياً، يحمل فأسه الصغير. ركض بسرعة لا تصدق، وجهه شاحب لكن عيناه تقدحان شرّاً. عبر بجانبها كلمح برق، شعره البني يتطاير مع الثلوج، جسده كله اندفع نحو الدب.

قفز عالياً، رفع فأسه بكل ما يملك من قوة، وصوّبه نحو رأس الدب. للحظة، تذكرت يارا كون في الصحراء، حين قفز لحمايتها من وحشٍ عاقد. المشهد تكرر أمامها، لكن النهاية لم تكن مضمونة.

الفأس اصطدم بجمجمة الدب، لكن عنقه كان سميكاً كجدارٍ من الصخر. أدرك أزيل أن الضربة لن تكفي. بوحشيةٍ غير بشرية، أمسك برأس الدب بكلتا يديه، أدار عنقه بصرخةٍ تزلزلت معها الأرض. صرير العظام ولحمٍ يتمزق دوى في الفضاء. ثم غرس فأسه في مكان التمزق، وقطع رأس الدب بضربة واحدة.

سقط الرأس الضخم على الثلوج، وتدحرج ببطء، بينما جسد الوحش ارتطم بالأرض كجبل ينهار.

أنفاس أزيل كانت تتسرّع، قلبه يخفق بعنف، عيناه السوداوان فقدتا بريقهما، جسده ارتعش كمن أنهك من الداخل. حاول أن يقف، لكن ساقيه خانتاه، وسقط مغمىً عليه في حضن الثلوج الأحمر.

ركضت يارا نحوه، دموعها تسيل، وضفت يدها على وجهه. كان بارداً، لكن قلبه لا يزال ينبض. نظرت إلى ابنها المرتعش بين ذراعيهما، ثم إلى جثة الوحش، ثم إلى زوجها

الملقى. في تلك اللحظة، أدركت أن الرماديين... رغم بساطتهم... يعيشون في عالمٍ يفترسهم من الداخل والخارج معاً.

تناثر الثلج فوق رأس يارا، كان يذوب على خصلات شعرها البلاتيني فيسيقي وجنتها ببرودة تلسع العظم، ومع ذلك استجمعت رياطة جأشها، تماست وهي تكبح ارتعاش جسدها، وقالت بصوت يبعث الأسى، كأنها تخاطب ذاتها قبل أن تخاطب من أمامها: "أنت بخير... نعم، أنت بخير، لا تنظر إلى هناك، إلى تلك السماء الملبدة بالنسيان... لا يا عزيزي أزيل، لا..."

ارتجفت شفتها وهي تجرّ الكلمات جراً، ثم أطلقت من حنجرتها تهويّة شجّية، هدّدت بها المكان المضطرب وكأنها تبّ السكينة في الجدران قبل الأرواح. لقد سمعتها من كون، ذلك الصدى البعيد الذي يتردّد في قلبهما كلما هزمها الأرق وأثقلت كوابيس الليل عينيهما. راحت تغنى بصوت رقيق مختنق، ناعم كهمس الريح بين الأشجار:

"لتنام، لتنام أهيا الملّاك... لترى النجوم تسبح هناك... سأنام، سأنام معك أهيا الملّاك... أغمض عينيك..."

اذهي أيتها الشياطين... اذهبي هيا، اتركي صغيري ينام... سينام هذا الملاك لتجمره
الآمال..."

تكسرت نبراتها عند بعض الحروف، لكن الأغنية انسابت صافية، تلمع فيها دمعة وحنان. عندها ابتسم أزيل بشيء من السخرية الصامتة، ابتسامة قصيرة لكنها أذابت جزءاً من صلابته، وقال بصوت واهن:

"هذه أول مرة أسمعك وأنت تغنين... ما أجملك."

ثم أغمض عينيه كمن استسلم لسلطان النوم، أو كمن ألقى بجسده المرهق بين يديها مطمئناً.

حملته يارا بأقصى ما تملك من قوة، وقد خارت قواها التي طالما أثارت الجميع، تلك القوى التي سحقت من يقف أمامها، لكنها اليوم كانت تحطمها هي. كان جسد أزيل ثقيلاً على ذراعيه، وأنفاسها تتصاعد بحرارة، يتبعثر معها الأدرينالين الذي أغرق عروقها فأشعل جسدها المتجمد. جرت به نحو الداخل، كل خطوة كأنها حرب ضد الأرض، حتى وضعت زوجها على الكنبة المجوفة. رفعت شعرها المبلل عن جبينها والتفت نحو ابنها الذي ارتبك من المشهد، فأمرت بصوت يائس، يختلط فيه الصبر بالرجاء:

"أحضر لي منشفة مبللة من الحمام... أسرع."

كانت كلماتها تساقط مثل أنين طويل:

"هذا مخيب للأمال... أن يحتذى بك من لا تريده... أن يغدقك القدر بقوة لا تريدها...
أن تمشي بلا إرادة... وتنسى بلا إرادة... أين قراري في هذه الأشياء؟"

يدها المرتعشة عصرت قطعة القماش، ثم خلعت قميص زوجها الصوفي الذي كانت قد طرزته بحب وتفانٍ. كان القماش مثقلًا بدمائهما التي لم تستطع محوها، لأنها لا تملك صابونًا يغسل آثار الجروح. زوجها لا يعود كل يوم بالحاجيات، وواقعهم جعلها تحرق الحطب وتغلي الماء في القدر الكبير كي تنظف الثياب، لكن دمها ظلّ ينترف بين الخيوط، شاهدًا على كل ما كابدته. تذكّرت الشمعة التي ذابت قبل أن تنهي القميص، ومع ذلك أكملته متجاهلة وخر أصابعها بالإبرة الصدئة، كأنها تتجاهل آلامها من أجل حمها.

جلست تمسح على صدره العريض، تُزِّح منه رائحة العرق والدم، رائحة دبٍ جريح. لكن إيميليا، بحسّ الشمّ الحاد الذي ورثته، لم تكن لتحمل هذه الروائح، فتغضّ بصرها وتحبس أنفاسها.

بعد أن غطت يارا أزيل بعناية، أوصدت النوافذ لتكسر هبوب الريح، وأدخلت الحطب إلى الموقد كي توقد النار وتتدفق البيت المتجمد. من المطبخ حملت حساءً وحليباً فاتراً، وضعتهما قرب ابنها الصغير الذي كان قد غفا على كنزتها المطرزة بالصوف. مشهد غريب عن بيتهما... غريب عن يارا نفسها... مشهد لم تعتد له هي ولا هذان الشخصان النائمان بين يديها، كأنهما في زمن آخر.

اقتربت من أزيل وربت على جبينه، توقظه برفق، وقالت وهي تنظر حولها بقلق
مزوج بدهشة:

"البقاء هنا جميل... لكنه مخيف."

فتح أزيل عينيه بصعوبة، رمقوها بنظرة باهتة، ورأى يارا فوقه، تتحني عليه، تمسح
بيدها المرتعشة عرقه، كأنها تخبي خوفها بين أصابعها.

رغم أن النسيان يجرها إلى أعمق أراضيه، لكنها تتشبث بخيوطها البيضاء.
يارا، ولأول مرة، أصبحت تغنى بصوت متغير، لكنه يلامس القلب الدامي. كان صوتها
يخرج من صدرها مثل ارتجافه وتر قديم، مختنق بالحزن، لكن نبراته تحمل دفءاً أمّ
تخشى أن تنطفئ شمعتها.

تحت وهج الشمس الصيفية، التي أحرقت ظهرها وأثقلت رأسها، استقرت يارا على
روتينها المعتمد: غسيل، واعتناء بالزوج، وبالبن، وبنفسها، وبالمنزل. منزل صغير، لكنه
أصبح متحفًا لمشاعرها الأزلية. كل حجر فيه يحمل صدى ضحكة أو تمهيدة أو دمعة
انسكتت على جنباته.

يارا لم تنسَ ما كابدته، وما نزفته، وما أضاعت. لذلك فقد حولت بيدها الهرزيلتين
المنزل إلى لوحة زاهية، ألوانها لا تهت. حتى أزيل نفسه تعجب من التغير الذي أصاب
هذا المنزل القديم، ذاك الذي وجدوه صدفة وسط الغابة الكثيفة وسكنوا إليه
كلاجئين من قدر لا يرحم.

تعلمت يارا النجارة من أزيل؛ كانت تتبعه بعينيه وكأنها تتعلم لغة جديدة من حركات
يديه وهو ينقب على الحطب المبلل ب قطرات الندى. كل مرة يتسلط فيها خشب
صغير من بين أصابعه، كانت تلتقطه كما لو كان أثمن من الذهب. وكلما تعلمت شيئاً
أسرعت لتطبيقه. لكنها لم تكن كل المحاولات مفلحة؛ فأصابعها، التي تشبه أعواد
القطن، لم تمنحها قوة كافية لتصقل ما نقشته.

فاستعانت بخنجر ساخن، غرّته في الخشب، وراحت تحرقه بحذر. كانت آثار الحرق
عجبية، كأنها نقوش نيزكية على سطح شجرة قديمة. ووسط تلك الأمسيات الطويلة،
جلست يارا منحنية على الخشب، تتحتها بتفانٍ وعزم. وأخيراً، رسمت عليها عالماً من
النجوم، مثل ذلك العالم الذي كانت تسكن فيه في أحلامها. عالم يزخر بالحياة، لا
يشبه هذه الحياة البالية.

ورغم ضعفها، أبرمت يارا عقداً مع أزيل: أنها سوف تغير حياتهما إلى الأفضل. لكن
أزيل لم يفهم. كان يغادر مبكراً، يحمل فأسه، ليجمع الحطب من أعماق الغابة، ثم
يعرج على مكان تتفتح فيه زهور الريحان والنرجس. كان يقطفها بعناية لأجل يارا، التي
تلح عليه إلحاحاً شديداً بأن يأتي بها.

يارا، تلك المرأة ذات الروح الملتوية في إيجاد الفرح، كانت تطحن الورود كما يطحن الفلاح الخبز اليابس ليعيده رغيفاً شهياً. حولت الريحان إلى بهجة، والنرجس إلى زينة، وكان البيت يغرق بعطرها مثل معبدٍ مقدس.

لدى يارا طرقها الملتوية للعيش بسعادة. ربما كانت تلك السعادة تُغمرها عندما تعود منهكة إلى منزلها المغطى بالنقوش والألوان الجميلة، بعد جهد كبير بذلته هي وابنها الصغير. حتى زوجها، أزيل، الذي كان وجهه متعباً وملامحه قاسية، أصبح لأول مرة لا تفارق الضحكة محياه وهو ينادي اسمها عند عودته.

أصبحت الأواني القديمة الباهتة أطباقياً مزخرفة من الخشب. الطاولة الخشبية باتت تحمل سحراً ينقل من يجلس حولها إلى عالم آخر، عالم أخاذ. كل هذا من صنع يارا المتن.

جلس أزيل ذات مساء يتأمل زوجته وهي تطبخ الحساء، بينما جلس هو على كرسي خشبي جديد يشبه الحلم. حتى هو شعر أنه تغير. نظر إليها بعينين دامعتين وقال:

- أنت زوجة نجّار بارعة. لم أعرف أن لديه هذه القدرة على تحويل الميت اليائس إلى حي سعيد. أنت زوجة كادحة يا إيميليا.

إلتفتت يارا، وقد ألهبها الروائح التي انبعثت من جسده الضخم، وقالت:

- أنت وسيم على غير العادة يا أزيل، ما الأمر؟

فضحك ضحكة خفيفة، ثم مد ذراعيه القويتين وضمها بقوه من خصرها المشوق.

داعب أذنيها برفق وقال:

- لم لا تركين هذا الطعام وتهتمين بزوجك كما تهتمين بإعادة الحياة إلى هذا المنزل
البارد؟

قالت وهي تقطع الفلفل الذي جنته من حديقتها المركونة خلف المنزل:

- ماذا تريدين؟

فقال وعينيه تلمعان:

- أريدك كما لم أرد أحداً في هذه الحياة.

تنهدت يارا، وابتسمت نصف ابتسامة وقالت:

- أنت طفل مدلل يا أزيل، سوف أكمل الحسأء بعد قليل، أعدك.

ثم رمقته بنظرة تحمل موافقة خفية. عندها لمعت عيناه كمن حصل على كنزٍ. ترك
قبلة طويلة على عنقها الأبيض، وانصرف وهو يغنى بنغمة عشوائية.

- أزيل، أنت هالك! صاحت بصوت صادح.

فضحك الآخر، متجاهلاً توعدها.

وفي تلك الليلة، التم شمل العائلة الصغيرة على الطاولة التي تزيّنها الشموع الصغيرة. كانوا يأكلون في صمتٍ مفعم بالحياة. لم يتحمل أزيل هذا المشهد؛ قبض على يد زوجته وقبلها بحنان، ثم نظر إليها بنظرة استعطاف، وهو يهمس خشية أن يسمعه ابنه:

- هيا يا زوجتي المحبوبة، هيا.

عضّت يارا على شفتيها بغضب خفي وقالت:

- ابني، هلا نذهب إلى النوم؟

غادرت مع ابنها إلى غرفته، وأزيل اغتنم الفرصة. أسرع إلى غرفة النوم، نظر إلى نفسه في المرأة، فرك بيديه شعره البني، ثم نزع ثيابه ومد جسده على السرير، ينتظر إيميليا.

يارا، بعد أن نظفت الأطباق وأعادت كل شيء إلى نصابه، ظلت متسمّرة لبرهة أمام باب غرفة النوم. رفعت رأسها إلى الأعلى، وهمست:

- أهيا القدر، لترجمي.

ثم دفعت الباب بهدوء، ومشت على أطراف أصابعها وسط ظلام الغرفة. بدأت في فك
الفستان، وفجأة، لمعت عيناً أزيل من وسط الظلام. شعرت بقشعريرة تسري في
جسدها، وقالت بصوت مرتجم:

- أزيل، بحق السماء لا تخفي هكذا.

لم يصدر صوتاً، بل تقدم إلى الشمعة وأشعلها. عندها، رأت يارا جسده العاري،
فتفرست فيه وقالت وهي تحاول أن تخفي ارتباكيها:

- بئسًا لك.

اقرب أزيل بخطوات ثابتة، وقال معتذراً:

- زوجتي، هل أفزعتك؟ أنا آسف حقاً.

قالت يارا

- سوف أقتلك يا أزيل، أهيا المخادع.

قبل أزيل ومس وجهها برفق، وقال بصوت متقطع:

- يمكنك فعل ما تريدين، أيتها الأميرة المشاكسة.

تمالكت يارا نفسها، أمسكت بشعره، ونظرت إليه بحدة . كادت أن تبكي لكنها

تماسكت وقالت:

- لتعلم أنني...

لم يترك لها مجالاً للحديث، فقط أطفأ الشمعة و إرتمى نحو السرير

استيقظت يارا في الصباح، وعلى غير العادة، كان أزيل يغط في النوم مثل الكسان.

جلست تتأمله، وجهه الوسيم هادئ كطفل. همست:

- هل خوض كل المحن يجعلني إنسانة حقاً؟

مد أزيل ذراعه دون أن يفتح عينيه، طوّقها بجسدها واحتضنها. قال وهو نصف نائم:

- أنت تبكين كثيراً يا إيميليا... لم أعرف أنك قوية لهذه الدرجة.

احمرّ وجه يارا، ولكمته بخفة:

- أنت فظ أيميليا الزوج الضخم. ما دخلي إن كنت ضخماً وأنا هزيلة؟

فتح عينيه قليلاً، ابتسم وقال:

- أنت قوية رغم أنك هزيلة، كأنني أصارع قنفداً غاضباً.

وضعت يديها على عنقه وقالت:

- أنت... أنت...

ثم تنفست بعمق، نظرت في عينيه:

- لا تفعل ذلك مجدداً.

قال أزيل باستغراب:

- ماذا فعلت؟

قالت يارا بصوت منخفض:

- لا تنظر إلى بهذه المشاعر الكثيرة... أنت تنظر إلى كأنك ملكت العالم بأسره. لا تنظر.

فقال وهو يقبل جبينها:

- أنت عالمي يا إيميليا. لأول مرة أشعر بطعم السعادة. رغم أنني رمادي بائس، وأنت كذلك، لقد تغيرت كثيراً.

قالت وهي لا تفهم:

- كيف؟

أجاب:

- أصبحت مشرقة. هيا، ارجعني إلى النوم، مازال الوقت مبكراً.

ابتسمت يارا، قبّلت جبينه وهمست:

- أنت طفل مدلل كبير.

فقال مازحاً:

- أنا كذلك، هل لديك مانع؟

قالت يارا بجدية رقيقة:

- أريد التنزه.

ضحك أزيل وقال:

- في هذا الوقت؟

أجابته بعناد طفولي:

- رغم أن جسدي يؤلني بسببك، لكن أريد التنزه.

ضحك أزيل بمكر وقال:

- ارتاحي، وسوف أخذ اليوم استراحة، ونذهب حيث تريدين.

بعد تجوالهم الطويل، أيقنت يارا أنها انغمست في هذا العالم حتى تلاشت ذكرياتها شيئاً فشيئاً، لم يسرقها النسيان دفعة واحدة، بل كان يتسلل بخبيث، كما يتسلل الماء البارد في شقوق صخر جاف، لا يسمع له صوت ولا يُرى له أثر حتى يذيب الحجر. انغمست في سعادة مصطنعة، سعادة لامعة كالزجاج الملوّن، لكنها كانت تعرف في أعماقها أنها سعادة مسمومة، كشراب حلو يخفي في أعماقه سماً قاتلاً.

لقد وقعت في الفخ... الفخ الذي نصبه الحكم بدهاء. كان عقابهم ناعماً، مغلفاً بطلاء بهيج من الزهو، لكنه في جوهره سلسل غير مرئية. سلسل حديدية تغلّ يديها ورجلها، تُقيد عقلها، وتكسر روحها التي ولدت لتكون طليقة. كان العقاب الحقيقي ليس أن يُعذبوا جسدها، بل أن يسلبوا منها المثاليات التي بُعثت بها.

يارا... هي النظام نفسه، ليست مجرد امرأة. هي قلب نابض تُحرّكه المشاعر البشرية، لكن في عروقها تسري قوة خارقة تتجاوز البشر. ولدت من رحم المثاليات، لكنها حوصلت في جسد هشّ، جسد يذكّرها في كل لحظة بأنّها إنسانة خاضعة لقانون الحياة والموت.

حين تركت يد أزيل، كان الأمر أشبه بقطع آخر خيط يربطها بعالمٍ لم يعد يُشمّها. كان القرار لحظة ثورة، لا انسحاباً عادياً. انطلقت كأنّها شعلة مشت على قدمين، كأن الأرض كلّها تضيق بها وتريد أن تلفظها. أزيل بقي مشدوهاً للحظة، ثم أدرك أن ما يحصل أكبر من أن يُوقفه. حمل ابنه على ظهره وركض وراءها، لكن خطواته الثقيلة بدت كأحجار تسقط على طريق، لا تُقارن بخفة قدمها.

يارا كانت تركض وكأن روحًا جديدة تسكنها، وكان طفلة في داخلها تصرخ: "هيا، أسرعى، اللعبة ستضيع إن لم نلحق بها." كانت أنفاسها تخرج كحشرات نار، وصوتها يعلو فوق صدى الريح:

"لن أخضع! لن أُبدَّل! لن أموت في وهم سعادة زائفة! أنا يارا... أنا الكون! لن تُهزم هويني!"

قفزت من أعلى سفح الهضبة، جسدها كان كالبرق، اندفع بلا تردد، بلا أدنى خوف. أزيل شهق وهو يراها تُقذف بنفسها كطائر جُرحت جناحاه لكنه يُصر على الطيران. للحظة، غطّت وجهه ابتسامة باهتة، ضحكة عابرة حجبت فاجعةً داهمة. بدت له كطفلة عادت من السوق حاملة سمكة صغيرة وتريد أن تفاجئ بها أمها.

وصلت يارا إلى أطراف القرية، والقرية بدت ساكنة كقبر مهجور. لكن حين صرخت صرخة عالية، ارتجفت الحجارة نفسها. كانت صرخة تشبه نداءً قديماً، نداءً اندر عبر القرون. رفعت فستانها ودارت، يدها تصفع بإيقاع عجيب، كأنها تؤدي طقساً من طقوس الأجداد التي لم يُسجلها كتاب.

الرماديون، بوجوههم الجامدة وأجسادهم الراكدة، تجمّدوا أكثر. كان الأرض ربطت أقدامهم بجذورها. بعضهم فتح عينيه على اتساعهما، وبعضهم تراجع خطوة كأن رقصتها سكين تخترق قلوبهم. أصوات خافتة ارتفعت بينهم، هممات غريبة، لكن لا أحد تجرأ على التقدّم.

لم تعد يارا إنسانة في أعينهم. بدت لهم ككائن سماوي، امرأة تحكم الطبيعة بإشارة من يدها. الطيور رفرفت مذعورة، ثم عادت لتدور فوقها كأنها تشاركها الرقص. الكلاب والقطط والزواحف خرجت من جحورها لتحقق فيهم. الرياح انطلقت تدور حول جسدها. السماء نفسها تغير لونها، النجوم لمعت بجرأة وسط النهار، والشمس أرسلت خيوطاً ذهبية بدت وكأنها تمسمح على كتفها.

أزيل، الذي وقف مشدوهاً، لم يعرف إن كان يحلم أو يغرق في كابوس. همس لنفسه: "أيُعقل أن تكون هذه زوجتي؟ أيمها القدر، لا توقظني... دعني أغرق في هذا الجنون."

كل ضربة من قدميهما العاريتين على الأرض كانت كطبل عظيم يهز التربة. الأرض استجابت لها، تشققت من تحتها، الدم سال على قدميهما، لكنه لم يوقفها، بل زاد من عنفوان رقصها. ضحكت، ضحكة عالية، كأنها ملكة وجدت عرشهما أخيراً. نادت: " تعال إلى يا أزيل... تعال، هيا أهيا المجنون، أسرع... اقترب، فنحن على وشك الرحيل!"

أزيل لم يفهم كلماتها، لكنها كانت تُشد كمَا يشد المغناطيس قطعة حديد. ابنه على ظهره بدأ بالبكاء، ثم توقف فجأة، وكأن الصغير نفسه شعر أن ما يحصل فوق طاقة البشر.

السماء انفجرت. الغيوم تدافعت بقوة، البرق لمع، والرعد دوى كأن السماء كلها تُصفق مع يارا. ثم... انفتحت عين أخرى، ليست كعين يارا الأولى، بل عين هادئة صغيرة، بوابة غريبة يخرج منها نور خافت.

تدفقت الأرواح منها، أطيااف لا تُشبه البشر ولا الحيوان. وجوه نُسيت عبر الزمن، أشباح كانت تبحث عن مخرج. تهادى كل شيء في الفضاء وكأن العالم القديم خرج من قبره.

يارا لم تتوقف. رقصت أكثر، اندمجت مع زمرة العين حتى صارت جزءاً منها. جسدها أصبح كخيط نور، وصوتها صار كترنيمة مقدسة. وفي لحظة خاطفة... اختفت هي وأزيل وابنه، ابتلعهما المشهد دفعة واحدة.

سقطوا... سقطوا في عالم آخر، عالم الرمال التي تحرق، والرياح التي تعوي كذئاب، والأفق الممتد بلا نهاية. فتحت يارا عينيهما ببطء، استنشقت الهواء الجاف، شهقت من الانسراح، ثم ابتسمت. التفتت نحو أزيل، وضعت قبلة على خده، وقالت بصوت مليء بالانتصار:

"لقد نجحت يا أزيل... لقد نجحت أخيراً في تجاوز تعاسي."

"هل تستطيع هاتان اليدان القضاء على هذه القيود الحريرية يا ترى؟"

في ارتباك لم يفارق يارا، نظرت إلى الرمال الذهبية الممتدة أمامها، تلك الرمال التي ارتشفت من سيول السعادة لحظة عابرة، وكأنها تمنحها لحظة من الحرية قبل أن تنقلب المشاعر على نفسها. كان الضوء الصادر من الشمس يحرق جلدتها الرقيق، لكنه في الوقت نفسه يلمع على حواف القيود الحريرية، كأنه يحذرها من قوة متوازية داخلها، قوة لم تعرف كيف تستعملها بعد.

ثم خمد لهيب الفرحة لهزة كبرى، تألقت على إثرها عيون يارا بوميض ليلي دامس، يلمع كجمر في العتمة، كأنه يصرخ في الكون: "أنا هنا، لن تتجاوزوا حدودكم."

وقالت بصوت خافت لكنه ممتنع بالمعنى: "الوحش... أنت هو ذلك الوحش الذي صنعتك قوتي وقتلت الجميع. أستطيع رؤية شلالات الحقد تصاعد من عينيك القبيحتين".

تجمد أزيل في مكانه، وهو يعاني ابني بقسوة، يراقب صمت يارا، لا يجرؤ على تحريك قدمه، وكأن الهواء نفسه أصبح أثقل من الحديد.

الوحش العاقرة، التي ظهرت في المشهد بشكل رهيب، انتفضت لصوت الانبعاث الغامض من حنجرة يارا، ولم تدرك أنها أطلقت صافرة العودة، لا تدعوا شيئاً بل هي مجرد إعلان عن قدمون قوة لا يمكن كبحها. الصحراء كلها، تلك الأرض الدابلة والخالية من الحياة، بدأت تهتز، الريح بدأت تعوي، الرمال ترفرف في الهواء كأنها تجذب على نداء يارا.

يارا لم تكتفِ بالمراقبة، بل تقدمت بقدميها الملطختين بالدماء الحارة، الأرض تحت قدمها تزمر، والرمال تتشقق كأنها تحت ضغط قوة لم يعرفها أحد من قبل. الوحش لم تبد ردة فعل عدوانية، فقط صمدت في أماكنها، تنتظر أن ترى ما سيحدث.

في تلك اللحظة، شعرت يارا بأن السعادة التي كانت تعتملي وجهها هي مجرد قشرة رقيقة، سرعان ما انفصلت عن وعاء جسد إيميليا بطريقة بشعة. لم يكن الأمر مؤلماً فقط، بل كان يشبه الانفجار الداخلي، حيث اندفعت الطاقة الكامنة بداخليها إلى الخارج، وخرجت من أصابعها مخالب حادة كسيوف، قطعت القيود الحريرية التي تربطها بالجسد دون عناء.

الوحوش، التي كانت في انتظار أي إشارة، راكعت، والسماء نفسها بدأت تمطر لأول مرة منذ قرون، قطرات الماء تساقط ببطء لكنها تحمل معها قوة خفية، كأن الكون كله يشهد على ولادة قوة جديدة.

خرج أحد الوحش العاقرة ليتهم يارا، لكن في لحظة خاطفة، فصلت رأسه الأسود عن مكانه بإشارة من إصبعها، كأن قوة إرادتها وحدها قادرة على تنفيذ هذا الفعل. شعر أزيل بالغثيان، قلبه يرفض ما يراه، لكنه عاجز عن التحرك، جسده مسلول أمام هذه القوة، وعيناه تلتقطان كل وميض في شعر يارا المتوج كأنه خطوط من الحمم، وعيناها الزرقاء تلمعان بوميض مخيف يخترق الظلام.

ثم تنفست، وقد خرجت قدماها من فم إيميليا، التي عادت فجأة إلى جسدها المعتاد، لكن أزيل بقي مذهولاً من مظهر يارا، جسدها المملوء بالتعاوين، كأنه ختم، يلمع بوهج غامض يربط بين السماء والأرض، ويعلن عن سيادة قوة جديدة على هذه الصحراء المتعبة.

منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها يارا بالرقص في أرض الرماديين، ختمت إنسانيتها، وأصبحت السجية الغرائzie هي التي تحكم الموقف. لقد دنسـت الروابط، دمرـت القيود، وأهـلـكت نصف شـعب الزورـا بهـروـبـها، تـارـكـة وراءـها الـخـرابـ والـفـوضـيـ.

ولـكنـ، عـلـى الرـغـمـ مـنـ كـلـ ذـلـكـ، لـمـ تـزـلـ يـارـاـ تـنـفـسـ السـعـادـةـ المـجـنـونـةـ، شـعـورـهاـ بـالـحرـيـةـ تـجـاـوـزـ كـلـ الـأـلـمـ، كـلـ الـذـكـرـيـاتـ، كـلـ الـقـيـودـ الـتـيـ حـاـوـلـتـ كـبـحـهاـ. لـمـ تـعـدـ تـبـحـثـ عـنـ الـإـنـسـانـيـةـ، بـلـ أـصـبـحـتـ مـهـمـتـهاـ الـوـحـيـدـةـ إـنـقـاذـ الشـطـاـيـاـ الـتـيـ خـلـفـتـهاـ.

في تلك اللحظة، اندمج العالمين، العـوـالـمـ الـتـيـ كـانـتـ تـعـيـشـ فـيـهاـ الرـوـحـ وـالـجـسـدـ، وـبـدـأـ الـخـرابـ يـتـسـرـبـ فـيـ كـلـ مـكـانـ، إـلـاـ أـنـ قـوـةـ يـارـاـ، مـدـفـوـعـةـ بـالـغـضـبـ وـالـحـمـاـيـةـ، بـدـأـتـ تـرـوـضـ الـوـحـوـشـ، وـاحـدـةـ تـلـوـ الـأـخـرـىـ. كـانـتـ تـحـرـكـهاـ الطـاـقـةـ الـخـالـصـةـ، صـرـخـةـ الـصـحـراءـ كـانـتـ تـعـكـسـ قـوـتهاـ، وـكـلـ حـرـكـةـ مـنـ مـخـالـبـهاـ كـانـتـ تـرـسـخـ سـيـطـرـتهاـ عـلـىـ الـوـاقـعـ نـفـسـهـ.

أـزـيلـ، عـلـى الرـغـمـ مـنـ أـنـهـ مـسـلـحـ فـقـطـ بـفـأـسـ خـشـبـيـ ضـعـيفـ، حـاـوـلـ مـوـاجـهـةـ الـوـحـوـشـ، لـكـنـ سـرـعـانـ مـاـ أـدـرـكـ عـجـزـهـ، وـعـلـمـ أـنـ يـارـاـ وـحدـهاـ هـيـ الـتـيـ تـسـتـطـعـ الـحـفـاظـ عـلـىـ التـواـزنـ بـيـنـ الـفـوضـيـ وـالـقـوـةـ. وـحتـىـ جـوارـاـ، الـذـيـ حـاـوـلـ التـدـخـلـ، وـقـعـ ضـحـيـةـ لـهـجـتـهاـ وـحـضـورـهاـ الـمـهـيـبـ.

في لحظة حاسمة، جمدت يارا الوقت، توقف الجميع، باستثناء كون الذي اكتسب قدرة التأقلم مع هذه القوة الغامضة. التفت إليه بنظرة عميقة، وقالت: "كون، ماذا فعلت بجوارا؟"

نظر كون إليها بحدة وقال: "أنت ملعونة، و بسبب غبائك قد تم لعننا جمیعاً، أيتها الأنانية".

أجبت يارا بصوت هادئ لكنها حازم: "آسفة، لأنني خلقت بطلة لعالم مدمر سلفاً، والآن، لتخبرني عن أمر السماء."

غرس كون سيفه في الصحراء، وأخذ ينزع الرباط عن معصمه، وقال: "لقد لعننا معك. لقد عوقبنا لأننا تخطينا الحدود بسببك."

رأت يارا التعويذة التي تشبه تلك التي تملكتها على جسدها، وعرفت أن ما حدث كان بداية مرحلة جديدة، مرحلة تتطلب إعادة ترتيب كل شيء.

وقال كون: "نحن مجبورون على إصلاح هذا الخراب خلال عام واحد، وإلا سيختفي كل شيء. ليس هناك فرصة أخرى، يا يارا، ليس هناك فرصة للهروب مرة أخرى".

يارا نظرت إلى السماء، التي امتصت اللون الغريب، بين الظلام الذي لم يكتمل والنور الذي لم ينجل، وووجدت نفسها واقفة وسط قوة لا تقارن بأي شيء عرفته من قبل.

تواصل عتاب كون ليارا حوالي ساعة كاملة، كان العتاب يموج في الهواء كأمواج بحر هائج، ممزوجاً بالشوق والحزن الذي لم تستطع الكلمات وحدها حمله. كانت نبراته ترتجف أحياناً بين القسوة واللطف، وبين الغضب والحنين. وفي لحظة صمت قصيرة، تنهدت يارا بعمق، ثم رفعت رأسها وأمعنت النظر في عينيه، عيناه اللتان كانتا كمراة تعكس ماضيها وحاضرها ومخاوفها الكامنة. ابتسمت ببهجة طفولية، وكأنها حاولت أن تهزم ثقل اللحظة، وقالت:

- أبي، لقد إشتقت إليك كثيرا.

ارتسم الارتباك على وجه كون للحظة، لأن صدى الكلمات أصابه بلا توقع. نظر إليها بعينين تتقاذف بين الدهشة والحدر وقال:

- أنت فتاة شقية... أخبريني، أين رحلت بعد أن ابتلعتك العين؟

حدقت يارا بأزيل، المصدوم حرفياً من حالة يارا الجديدة، وزوجته المغمى عليها بجانبها. تسلل إلى زوجته برهبة، محاولاً فهم ما يحدث، لكن يارا لم تتراجع. انحنت وجدبت ذراعه نحوها وقالت:

- آسفة لـإقحامك في هذا الأمر يا أزيل.

ارتعدت شفتي أزيل، واحتدمت دهشته إلى حد أن عينيه اشتعلت بالدهشة بعد صرخ ابنه الذي مزق الصمت. قال بصوت متردد:

- من أنت، ولماذا زوجتي هناك، وكيف...

أسكتته يارا بهدوء لكنها محملة بالثقل، وقالت وهي تتنفس:

- أنا من هذا العالم، كنت معاقبة من قبل الحكام الكونيين، وقد احتجزت في جسد زوجتك. لكن لا تقلق، هي بخير، وعما قريب سوف تعود إلى موطنك.

ثم شد أزيل يد يارا بقوة، وهو يحاول فهم الموقف، وقال:

- لكن كيف أن أسحب معك إلى هذا العالم؟

قبل أن تنطق يارا بالجواب، استيقظت زوجة أزيل بصوت متقطع، ملؤه الارتباك والقلق:

- أزيل، لماذا ابنتنا يبكي، وأنت...

اقربت يارا منها بلطف، مسحت على عينيهما لتففو ثانية في نوم عميق، مثلما استسلم أزيل للدهشة وشحب وجهه من الصدمة. لم يعرف عالم الرماديين قط مثل هذه الحماسة، حيث يسود الجمود والبرود على كل شيء.

ثم نظرت يارا إلى جوارا، صديقها، وقد صعقته بضربة من البرق لم يشعر بالألم، بل كان الوخذ كرمز استدعاء لذكرياته الغابرة. لم يلبث أن تذكر شيئاً، همس باسمه:

- يارا...

فرحت يارا، وابتسمة واسعة ارتسمت على وجهها وهي تعانقه بحرارة:

- صديقي الجميل.

ثم رمقت كون بنظرة ساخرة حادة، وقالت:

- هل تعمدت طمس هويتي عنه يا أبي؟

أجابها كون، بنبرة نصف مزحة ونصف جد:

- لو أنك كنت أكثر فطنة وذكاء فقط.

ابتسمت يارا بصرامة، وقالت:

- كفانا هراء يا أبي، أنا عدت لهذا السبب. وحسناً، كما سمعتني سابقاً، كنت معاقبة لهربي وقد نلت جزائي، والآن لتخبرني، من هذا الصعلوك الواقف هناك خلف الوحش؟

أدرك كون وجود غابرييل، وأجاب باهتمام:

- إنه ابن أخي الشرير.

قالت يارا بدهشة:

- ابنه ؟؟؟

أجابها كون:

- نعم، لحسن حظه لا يعرف من أباه، وإن كنت قتلتـه... وجدته عالقاً في أحد فخاخـي... المسـكين حسـبـها طـعامـاً يـؤـكـلـ.

ثم نادـا غـابـريـيل بـصـوـتـ عـالـٍ:

- هـيا، سـنـذـهـبـ!

أشار كون إلى يارا وقال:

- يجب أن ننـقلـهـمـ إلىـ مـكـانـ آـمـنـ،ـ لـمـاـذـاـ لـاـ تـرـكـهـمـ فـيـ الـحـجـرـ؟ـ

ردـتـ يـارـاـ:

- لكنه بعيد...

قاطعتها عين كون بحدة:

- اخرسي، وامشي أيتها المتكاسلة. كنت تلهين في الأرجاء بغباء، والآن تقولين إن المكان
بعيد!

أمر كون غابرييل بحمل الأشخاص على ظهر العنقاء الصغير، صغير العنقاء التي
قاتلها كون وقتلها الرون. ارتفع المخلوق بجناحيه المغطاة بالجليد نحو السماء والتي
لا تزال تثير مخاوف يارا. فجأة، ظهر ظل خفي من بين الكثبان، متوجهاً صوب أزيل
الفاقد للوعي. شعرت يارا بطاقة الشيطان، وقالت:

- بئس، قد تحرر هذا القبيح من الزمن!

قال كون، بعينين جامدتين:

- لقد تحرر منذ أن تداخل العالمان وتم الدمار.

أخرجت يارا الأسواط من يديها، محاولة إصابة الشيطان، لكنه كان سريع الحركة. برمثة عين استولى على أزيل وأنزله إلى الأرض، محدقاً بيارا بابتسمة واسعة، ثم مرر مخالبه الحادة على وجه أزيل، فتشوه بكماله.

خاف غابريال على البقية، فأمر العنقاء بالتحليق بسرعة. صرخت يارا بقوة، لكنها كتمت غضبها لأنها تعرف أن الشيطان يسعى لاستفزازها. قال بصوت خشن:

- مرحباً، يارا البديعة... هل اصطحبت من سجنك الغريباء إلى عالمنا أيتها المختارة؟

غرس ما تبقى من مخالبه في قلب كون الذي مات، ثم اقتلع عينيه ورماهما في الرمل، وبدأ يلعق الدماء المتصببة من وجهه، ممتصاً أرواح المارة.

ثبتت يارا في مكانها متماسكة، ثم أطلقت من الأرض أشواكاً من نار، غرستها في باطن قدم الشيطان الذي تأوه بصوت عميق، ثم اختفى داخل الأرض. أرادت يارا اللحاق به، لكن كون أوقفها قائلاً:

- هيا، أرجوك، ستتجمع الوحوش هنا قريباً.

ظل الجميع يرکضون، وارتبطت في ذهن يارا صورة الدم والموت الذي لم يفارقها. فجأة، حل الليل عليهم دون إنذار، وتعالت أصوات الأرواح التي فقدت نجوم السماء، كأنها صرخات حادة تمزق الصمت.

أطلقت يارا صفيراً حاداً من حنجرتها، فجأة انتقلوا جمیعاً إلى الحجر الذي كان يختبئ فيه كون وابنه غابريال من هجوم الوحش.

كان جسد يارا عارياً إلا من قميص كون الذي أعاره إليها. ظل جوارا يحدق فيها، والأسئلة تغلي في رأسه، لكنه فضل السكوت. نظرت يارا إلى زوجة أزيل وابنه الممددين على الحصير وقالت:

- هذا فقدان سيسبب لهم صدمة، لكن ما العمل؟ سوف تستمر الحياة... يجب أن أعيدهما الآن.

أرادت الخروج، لكن كون منعها، ومع ذلك أصرت بإصرار شديد، فأمر غابريال العنقاء بحراستها.

خرجت يارا، وشاهدت السماء تتلاألأ بالنجوم، خاوية من أي تعابير، وأصوات الأرواح التي تنحب غاضبة. وقفت، رفعت شعرها، وبدأت ترقص. كانت الرمال تغطي قدمها،

تمايل كغصن الزيتونة، حتى التفت حولها وميض سرى نحو الابن والأم، وقالت وهي تلهم:

- عودة إلى الوراء دون عناء ودون شقاء، لتعود الأجساد إلى ترابها، هيا أيها الكون، أعد القطع المبعثرة إلى طريقها، إلى السلام، إلى العافية، والطمأنينة.

ارتجلت الأرض تحتها، وصراخ الأرواح اشتد حتى أصم الأذان. فجأة احتفى الشخصان، وسقطت يارا مغمى عليها. ظلت العنقاء تداعب خصلات شعرها بينما هي نائمة.

حل الصباح فجأة على صوت تثاؤي غابريال، لكن الأمر كان غريباً، فهم ليسوا في الحجر، إنهم في الخارج. قالت يارا، مصدومة:

- كون؟

التفت إليها، وارتسمت علامات الدهشة على وجهه، وقال:

- يارا، أنظري... نحن كنا في الصحراء، فما بال هذه الأبنية؟

أحسست يارا بالسماء تجذبها إلى الأعلى، وما إن وصلوا إلى الأعلى، رأى غابريال شيئاً،
لكن رأسه ارتطم فجأة، فأغشى عليه.



?

تداعت الأبنية و سحقت الجماجم المشوهة تحت ضغط سماء الصحراء
كل ما هو موجود بدأ يطير و حتى يارا التي حاولت إعادة الثقل لم تستطع
هناك كيان خفي يحاول محاصرتهم عنوة بين السماء الحانقة والأرض الضحلة
صرخ غابريال بأقصى طاقته و هو يوجه قوسه على هامة سريعة الخطى تتجه نحو
جوارا و لكنه أخطأ الهدف بسبب طوفانه في الهواء و تباطأ حركة قوسه الكبير
فصعق جوارا لأن يده السليمة قد تحدرت تماماً أما يده الأخرى فلا يستطيع التعويم
عليها لأنها مبتورة لم يجد بدا فهرب متوجهها نحو يارا و غابرييل و لكن كون لم يكتف
بالمشاهدة فحسب فقد حاول بكل قوة التخلص من ثقل تلك القوة و بصعوبة
تحررت قدماه و نزل على الأرض التي تبعت منها طاقة هوجاء تشبه البرق
ركض غير مبال بالألم نحو هامة التي هي مزيج قبيح من المورون و الوحش العاقد

قالت يارا وهي تعض على شفتيها: ذلك الشيطان الوغد
و قال جوارا وهو مذعور: أبي توقف هذا الوحش أخطر مما قاتلناه قبلًا
لكن كون لم يستمع ولم ينتبه بأن ذلك المزيج البشع يخلف خلفه ثقباً سوداء
كبيرة... مهمتها إبتلاع الأحياء و تحويلها إلى شياطين

غبرياً الذي صوب سهمه المكسور المتبقى بكل يأس على حقل الطاقة الذي كان
الوحيد الذي يراه... و قال و الدم يتصلب من رأسه الذي إرتطم إثر الرجفة المفزعية
من الأرض و السماء و لكنه قبل أن يطلق قال ليارا: أرجوك فعلمها أرجوك أنت أملنا
الوحيد يا يارا الوحش سوف تتكاثر و سوف نهلك

يارا لم تستطع الإستشعار ب بصيص واحد من قوتها لقد إستنفرت
نظرت يارا إلى غبرياً بشفقة و قالت: قوتي نفذت
صرخ غابريال صرخة إخترقت أذان كون الذي إنتصب مذهولاً أمام فم غائر بالسوداد
و أنفاس أشبه بالسيوف المدببة و قال غابريال: مستحيل يا يارا هذا مستحيل.. أنت
فقط متعبة لا تتركي الفشل ينهشك.. أنت قادرة... أنت الكون و الكون كله فيك لا
تذعني لخيبيتك لا تنظري إلى الجروح فقط إنظري إلى الوجوه التي تحبك و التي ضحت
جاهدة و ببسالة قدمت أرواحها فداء لك لكي تزهري لذلك إستشيطي غضباً و
إصرخي لتسمع الذرات النائمة خطواتك فأنت السيدة الوحيدة التي نستطيع بشرف
و فخر ان نموت لأجلها

قال غبرياً هذه الكلمات الحامية ثم صوب سهمه نحو حقل الطاقة الذي يشد هم
فمزقه لكن ذلك لم يكن كافياً فسقط غابريال أرضاً و لكن يارا مازالت تتخططها
المشاعر و الكلمات الساخنة التي تحرق صدرها الملئ

فصرخت كمن يستنجد شخصاً ليصفعها و يوقظها من صدمتها قالت و هي تبكي:
سوف أنقذكم يا أصدقاء ولو كان هذا آخر ما أفعله لن يموت أحد سمعتم لن
يموت فقاتلوا يا شجعاني قاتلوا حتى ينهض الظلام مجدداً قاتلوا

خلف هذا الصوت اهتزت العزيمة في قلوبهم الصلدة و شد كل واحد على سلاحه
غابريال بسرعه توارى عن الأنظار ليقفز عالياً فوق رأس الوحش الضخم محاولاً
دس قوسه المسموم في عينه التي تنتشر في كل مكان لكن ذلك لم يفلح و لا حتى
طعنات كون القوية التي سددها داخله

كون و في خطوة جريئة قفز إلى داخل فم الوحش لكن سيفه الفضي قد أحاطه
بطاقة تحميء من لعاب الوحش السام و قال كون بقرف: هذه الرائحة كريهة
لكن فجأة إمتلاء الفم بأشواك حادة و بدأ الفم يطبق على جسد كون لكن فجأة ظهر
جواراً الذي أمسك أباه و إنتسله بسرعة خارجاً
ظل كون يلهث و أنفاسه تتقطع لكن الوحش لم يمهلهم...

الثقوب السوداء تلاشت من خلفه لتظهر أمامهم... غابريال الذي رأى ما أفظع من
خلف الوحش أسراب من الشياطين المخيفة قادمة و قال وهو يتصرف عرقاً من
الخوف: يا جماعة الرون في خطر محقق سوف سوف نموت هنا

يارا التي طوقت نفسها بذكريات حزينة

موت أمها الذي أنهكها و أباها المنتحر و كل المغامرات المميتة التي أذابت إنسانيتها و
كل الفوضى العارمة التي أقحمت نفسها فيها و كل ذلك جعلها تجن للحظة فإهتز
حقل الطاقة فجأة ثم تفتت و تساقطت الحجارة من بينها ثم رفعت رأسها و عيونها

تلتهب حقدا و قالت و الشيطان أمامها مباشرة: لن تحصل على ما تريده أيها الخبيث
و قال وهو يمسح على شعرها و ينظر إلى جسدها المكدود و إختلط صوته بصوت
إمرأة مألوفة: إبني إبني

فإرتسمت على وجه يارا إبتسامة مفرغة ثم قالت: أعرف أنك إمتصصت أمي بعد أن
أخذني كون و في كل مرة و في كل حياة كنت تقف لي بالمرصاد حتى أفقد آخر قطرة
من صبري هل وصل بك الهدىان أن تخيل أنني سأصبح شيطانة و تمتصني أيها
المغرور ثم إقتلعت أعينه بطريقة وحشية و رمتها على الرمال الذهبية و بصقت على
وجهه الكريه و لكنه تمادى و غير من شكله ليظهر بجسده أزيل المشوه ثم دون إنذار
صفعت يارا وجه الشيطان الذي تغافل للحظة و شعر بسيف يخترق بطنه فالت
إذا بكون يغرس السيف بقوة من خلفه لكن الشيطان لم يبد أي ردة فعل ثم نظر
إلى يارا براحة و طعن كون في كتفه حتى تهافت و سقط أرضا

كانت تلك الطعنة مسمومة و أيضا كافية لتحويله إلى شيطان

يارا و بكل غضب إندفعت نحو الشيطان و أسواط من برق قد إلتفت حوله ثم فجأة
رجع الشيطان إلى هالته الأصلية... إمرأة شعرها أبيض و نصف وجهها مشوه و
جسدها ممشوق

كون وهو يتصارع مع هذا الألم نظر بصعوبة إلى تلك المرأة فتذكراها إنها تلك التي رأها
في الصحراء في ذلك المكان لكن الألم بدأ يشتد على كون ثم تغيرت معالم وجهه و بدأ
يستفرغ دما و روحه خرجت فجأة و طفت حوله و كان شيئا قد إحتل مكانها

صرخ كون صرخة إرتعب منها كل من جوارا و غبريال اللذان يقاتلان الوحش بإستماتة
فكلاهما قطعا جزءا من جسده أعاد تجديده و كلما صنع غابريال سهما من ألسنة
نيرانه تجمدت بفعل الصقيع.. و جوارا الذي إنتبه لأذين أبيه لكنه فجأة سقط في ثقب

أسود قد إبتلעה لكن جواراً أمسك بصخرة كانت موجودة هناك لكن يده اليسرى لم تساعده فحول طاقته إلى قدميه وأراد القفز وفي آخر لحظة توجه إليه غبريال وأخرجه

كان صراغ كون يملأ الفضاء كأنه يتقطع و يتعدب من قبل شخص ما كون و الذي يحاول عدم الإنجراف مع روح الشيطان لكن طاقته كانت محدودة لذلك إشتد به الألم أما يارا التي بالكاد إستطاعت تمالك غضمها فوجهت طاقتها نحو الشيطان الذي إستقبلها بكل سعادة و قال بكل هدوء مستراب: يارا أنت مشاكسة و عنيدة مثل أسلافك و حتى و إن قتلتني فإن شعبي سوف يعمر هذه الأرض الجرياء سأكون سيداً مثلك يا سيدة الكون الصغيرة

أحرقت يارا جسد الشيطان فتحول إلى أشلاء سوداء و تطايرت منه أرواح مختلفة منها 100 خنزير و لا يشبهون حتى الخنازير و أرواح أطفال مقطوعي الرأس و نساء يحملن أرحامهن و امعائهن في أيديهم و كانت الذكرى الوحيدة التي خلفها هي صرخة ضئيلة لكنها مشبعة بالكراهية و مجموعة من الشياطين تزحف نحو حدود الرون.. الرون و بكل قوتهم أحاطوا شلال السيرون و صنعوا سوراً بجسادهم الضخمة لأن لديهم يقين إذا لمست الشياطين هذه المياه سوف يتغير العالم و يصبح ملكهم و سوف تتغير قوانين العالم و هم أيضاً سيختفون و فهذا الشلال يبسط جذوره في كل ذرة موجودة في كل العالم و كل شخص ينتهي إلى هذا الشلال بطريقة أو أخرى لكن ما يأملونه أن تعود يارا التي واجهتهم آخر مرة بصرخة مخزية.. يأملون عودة سيدتهم التي سوف تحمي سبب وجودهم

يارا من الجانب الآخر نظرت إلى كون الذي يتلوى و يتلون بألوان غريبة و جسده بدأ في إتخاذ هيئة الشيطان

جلست يارا حذوه وأمرت غابرييل و جوارا أن يفصلوا هذا المكان بحاجز حتى تستطيع تجميع طاقتها التي إستهلكت في القتال لكن جوارا و غابرييل كانت طاقتهم قد نفذت لذلك أشرت عليهم بسيف كون المد بجانبه و قالت لهم: فقط نادوا بإسم أخي سوف يمنحكم قوة لجعل الأرض هاوية يجب أن أستعيد قوتي لشفائه هيا هيا

غابرييل أمسك السيف بكل حزم و تقدم خطوات بسيطة و فعل ما أمرته يارا لكن الوحش أطلق موجة من الطاقة أصابتهم بالخمول فإرتعشت أقدامهم لكن غابرييل ضرب الأرض بكل شهامة و صرخ بإسم أخي يارا. قال : يا أيتها الروح المقاتلة إقسمي هذه الأرض

فإرتعشت الأرض من تحتهم ليظهر جرف عميق و في داخله حمم تغلي لكن الوحش ما إن أحس بوجه الطاقة أطلق صوتا يشبه العواء و توقف ثم سبقة الشياطين بجنون متوجهين نحو الحاجز...

ويارا التي أخذت نفسها عميقا و إنتهت من إدخار قوتها ووضعت يدها على صدر كون و قالت: لتهديني أيتها الروح لتهديني..إذهب إلى جحيمك و إقضمي بأسنانك الجمر و إشعري بطعم الصدا الذي سينهي الخلود

إنبعث من جسد كون ذراع لهيكل عظمي مشوه تنهشه الديدان كانت تلك روح الشيطان ذاته الذي ظنت يارا أنه إستسلم

تلك الذراع أمسكت بعنق روح كون و أخرجت صوتا يصم الآذان: الظلام يسود الوديان و النور مهجة الغزلان

ثم أخرج رأسه الكريه و نظر إلى يارا التي لم تتحرك ساكنة و قالت له: أنت داهية كبيرة حقا أظننت أنني لم أحسب هذا ثم ظهرت على عينيها تعويذة و تغير لونها إلى

لون الفضاء السحيق و قالت بصوت إمتزجت فيه أصوات السابقين واللاحقين : أنا الكون البعيد الذي يرسل اليمام إلى الأعشاش و أنا الضعف المهين الذي تتلذذه الغريان و أنا روح جياشة تعشق السباق

أنا النور و الظلام أنا التي أنهيت العالم بدموع عابرة و برقصة غجرية مهاجرة أنا و أنت مختلفان و أنا و أنت منصهران كصميم الواقع و الخيال

أنا الإننكاسة و أنا الشاهد الوحيد على الفناء..جسدي آدمي و عقلي بستان من أزكي الألوان

ثم إرتجفت الروح و إنسلخت من جسد كون و دخلت إلى فم يارا الذي إتساعا غريبا و قبل أن تمتصها حشرت يدها في صدرها و أخرجت حجرة رمادية و قالت: أنت تحب النهايات المسؤومة صحيح

ثم دعست رأسه بيدها و إمتصته ثم وقفت يارا و جمدت الزمن لكن الغريب أن الوحش لم يتأثر نظرت يارا بحدة خانقة نحوه و قالت: هذا لن يحل سريعا ثم إختفت فجأة فإستغرب غابرييل و جوالا اللدان ظل يراقبان سقوط الشياطين نحو الجرف العميق و الوحش جالس بهدوء مخيف فاغرا فمه الذي تظهر منه مشاهد لكوراث أخرى قادمة

يارا التي حلت على أرض المورون تبحث عن ذلك المورون الذي إلتقت به قبل هروبها من هذا العالم لكن المكان مهجور ألا من لسع البرد..الأرض باردة برودا غريبا و الحجارة ملطخة بلون زمردي كأنه دم لكنه مختلط بسواد بشع

أدركت فعلا أن المورون قد خاضوا معركة دامية مع أشياء خطيرة أودت بجل سكانهم لم ترى أحدا في الجوار فنادت بأعلى صوتها نداءا يشبه صافرة عودة كما التي أطلقها عند حلولها إلى هذا العالم ثم قالت: أيها المورون إظهروا أنا يارا هيا

أغمضت يارا عينيها لعلها تستشعر طاقة ما لكن هناك شيء يتذبذب لكنه بالكاد يظهر...طاقة منهكة وفتحت عينيها لترى حارسا من المورون واقف أمامها بطوله الرقيق و جسده مغطى بالنذهب و ووشومه زادت على غير العادة و عيناه إحداها غير موجود لكنها لمست قدمه النحيلة في مشهد حزين و إنحنى المورون نحو يارا و قال بصوت مهموم لكنه غريب: نحن ميتون أيتها المختارة لقد ماتت عزتنا و كرامتنا بعد رحيلك لذلك لا ترحلني و تتركي أرضك جائعة أرجوك

كان ينظر إليها بإنكسار

و عصفت في رأس يارا ذكريات حياتها الثانية ثم أبعدت سرب الذكريات و قالت بصوت عال: الشياطين سوف يستعمرون شلال السيرون يجب أن نردعهم يجب أن تركوا هذه العزلة أرجوكم يجب أن نذهب إلى الشلال و نحميه

ثني المورون ركبته ووضع رأسه على الأرض وأطلق زفيرا مدويا إنتفخت من خلاله الأرض الجائرة و انتشرت كذلك صرخات الآخرين من المورون لكن تحت الأرض رفع المورون عينه نحو يارا: لقد أكلت الوحش نصفنا و دمرت أعشاشنا و السبيل الوحيد لتكاثر نسلنا لقد أخذوا كل الفقاعات المائة و إبتلعواها و أخذوا سيدتنا الوحيدة لقد إنتهينا منذ أن رحلت و نزلت دمعة لونها كلون الليمون الحامض على الأرض الباردة فتصدعت و أخرجت وردة سوداء

مسحت يارا عيون المورون التي إنكسرت مكانهم بسببها و بكى لبكائه و أرسلت من خلال الحجر الرمادي و ميضاً أسود أخرجت به كل المورون الذين إصطفوا ب أجسادهم البيضاء و عيونهم الحزينة أمامها كجيش يتيم و قالت وهي تبكي: أنا آسفة آسفة و ربما اعتذاري لن يعيد حياتكم و لا هذا العالم و لا حتى أي شيء لقد عشت معكم و أعرف أنكم طيبون لكن أرجوكم ساعدوني..منذ أن هربت من مصيري و الكوارث تلاحقني لذلك لا ترکوني وحدني هذا العالم سيدهب و كل ذكرياتي

فأنتم أهلي و دمي و لحمي و عظمي لذلك لذلك أرجوكم إذهبوا معي الجميع
سيحارب لأجل التوازن و أنا هي التوازن لكن بدونكم لن أغدوا أي شيء

تقدم الحارس بثقل و حمل يارا بين ذراعيه و قال بنبرة تعيسة و حكيمة: سوف
نساعدك أيتها المختارة لذلك لا تحزني لقد عشنا طويلا مع أسلافك من البشر
القدامى لذلك نحن نفهم ما تمررين به

و نظر إلى الجميع بعينين لامعتين و قال: لتفرقوا نحو الرون و إحملوا الصقير
معكم هيا

فرحت يارا لإبتسامة المورون الذي أنزلها و تفرق جمع المورون ليتخذ كل واحد طريقا
إلى الحدود

ويارا التي لحقت بهم بكل عزم
وفي الجانب الآخر كون إستيقظ و عظامه تؤلمه لكن ذلك لم يمنعه من إستشعار
الصدمات التي تسرى تحته فنظر إلى جانبه ليرى ابنه و غابريال أمام الحاجز و قد
تصدع لهجوم الشياطين

لم يكن بإستطاعتهما المضي دون أن يستيقظ و لأن قواهما قد خارت بالفعل لم
يتمكنا من حمله كل هذه المسافة فمكث يراقبان الشياطين و قد بنت بينها و بين
الجرف جسرا بأجسادها و تمكنت من الوصول إلى الحاجز الذي بدأ يعزز صدمات
متتالية لمنع التجاوز

و كان أخو يارا قد جمع كل أرواح الصحراء معه و بصورة مدهشة كانت أم يارا بينهم
تتقدّمهم و لكن عندما علمت بإستيقاظه كون قالت بصوت خافت وهي أمام الحاجز:
كون يارا متوجهة مع المورون إلى شلال السيرون إنهم ضوا إلى هناك نحن سنتكفل
بإيقافهم حتى تصلوا

و دبت اليقظة في أعصاب كون و نهض و أمر إبنه و غابريال باللحاق به لكن فجأة رأى كون شخصا مألفا تفادي الصفوف الشيطانية بكل برود يمشي بكل آنفة و عندما دقق النظر قال بنبرة ساخرة: أخي الملعون

?

أمسك كون بيد غابريال بقوة، وعيناه تتقدان بالغضب، كأن نارا داخلهمَا تكاد تشتعل. قال بحدة: "إسبقني أنت، وجوارا سوف الحق بكمًا".

رد غابريال بصوت متوتر و مليء بالقلق: "هذا خطير يا كون، كما تعرف الحاجز سوف يتداعى عما قريب".

صفع كون غابريال على خده بضربة قوية ارتجت معها ملامحه، وقال بغضب يشبه انفجار البركان: "هل أنا من النوع الذي يرضي بالموت؟ نهاية! هيا، إركبا الطائرة وانصرفوا، ولا تنسى معالجة جروح جوارا، يجب أن تتبعا أثر يارا وتساعداها!"

انصرف جوارا وغابريال على ظهر العنقاء التي بسطت جناحيها العريضين كشراع متموج يلمع تحت ضوء الشمس الحار، تاركين خلفهما غبار الصحراء الملتافي كالغيوم.

نظر كون بسخط نحو أخيه الذي تحاشى كل الشياطين، وتقدم بخطوات ثقيلة وملينة بالقدارة، وقال مستهجنًا: "بئس لهذا الأرعن الأخرق".

مد ويل يده عبر الحاجز بسهولة، وكأن الجدار لم يكن سوى هواء، ثم أمسك بشعر كون وأسقطه على ركبتيه. كان الاحتكاك الذي أصدرته أسنان ويل قويًا ومكثفًا، كأنه بركان على وشك الانفجار. قال ويل بصوتٍ مزيج بين التهديد والتحدي: "أخي الشجاع... لقد حذرتك سابقًا من عدم التدخل في ما لا يعنيك، أين هو ابني أيها الجبان؟"

قاوم كون قبضته المتشبّثة بشعره، ووقف مصوّبًا نظراته الحزينة المملوّة بالنكران، قائلًا: "لا أعلم، وإن كنت أعرف لأخذت روحه، كما سأفعل الآن بك، أيها الخائن..."

استل كون خنجره، مصوّبًا إياه نحو حنجرة أخيه، الذي تجمدت تعابيره وتحولت إلى تعابير بومة صامتة. كان كون يرى بوضوح حالة أخيه القدرة، السوداء والشرسة كاللليل المظالم، لكن لم یهتم كون بقوة أخيه، فهو يعلم أنها مستوحةة من الشيطان ذاته.

رفع كون قدمه، وركل ويل في بطنها مباشرة، لكن سرعان ما تحول وجهه إلى لون الدخان الضبابي، وذرف من عيونه سائل يشبه الياقوت.

ضحك ويل ضحكة شديدة، أشعت الشر في عينيه، وقال: "أنا سأحكم العالم يا أخي، سأكون سيدكم، شئتم أم أبيتم".

ثم في سرعة خاطفة، رفع ويل يده، ومن خلالها انبعث انفجار اخترق السماء المتعكّرة، متمازجاً بألوان شيطانية قاتلة. هرع كون بكل قوته إلى الأمام، وهو يئن لنفسه: "بئسا... لقد أطلق تلك القوة الكامنة بسببي، ستدمّر الصحراء على هذا النحو".

فجأة، ظهر شخص أمامه. شهق كون: "ماذا تفعلين هنا؟" كانت تاتا، رافقتها مجموعة من قوم زورا، تجسّدوا كأبطال قادمون لمواجهة الخطر الداهم على الصحراء.

لكن كون صرخ عليهم، موجهاً أوامره بسرعة: "اتجهوا نحو حدود الرون، أخي سوف يستدعي الوحوش العاقرة وسيدمر الحاجز، هيا!"

أطلقت تاتا عصاها الطويلة وتقدّمت بخطوات عرجاء لكنها واثقة نحو كون، وقالت: "سأبقى لأتمكن من نقلكم إلى الحدود".

تغيرت تعابير كون، لكنه أدرك أن هذا السبيل الوحيد للنجاة.

تشابكت أيدي شعب الزورا جمیعاً، وصفقت تاتا بیدیها، ووجهت کلامها نحو ویل:
"من خان حلیبه وأمه وعرضه وفخره اندثرت مکانته، وقلت حکمته... أیها الشریر
الصغیر الذي یبحث عن القوة، أقول لك لن تحصل علیها".

ظهر وشم على جمیتها، وأطلقت نداءً یشبه زقزقة العصافیر في صباح منعش، وفجأة
اختفى الجمیع من وراءها، تارکین قطرات المیاه تتسلط على رؤوس الشیاطین، التي
بدأ سوادها ینبت زهوراً سوداء.

قالت تاتا بصوت حازم: "کل ألم یخلف سواداً، وكل عظمة تخلف دماراً، وكل طمع
یخلف فراغاً. ویل، أنت محکوم عليك بالفناء، ستموت جراء طمعك وغبائك".

انحنیت تاتا برشاقة، تناولت عصاها التي تحولت إلى تنين مهیب، واندفع نحو ومیض
ویل في السماء، محیطاً به بدوامة ناریة، وقالت: "لأنك بجلت القوة على الأرض،
ستموت جائراً، منعزلاً عن أرضك، حتى التراب سینفر منك".

لكن ویل لم یستسلم، صوته یعوی بالغضب: "کنت میتاً في بحورکم، لماذا اهتم بما
سيحصل عاجلاً أو آجلاً؟ سوف یغیم النور عليکم يا أیها الشعب الذي نسي قوته
وانصرف إلى العیش بمھانة".

هممت تاتا بكلمات مشتتة لكنها محملة بالقوة، ثم اهتز التنين فجأة وامتص كل القوة الداكنة من السماء، وأطلقتها على ويل دفعة واحدة، الذي صدتها بسهولة ثم قذفها نحو تاتا على شكل كرة مستعرة، لكنها أوقفتها بعصاها الوطيدة.

إرتجت الرمال بشدة، واندفعت ز مجرات من تحت الأرض، مع انبثاق رؤوس الوحوش العاقرة، فتخللت تعابير تاتا صدمة عميقة، وقالت: "أيها النكرة، هل فتحت باباً من أبواب الجحيم؟"

سمعت فوراً قوياً، واشتبكت أنياب الوحوش بالهبوب الأزرق، وركضت بجنون نحو تاتا، لكنها فتحت عينها، وتحدىت بصوت هش رقيق: "لو تزاحم النور على الظلام، لن يوقف ذلك التوازن، ولو كانت غايتكم محو الظلام لإشعال الخوف في عظام الضعفاء، فهذا لن يحصل".

نهضت عاصفة رعدية قوية، أطاحت بالوحوش وأبعدتها خلفاً، ونظرت تاتا بعينين صارمتين إلى لعب ويل المتساقط مثل الحنطل المر، وقالت: "سوف أمنعكم قدر استطاعتي، لكن أرجوك يا يارا، يجب أن تجدي نبعك وتصرفيه بقوة".

على الجانب الآخر، وصلت يارا والمورون إلى الحدود، تجمعوا في صف واحد، محاصرين الحدود بأجسادهم الضخمة كجدار صلب، ثم تقدم الحارس، وضرب صدره ضربة قوية، واستلم من يارا الحجر الرمادي وابتلعه دفعة واحدة.

تفاجأت يارا، لكن همسات الرون بدأت تصدح نحو السماء، وارتجلت الأرض الجافة تحت أقدامهم الضخمة.

برز من خلف الأوراق الزرقاء رون ضخم شاهق، عيناه تطبعان البؤس في النفس المتأملة. تقدمت يارا بكل حزم، لكن الحارس منعها، وقال لها: "نحن ضيوف نادرون، لذلك نود الترحيب بكم بلياقة".

رفع المورون يده الطويلة، قطف ثمرة بيضاء من الشجرة الكثيفة، وصب عصيرها على رأسه ببرود، في حين مسح الرون على رأس الحارس بعناية، تاركاً على العصير لوناً فضيئاً خلاباً.

تنهد المورون، وألتفت إلى المورون الآخرين، وقال: "لتبعوا خطواتي، فربما نتوه".

ثم وجه الرون إصبعه نحو يارا، وقال لها: "أنت سوف ترافقيني".

لم تفهم يارا، وبدت علامات الغرابة على وجهها، ثم ركزت بصرها على المورون، ولكن داهمها الرون بكلمات مسترسلة: "هم سوف يحمون الحدود، وأنت سوف ترافقيني إلى الشلال".

نظر المورون إليها، وقال: "سوف يريك شيئاً على الأغلب... ولا تقلقي، نحن سوف نحميك حتى آخر رمق".



حمل الرون يارا على ذراعه، متباوِزاً بها أنهاً وأودية، مياها تتألأ كالذهب الخالص تحت أشعة الشمس، وترابها المصبوغ بلون فاحم يسر القلوب ويبعث شعوراً بالدهشة والهيبة. أسرت يارا في نفسها هذه الدهشة، شعرت بخفقان قلها مع كل خطوة، وكان كل نهر وكل تلة تمر بها تهمس لها بأسرار الأرض.

استمرت خطوات الرون تتصاعد وتتصاعد عالياً، والهواء يلُّف وجه يارا الأبيض البارد، يلامس بشرتها كما لو كان نسيماً من عالم آخر، ينعش كل خلية في جسدها، يجعل شعرها يرفرف مع الريح ويجعل قلها ينبض بسرعة. شعرت بانتعاش غريب، مزيج من الخوف والفرح، حتى نزلت على الأرض بسرعة خاطفة، تتوقف للحظة تتأمل المكان، لكنها لم تفهم ما حدث، ثم انفجرت صحكة بالغة، صافية ومرحة، عندما رأت كون وغابريال وجوارا مستلقين على فراش يشبه جلد ثور، فوقهم أوراق بنفسجية كبيرة تظللهم، والأضواء تتسلل بين الأغصان، ليخلقوا مشهدًا شبيهًا بواحة متراحمية الأطراف، تخللها نفحات من عبق الزهور والأرض الرطبة.

صرخت يارا بأعلى صوتها، صوتها قوي ومملوء بالفرح، حتى فزع كون الذي استدار بسرعة، وقال بدهشة: "يارا لقد وصلت بالفعل!"

ألقى برأسه المجروح على جلد الثور، وأغمض عينيه لحظة، بينما همست يارا بصوت نعسان وهادئ: "لقد سبقناك، وبالكاد استطعنا رفع إصبع واحد... سامحيني يا يارا، إن الخطر على وشك الإفلات من الحاجز".

نظرت إليه يارا بحنان، واحتضنته برفق، ثم سللت نظراتها إلى جوارا المتختن بالجروح، تلمست أثر الألم على وجهه وعلى جسده، ثم التفت إلى غابريال، الذي ظل يمسد جناح طائرته بمحبة واهتمام، وقالت بصوتها الممزوج بالفضول والقلق: "ماذا حصل لكم، لماذا حالتكم مزريمة إلى هذا الحد؟"

تنهد غابريال بعمق، وعيناه تتأملان الأرض وكأنهما تبحثان عن لحظة السلام، وهو يناشد أحد الزوارا قائلاً: "أمم... لقد افترقنا عن كون، لكن ما إن توارينا في السماء حتى ذعرت العنقاء وهاجت، فلم أستطع كبح جماحها. لكن جوارا خاطر بحياته، ووجهه مندفع نحو الحدود، لكن في آخر لحظة ظلت العنقاء تطير. لكن سقطنا كان فظيعاً، وقد تأثر جوارا كثيراً".

ثم أضاف بابتسامة متعبة، لكن مليئة بالراحة الجزئية: "الأمر الجيد أن الرون استقبلونا بحفاوة، لكنهم ألحوا بالسؤال عنك، وقالوا أنك يجب عليك تسلق ذلك الجبل المغطى بالنقوش، إنه هناك سترينه إن تسلقت هذه الشجرة".

كل هذه الكلمات رافقها شعور بالرهبة والدهشة، يملاً المكان وكان كل تفاصيل الواحة - من الأرض المصبوغة، أوراق الأشجار، ضوء الشمس المتسلل، وحتى الهواء الذي يلفح وجوههم - تضيف طبقة من السحر والرهبة على المشهد، وتزيد إحساسه يارا بالاندماج مع الأرض والسماء معاً، وكأنها جزء من قصة أكبر من أي شيء عرفته من قبل.

— — —



—

وقالت، والدموع تهرب دون توقف: "لم تبأح حلمي ولا عقلي، ولا هوا جسي، ولا هلي، ولا عندما هربت... لقد هربت إلى أعماقك، تلك المياه التي غسلت أمنياتي، أنت كنت سببها".

وتقدمت بعض الخطوات القصيرة، إلا أنه من داخل الجبل صدرت رواح كريهة... تشبه رائحة دم مختلط بمادة ما. لكن تلك الرائحة لم تكن تصدر من الجبل، بل من خلفها، حيث اندفعت عدة رواح نحو أنفها، غير أن شيئاً ما جذبها إلى داخل الجبل. كلما اقتربت من الظلام، أحسست أطرافها ترتجف من الخوف والاشتياق، لكن تلك الرائحة قد خدرت أنفها أكثر فأكثر.

فتهادى صوت باهت من وراء صخور كريستالية لامعة، وقد إنساب على تلك النعومة الجميلة أشلاء لحوم بشرية، فقالت يارا: "هذا ليس الشلال... أين أنا؟" لكن الرائحة بدأت في التزايد، فالتفتت يارا بفترة لتسمع صدى ذلك الصوت يهس بـاستفزاز مشين، وقال: "ستبكين مثل الجميع، وستنقيبن عن الحجر الأسود في أسفل الجحيم، وسوف تغرقين في ملذات الجميع... أطمنت أن الشلال يرحم من يفديه بإرادته... إنه يستهلك كل جزء فيك حتى ينفر منك العالم، وتموتين ميتة مهينة خلف تلك الصخور."

لم تحتمل يارا تلك الرائحة القوية المتجمدة نحوها، كأنها تقوضها بأبشع الطرق، ولكن في الوقت ذاته كانت الرائحة تأتي من مكان بعيد قد رأته أمامها. ذلك المخلوق قد

صنع من الطين آنية ووضع فيها كل الأشلاء، وقدمها إلى يارا، وقال لها: "أنت ستشاهدين نتيجة هروبك فحسب... الشلال سوف يصب جام غضبه عليك..."

لم تتحمل يارا وزر هذه الكلمات، وصرخت وهي تملأ المكان الفارغ: "من أنت؟ أخبرني!" فقال، وصوته يتمايل مثل الأفعى: "أنا أبشع وحشك. ألا تخنين أن هذا الطمع الشديد للقوة قد أفقد كل من يبحث عنها أصالته؟ حسناً، لتنظري إلى هنا..."

ثم فتح يديه لترى يارا مشهد الشياطين وهي تضرب الأرض بجنونها، إنها تقترب من المورون بسرعة خيالية، وذلك الوحش متسمراً مثل تمثال منحوت من الثلج، ينتظر بصبر سقوط المورون لكي يغمر المكان بشره، لكن في اللحظة التالية هفت يارا بسرعة، وقالت: "أهذا أخ كون؟ لماذا هو هكذا؟"

نظر إليها الوحش للحظة، ثم تغيرت نبرة صوته: "لقد تشوه النور فأصبح عذاباً، والظلام الذي كنا نبتغيه ونتلهف إليه قد ذبل وذاب بين الأمواج... والآن، ماذا يا يارا؟ ألم تدرك أنك أنت الشريدة الوحيدة في هذا المكان؟"

ثم أضاء المكان بنور ساطع قد أحرق عيناً يارا، لكنها فتحت فمها لتهم بالحديث، إلا أنها صمتت وشاهدت سريعاً من اليمام يطير فوق تمثال تحفه الأصداف من كل جانب، وعيناه ترسلان حزناً دفيننا، وقلبه يومض بشكل مرعب.

لكن الرائحة الكريهة ازدادت شيئاً فشيئاً، حتى شعرت يارا بالدوار بسببها، وقبل أن تسقط أرضاً قال لها الوحش: "هذا من أديم أفعالك، وهذه الرائحة هي رائحة البشر الذين يتخذون من الهوان سبباً للهروب مثلك أيتها المختارة".

ثم استيقظت يارا، و كلمات ذلك الوحش تنبض داخلها، وكان يشبه شخصاً تعرفه، لكنها لم تهتم، لأن الماء بدأ يسحبها إلى الأسفل شيئاً فشيئاً، يسحب جسدها الذي اختفت منه التعاوين. لكن فجأة شعرت يارا بأن المياه تصدر دوامات غريبة، ولم تستطع رفع جسدها إلى الأعلى، فغرقت، وطعم السواد الذي شعرت به في دمها كان مخيفاً.

وصلت يارا إلى قاع المياه، لكنها لم تكن مياهاً عادية، بل تشبه كثيراً مجرات متباعدة وممزقة، تكتسي لوناً رمادياً في الوسط، وتحت قدميها لون أبيض خلاب، وبجانبه لون أسود داكن، لكن ما راعى انتباها كانت يديها التي تحجرت للحظة، ثم تحطم الحجر لظهور حراشف من زئبق انعكست عليها صورة وجهها، ثم تقدمت خطوات قليلة.

لكن قلها بدأ في التسارع بجنون، وشعرها الأحمر بدأ في الذوبان مع أنفاسها الساخنة، ليتحول إلى لون فضي جميل، وعيونها اتخذت لوناً أزرق سماوياً. ثم عرجة بجانها سحابة تحمل وحشاً، لكنه بملامح رجولية، وجسده متوسط الحجم، لكن أننيابه العاجية على وشك لمس جبهته المنقوشة بوشوم ذهبية، وشعره الفاحم ينسدل بنعومة على أكتافه الكبيرة، وعييناه الرماديتان تبعثان الطمأنينة خادعة. وعلى يمين يارا، اتكأت فتاة ناصعة البياض مثل اللؤلؤ المتناثر على السماء، على

سحاب مزوق برسوم لأكوان ونجوم وسيوف نادرة، وكان شعرها مثل حليب مصفى تخلله ألوان مخملية جميلة، وعيتها تكتنزان لوناً فضياً مثل ذلك الوحش الذي بجانها.

داعبت الفتاة يد يارا بلطف، لكن الوحش ظل يحدق بعينيه اللاذعتين، ثم قال بصوت خشن: "هل استقبلك ذلك الوحش المريع؟ لقد قلت له أن لا يخيفك، ياله من شقي..."

فقالت يارا: "ماذا، وحش؟"
قالت الفتاة: "لا تقل مثل هذا الكلام عنه أيها المشاكس." ثم التفتت ليارا لتكمل حديثها، وقالت: "مم... زيون هو حارس الشلال، أحياناً يرعب من يأتي إلى الشلال فقط لإثارة الضجة لا غير."

فقط ابتعدت الفتاة بخطوات قليلات، ثم أطلق نظراته الغريبة نحو يارا: "لا ضير من قليل من الرعب لأجل إخضاع هذه الفتاة المتمردة."

نهرته الفتاة بلطف، وقالت ليارا: "لا تنصتي إليه، إنه غاضب منك لأنك هربت سابقاً، لقد كلف نفسه عناه تخليصك من العقاب وإرجاعك، لذلك هو يتحدث بمثل هذه الطريقة، لكن لا تخافي، الأمر على خير ما يرام... لقد انتظرناك طويلاً، ملكة الكون."

ثم أحيت رأسها تجليلاً، ليara، ولم تفهم يارا شيئاً وقد التهم السكتة لسانها، ثم قالت وهي تئن بسبب ثقل الرئيق على يديها، فأشارت علهمما محاولة فهم ما يحصل: "عذرًا، لكن يدي... لماذا هي بهذا الوضع؟"

قال الوحش بنبرة ساخرة: "تستحقين ذلك."

فلكلمته الفتاة بعناية على كتفه، ثم لمست يدي يارا فتبخر الرئيق، وتطاير في الفضاء كأنه فقاعات من الماء. نظرت يارا إلى قدميه المستفحليتين في ماء تملأه ورود حمراء قانية، ثم أمعنت قليلاً النظر لتجد شخصاً تحيطها واقفاً بشموخ مثل الأبطال.

كانت الأرضية تشبه المرايا الندية من الشوائب، لذلك كان من السهل على يارا أن ترى ذلك الجسم الخاملي في مكانه، وهناك على جانبه ثلاثة ورود سوداء.

فقطع الوحش ذهولها بسؤال: "هل أنت مستعدة للنزول أم لا؟"

تفاجئت الفتاة لجرأة السؤال، وقرصته بعنف على يديه، فتألم بشدة، وقال: "لا تفعلي هذا، فأنت تهينيني أمامها."

فترامت أعين يارا على عيني الوحش، وقالت: "من أنت؟"

فقال: "أنا الظلام. أيتها الغبية ماذا ألا ترين وقاري و جمالي أم عقلك منشغل بكيفية الهرب"

وردت الفتاة من بعده: "أنا النور... وأنت سيدتنا الجميلة." ثم ضربت الفتاة رأس الوحش بقوة، حتى كاد أن يسقط، وقالت: "آسفة لوقاحة كارول، إنه مفتاح فحسب."

فقالت يارا بعفوية: "من ماذا؟"
قال: "لقد كنت أختفي دون سبب واضح كل أسبوع، والآن..."

اختفى كارول فجأة عن الأنظار، لكنه رجع وقال، والحنق يتطاير من عينيه: "لا أستطيع التصديق أن هؤلاء الحثالة يريدون طمس وجودي."

ضحكـت الفتـاة ضـحـكة حـزـينة، وـقـالت: "أـنـا إـسـمـي... وـآـسـفـة حـقـا عـلـى كـلـامـهـ الجـارـحـ مـرـةـ أـخـرى... حـسـنـاً، سـأـخـبـرـكـ بـأـمـرـ... هـذـاـ المـكـانـ هـوـ نـقـطـةـ الصـفـرـ، وـهـوـ مـصـدـرـ كـلـ شـيـءـ فـيـ هـذـاـ عـالـمـ... وـأـنـاـ أـمـثـلـ هـبـةـ النـورـ التـيـ صـمـدـتـ مـنـذـ بـزـوـغـ هـذـاـ عـالـمـ، لـكـ هـنـاكـ مـنـ عـانـواـ بـسـبـيـ، لـذـلـكـ تـواـصـلـتـ مـعـ الـبـشـرـ، أـسـلـافـكـ، لـكـ قـلـةـ مـنـهـمـ وـافـقـواـ عـلـىـ وـهـبـ قـلـوـبـهـمـ الصـافـيـةـ لـجـعـلـ كـارـولـ يـأـتـيـ إـلـىـ هـذـاـ عـالـمـ، فـهـوـ يـمـثـلـ هـبـةـ الـظـلـامـ، وـأـيـضـاـ الرـاعـيـ الـوـحـيدـ لـلـنـجـومـ وـالـأـرـواـحـ، وـصـحـرـاءـ النـجـومـ كـانـتـ دـائـمـاـ تـحـتـ عـنـيـتـهـ.

لكن عندما دخل ويل إلى هذا المكان في المرة الأولى، استخدم سحر الشيطان حتى يدمر أحد البشر، لكن نحن لا نستطيع ردع من يستعملون السحر، وقفنا نشاهد بألم. هذا المكان كان معززاً بحراس آخرين، لذلك كان ويل أحد الحراس الذين يتداولون مراراً وتكراراً، والرون هم من يختارون كل عام حارساً. وكلما يأتي ويل إلى هنا، يدمر شيئاً ويذهب، لذلك عندما ولدت أنت، كان حلمه تحقيق هدفه من خلالك، وهو الاستحواذ على النور والظلام لخلق عالم يخصه فقط.

إن السحر شيء محرم، ولا نستطيع التدخل عندما تحدث أضرار بسببه،

... و عند هروبك من هنا وجد سبيله إلينا، لكن الحارس منعه كما لم يمنعه الحراس الآخرون، فالحراس دائمًا ما يستلطفون من يأتي إلى هنا، وخاصة الرون الذين يلقومون قلوب أحبابهم لتنمو الطاقة الكفيلة بإبقاء كارول. لكن هذا الحارس منعه بكل ما استطاع، ومع ذلك إثر الهجوم تسربت إحدى طلقاته نحو جسد البشري، فخدشه، وكان ذلك الخدش سبباً في تهاوي كارول و اختفاءه وزعزعة التوازن. لذلك حدث ما حدث، وعندما سمعنا بعقابك، استخدم كارول كل طاقته لكي يصل إلى الحكام الكونيين، لكن جرمك كان فادحاً، لذلك لم يستطع منع إرسالك إلى الرماديين. والآن أنت معنا لتمنعي ويل من تدمير آخر قطرة أمل، وربما تكونين أنت الأمل يا يارا.

يارا، التي شرحت كلمات الفتاة صدرها وأثلجته، شعرت أخيراً بأنها بدأت تفهم سبب تلقيها بـ"التوازن"، ولماذا العالم يدور حولها. ثم سألت الفتاة بدهشة وارتباك: "إذن، أنا لا أتوهم صحيح.. قوتي لم تدمركم؟"

أجاب الوحش بنبرة ساخطة: "لقد دمرتني أنا، ألم يكفي هذا؟"

صرخت الفتاة في وجه كارول، وقالت ليارا: "هو غاضب منك لهذا السبب، لأنك فضلت أسبابك الشخصية على وظيفتك الأساسية في الحياة."

شعرت يارا بفداحة ما يشعر به ذلك الوحش، فاقتربت منه محاولة الاعتذار، لكنه أمسك يدها بقوة وسحّبها إلى الحسابية الجالس عليها، وقال بصوت صارم: "أنت غبية يا يارا، وأظن أنني عرفت السبب، لكن أريد أن أريك شيئاً قبل هذا."

وبينما كانت يارا تلتقط أنفاسها، لاحظت أن المكان حولها أصبح أكثر إشراقاً، مع لمعات خافتة تتسلل بين الظلال، وكأن كل شيء يتحرك بحذر في انتظار ما سيحدث بعد لحظات. وقد بدأ قلبه ينبض بسرعة، شعورها بالرهبة والفضول متشابكين معًا، فيما كانت أصوات المياه تتدفق من بعيد، ممزوجة بصدى غير مألف، وكأنها تحذرها من المستقبل الذي ينتظرها.



الجزء الثاني

من هناك...

أنا، يارا، استيقظي... المكان سمهدم، يارا!

. من المنادي؟

. أنا الكون ذاته... لتسمعي هتافي أيتها الأبية. لقد اخترتك لتحملني وصيتي للبشر،
وللجماد، وللأرواح... بل لكل من تدب فيه الحياة.

كشفت يارا عن عينيها ببطء، كأن أبواباً من الصدأ قد أطاحت على مصارعها،
فتلألأت حدقاتها برذاذ ذهبي انتشر فوق قرنيتها، كأنها تحمل في عينيها بقايا نجوم
ذائبة. حركت شفتيها بصعوبة، وكأنها تسترد أنفاسها الأخيرة قبل أن تلفظ كلامها،
وقالت بصوت واهن:

أنا أشعر بالهوان أيها الكون... أشعر بأن قيامي ستزول، وسأدفع حيّة بين تلك النجوم المترادفة. لماذا اخترتني؟ لماذا عذبني من بين الكثيرين الذين يفوقونني حيّة؟ أنا معدومة من كل حيّة... أنا فقط أسير لأن العالم أمرني أن أسير، وإن كان ذلك يعني مماتي فلن يهتم أحد. حتى هروبي خلف مجازر محقّت انتعاش البسيط، وهدمت مشاعري، وكل ما أردت خوضه تبّدّد وابتعد، كأنه محكوم على هذا الجسد المضني أن يكون البلاء ذاته...

ثم بكت يارا بحرقة، وانحدرت دموعها الساخنة لتذوب فوق سطح المياه الراكدة التي تحيط بها، فتموجت الأمواج كأنها تشاركها أنيتها.

كانت قد فقدت وعيها، عندما اهتزّ الفضاء بصوت ارتجاج مدوٍّ قادم من خارج الشلال. وفجأة تحطمت الأرضية البلورية تحت جسدها، فسقطت بعنف وارتطمّت بالوردة السوداء.

ذلك الاصطدام فجر الذرات العالقة في حيز الزمن، فانطلقت من يارا نداءات غير واعية، هزّت الفضاء حتى وصل صداتها إلى المورون والوحوش.

حينها تجمّد ويل في مكانه، ثم تكفر ملامحه بلون الغضب وقال:
بئسًا... ما مدى شدة بأس هذه الفتاة؟

ثم أمر الوحش العملاق أن يقفز عالياً متمسّكاً بأغصان الأشجار، لكن المورون حالوا دون تقدمه، وأبطؤوا اندفاعه بكل ما أوتوا من قوة. وفي الجانب الآخر، كان شعب الزورا مع كون قد تسلحوا بكل ما أتيح لهم، واستعدوا للقتال. أما الرون فوقف شامخاً أمام الجبل، ملتفاً حوله كنسيج متين، والحارس بجانبه.

كارول، وقد أراد الاطمئنان على يارا، تراجع بخطوات ثقيلة، إذ إن الموجات التي تبعث منها تنخر في لحمه الأسود كالسم. عندها قالت ملكة لوسيا بصوت يرتجف إدراكاً منها أن يارا في موقف لا يُحسد عليه:

أرجوك... قاومي! قاومي يا عزيزتي... قاومي!

بصدى تلك الصرخة شقّ صوت الملكة الأرجاء. كانت يارا ما تزال تتجاذل مع الكون بفتور، متناسية أنها تطوف حول نافورة تتدفق منها رواح عبقة، حتى توقفت فجأة وقالت وهي تستنشق بعمق:

النرجس... إنه النرجس!

لكن الصوت ذاته أعادها من هذينها، وسجّها إلى نفق يتشابك فيه البرق والرعد، مولّداً موجات تسحق كل من حولها. ومن تشققات ذلك النفق، خرجت مخالب طويلة، تتبعها صرخات راجية تمزق السمع.

وفجأة أفاقت يارا على شاطئ يطل على بحر أحمر، امتد بلا نهاية كدم مسروح، فتمتمت بصوت جوهرى مخيف:

المياه... إنها تشبهني... بشعة، مقية، تستحق الفناء مثلى.

ثم علا صوت من قاع الأرجاء، عميق كأصداه الكهوف:
يارا... يارا مرآتي الضائعة وسيفي القاطع... لتسمعي كلامي، اسمعيوني!

فقامت يارا فجأة، والغضب يتفجر في عروقها:
لقد ماتت أمي... ولم أرها حتى في حيواتي الثلاث! لقد أريتني موتها مراراً وتكراراً... دون شفقة، دون أن ترأف بقلبي الذي بدأ يجمع شتاته من خلال أوامر الجميع! "يارا أنقذينا... يارا أنتِ وأنتِ" ... كلهم يزينون صورتي ويفخمون اسمي ومقامي... كأنني أحتج هذا التصنيف!

لقد تركت أبي يموت! لماذا؟! لقد حرمتني من إنسانيتي لأخضع لقوانيينك، أيها التافه المغطرس. حرمتني من الحب، حرمتني من الفرح... لقد طليت عتبة بابي بلون العزاء! أنا لا أستحق هذه الإهانة... أنا أستحق الحب! لماذا تفضلون قوتي على ذاتي؟ هل فكرت يوماً، أيها الكون، أني أريد أن أعيش مقيدة بك؟ لماذا وضعتني في جسد قوي؟ لماذا وضعتني في عالم ينسى الأخ وجه أخيه فيقتله، ويخلق قانوناً جائراً يتلذذ به؟! أين أنا في هذا كله؟! وبعد أن أنقذهم... هل ستنفذ أمنياتي؟ بالطبع لا، أيها الأناني!

سقطت يارا جالسة على الأرض، تبكي بلا هواة، غير قادرة على إيقاف صراخها ولا لوعتها. ومن بين تلك الصرخات، خرج صوت الكون، هذه المرة ناعمًا، حزيناً:

آسف... آسف... آسف حًقا... أنا بدونك لا شيء... لا ذلك لا تهرب، حتى لو وضعتك تحت حكم قاس، فذلك كان من أجل الاستمرار... سامحيني يا يارا... أرجوك، أنقذني ما بقي من عالمك، حتى لا تذوب في قلب الجنون... أرجوك!

حينها، نزل من العدم شخص صغير، وتهالك على حضن يارا... إنه طفل، لكن ملامحه كانت غريبة، لا تنتهي لبراءة الطفولة. وقبل أن تنطق، قال الطفل بلغة غريبة:

أنا عقلك وذاتك وكيانك وهيتك. إن هربت... ستسقط آخر ورقة على عرش الشياطين. وإن سقطت عاطفتك... سأختفي. لا تضحي بذاتك لأجل ذاتك... بل ضحي للاستمرار بأن تعيشي على أمل جديد. انظري إلى يدي... إنها مليئة بالخدوش، وكلها نتيجة قراراتك. لذلك أرجوك يا يارا... أرجوك!

انهارت يارا باكية، تحضن الطفل بقوة، ثم أفلتت يديه وأمسكت بوجهه المرتعش:

ماذا الآن؟

ابتسم الطفل ابتسامة منيرة، وقال:
. هذه هي فتاتي الجميلة... أولاً، يجب أن تدفعي طاقتك إلى مرحلة التوازن.

كيف أفعل؟

. يجب أن تصفي ذهنك. لا تفكري في شيء قد يفسد وصول طاقتك إلى أقصاها... ثم دمّري الجسد، فهو مستهلك بالفعل، وقلبه بالكاد يحتوي على شيء. دمّريه واقطفي الورود السوداء واسحقها فحسب... والباقي، أنت ستتكلفين به.

همّت يارا أن تسؤاله، لكن جسدها سقط فجأة في النفق المظلم ذاته. أفاقت وهي تئن من صداع رأسها، وحملقت بالجسد المحنط بجانبها. لم تستطع الوقوف، لكنها صفت ذهنها للحظة، وأغمضت عينها. فإذا بالتمثال يت弟兄 وينتشر في المكان كغبار متلاشي.

كارول، وقد تأثر بشدة من هذا التدمير، تعلّت صرخاته حتى خرج دخان من فمه، فيما همست يارا لنفسها، وهي تحاول الصمود:
. صفي ذهناً... يجب تصفيه الذهن...

نَهَضَتْ بَيْنَ الْوَرَودِ الْسَّوْدَاءِ، أَغْمَضَتْ عَيْنِيهَا، وَلَلْوَهْلَةُ لَاحَ لَهَا مَشْهِدُ لَوْحَةِ بَيْضَاءِ نَقِيَّةٍ. اهْتَزَتِ الْلَوْحَةُ فَجَأَةً، ثُمَّ تَحْطَمَتْ، لِيَظْهُرَ خَلْفَهَا سَوْدَادُ قَاتِمٍ. وَفِي لَمْحٍ الْبَصَرِ، اندْفَعَ وَهْجٌ أَزْرَقٌ مِنْ جَسْدِ يَارَا، تَشَكَّلَ عَلَى هَيْئَةِ طَائِرِ النَّدِيمِ.

أَطْلَقَ الطَّائِرُ مِنْ مَنْقَارِهِ كَرْتَةً نَارِيَّةً، التَّقْطُّهَا يَارَا فِي يَدِهَا. ثُمَّ سَحَقَتْ بِهَا كُلُّ الْوَرَودِ السَّوْدَاءِ، وَغَيَّرَتِ الْخَطْلَةَ... فَبَدَلَ أَنْ تَنْثَرَهَا عَلَى رَأْسِهَا، أَكْلَهَا. عِنْدَهَا تَبَدَّلَتِ عَيْنَاهَا إِلَى لَوْنِ مَرْعَبٍ، وَطَفَّتْ عَالِيًّا، مَتْجَاوِزَةً لِوُسِيَا وَكَارُولَ الَّذِي أَغْمَيَ عَلَيْهِ. اخْتَرَقَتِ الشَّلالُ صَاعِدَةً، وَرَفَعَتْ يَدِهَا نَحْوَ السَّمَاءِ.

وَمِنْ هَنَاكَ، تَوَضَّحَتْ لَهَا الرَّؤْيَا... لَكِنْ رَؤْيَا مُخْتَلِفَةٌ: كَانَتِ الْقُلُوبُ تَتَبَرَّعُ أَمَامَهَا، يَنْبَعُثُ مِنْهَا إِمَّا ظَلَامٌ دَامِسٌ أَوْ نُورٌ سَاطِعٌ. عِنْدَهَا شَعَرَتِ بِنَظَرَاتٍ وَيْلٌ تَحْدَقُ بِهَا مِنْ الْحَدُودِ حَتَّى السَّمَاءِ. أَطْلَقَتْ مِنْ يَدِهَا صَاعِقَةً مَدْوِيَّةً مِنْقَطَتِ الْهَوَاءِ الْهَادِئِ، وَسَقَطَتْ عَلَى الْوَحْشِ الَّذِي كَانَ يَحَاوِلُ تَجَاوزَ الْمُوْرُونَ، لَكِنَّهُ لَمْ يُنْهَزِّمْ.

وَيْلٌ تَصَدَّى لَهَا، وَقَفَزَ عَالِيًّا فِي السَّمَاءِ مُسْتَعِينًا بِطَائِرِ الْكَارُونِ الْمَحْلَقِ، مَتَجَهًا نَحْوَ يَارَا. وَمِنْ الْأَسْفَلِ، شَعَرَ كَوْنُ وَالْجَمِيعُ بِزَخْمٍ طَاقَتِهَا، فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ عَالِيًّا، يَتَسَاءَلُونَ بِدَهْشَةٍ... إِنَّهَا طَاقَةُ يَارَا، لَكِنَّهَا مَسْكُونَةُ الصِّفَاءِ!

أَطْلَقَ وَيْلٌ دَفَعَاتٍ مِنْ شَعَلَاتِ سَوْدَاءِ، لَكِنَّهَا سَقَطَتْ بِلَا أَثْرٍ أَمَامَ حَاجِزِ حَمَايَتِهَا. ابْتَسَمَتْ يَارَا بِأَزْدَرَاءٍ وَقَالَتْ بِكُلِّ كَبْرِيَاءٍ:

أنت ممل...

ثم أغلقت كفها، فشعر ويل بالاختناق، يده على عنقه، محاولاً لمس الحاجز لينقل إليه سحره. لكن يارا كانت أسرع، فأطلقت سهامين نحو عينيه، فاحترقتا. صرخ ويل صرخة عظيمة سمعها أخوه كون، لكن يارا لم تسمح له بلحظة أخيرة؛ قبضت على جسده وعصرته بوحشية، حتى تناثر كفتات خبز.

سقطت الأشلاء مباشرة على رأس كون، الذي صفع غابريال بغضب هادر، وهو يوجه كلامه ليارا:

أيتها الماكرة... ألم تجدي مكاناً آخر لتنثري أسلاؤه؟!

?

في مشهد ضبابي خيّم على الجميع، توجهت يارا نحو الحدود بهدوء قاتل، وكأنّ هذا الهدوء يسحب الخوف ذاته إلى الساحة. عندها، نظرت بقرف نحو الموجودين

جميعهم، ثم وجهت قبضتها نحو الأرض... إلى مكان مسطح وصلب. ومع ذلك لم تأبه لا بالدماء التي سالت ولا بالانفجار الذي تلتها، بل جرف الجميع إلى الأسفل وكان الأرض ابتلعتهم.

في تلك اللحظة، أحسّت لوسيا بأثر الموجات التي دفعتها يارا، فأمسكت بذراع كارول وقالت بتلعثم: "أظن أن يارا قد بلغت ذروة المجد... سيحطمها ذلك عاجلاً أم آجلاً". غير أن كارول كان يتميّز من الألم الضاغط على روحه.

وفجأة، رفعت يارا رأسها، لتبدأ المياه بالفوران من باطن الأرض، فوجد الجميع أنفسهم ينزلقون إلى مكان فارغ... أسود قاتم وموحش. كانت يارا تنظر إليهم بكل برود، وقالت بنبرة متوجّلة: "سترون من هي يارا".

عندما، شنت الأرواح هبوباً مدوياً نحوها، لكن يارا صدّتهم بصرخة عالية. ومع ذلك، لم تكتثر الأرواح بيارا نفسها، بل التفتت نحو الذين سقطوا في الهاوية التي أبعثت منها ألسنة النار. عندما صرخت يارا، وعيناها تستعران بألوان بشعة: "سوف أقتلكم جميعاً!"

ثم، تقدّمت روح أمها وقالت برجاء: "ابنتي، استيقظي! هذه ليست أنت... لا تجعلني الشر يتلبّسك". غير أن يارا قبضت على الروح، وعضّتها حتى أحسّت الروح بوخزة دامية، ثم قذفتها إلى الأسفل بقسوة.

لم تتحمل لوسيا رؤية يارا في هذه الحالة، فأخذت من كارول أحد أحجاره السوداء ورمته عاليا. عندها انبثق من الحجر وحش نوراني عملاق بجناحين حجبتا السماء كلها، وركز بصره نحو يارا التي كانت ما تزال تدفع الأرواح إلى الأسفل. ثم، استل رمحه الطويل وصوبه نحو الأرض التي بدأت تصدر أصواتا غريبة. وفي لمح البصر، خرج الجميع من قاع الأرض طائفين.

ومع ذلك، كانت يارا، التي تملكتها الغضب، قد ارتمت على الوحش. إذ أمسك برأسها بإحكام وأخرج من فمه دخانا فاحما دخل ببطء إلى فمهما. لكن يارا لم تستسلم، فلكلمته محاولة إخراج الدخان الذي تحول تدريجيا إلى أفاعٍ صفراء ملتوية. وفي ومضة، اختفت الأفاعي، فتشتت انتباه يارا، فشعرت بقوة غريبة تجذبها. عندها علمت أنها تحت وقع هلوسة، فارتعدت أطرافها فجأة، ثم مدت يدها وطعنت بطنها بصramaة، حتى نزل الدم إلى باطن الأرض وسال مباشرة على عيني جوارا.

ومع ذلك، لم تكتفي يارا بذلك، بل أرادت أن تتبع الأرواح وتمتصهم. إلا أنّ الوحش أوقف حركتها، وبمجرد أن هدأت قليلا، خرج صوت مزعج من داخلها: "سوف أبني عالماً أهيا الأوغاد، هنا شئتم أم أبيتم."

صرخت لوسيا من باطن الشلال، وصوتها ترك صدى في كل مكان: "يارا! لا تتركي لعنته تسري في عروقك... حرري روحك يا يارا!"

غير أن يارا ظلت هائجة، وقد ماهَا تتخبطان تحت قبضة الوحش الذي نال منها لکمات قاسية. وفي جانب آخر، كانت يارا محجوزة في مكان يعمه الفوضى، حيث تراكمت الجثث المتعفنة وهي معلقة بالمقلوب على منصة إعدام. عندها، صرخت من هول ما رأت: "أين أنا؟ ليساعدني أحدهم! آه، آه، كون... جوارا... لوسيا... كارول... الجميع!"

لكن صوتها ظل سجين جسدها، الذي أطلق موجات عشوائية وصلت قوتها إلى الوحش الرابض على الحدود. كانت الوحش هادئة بشكل مفزع، وكأنها ترقب شيئاً ما.

صرخت يارا مجدداً، وصراخها مزق كل الآذان وأحرق الأرواح التي فرت لحماية نفسها. وفي تلك اللحظة، لم تجد لوسيا حلاً سوى أن تطلق من سحابتها كماناً عاجياً. شدت على أوتاره حتى اهتزت مياه الشلال، وارتقت نحو السماء صانعة قبة حريمية. ثم، وبصوت جلي، ألقت تعويذة غريبة رددتها عشر مرات، لتقول أخيراً: "ويل... سوف تدفع ثمن تلاعبك بكل شيء أيمها البغيض."

كانت هذه الكلمات كافية لإطلاق الأصوات من جسد يارا التي احتللت وتشابكت، حتى ظهر صوت ويل قائلاً: "إن لم أحكم جسدي، فسأستعمركم بروحى أيها الأوغاد. لن يعيش أحد بسلام ما دمت حياً... هذا وعد مني حتى ينجلِي الكون ويحل محله العدم."

عندما، وضعت يارا يدها على جرحها وغرست أظافرها فيه حتى تلوّنت من الألم. ثم صرخت صرخة مؤلمة وكأنها تصارع كياناً جباراً، تتالت صرخاتها، والوحش ما زال ممسكاً بها بقوة. وأخيراً، أطلقت تهيبة وقالت بصوتها العادي: "أرجوكم... ساعدوني... كون، السيف! أرجوك، ارمِه نحوّي!"

في تلك اللحظة، كان كون يطفو في فراغ باطن الأرض، والجميع حوله مرعوب من منظر الألسنة الملتهبة أسفلهم. سمع صوت يارا تأمره، فألقى السيف. غير أن الفراغ جذبه مرة بعد مرة، حتى أتت روح وحجزت السيف داخلها، ثم صعدت بصعوبة وقدفته نحو يارا.

أمسكته يارا، ولطخت بدمها معدنه الفضي، وقالت وهي تنظر إلى الأسفل: "لوسيا... التراب! أحرقيه!"

ترددت لوسيا للحظة محاولة فهم قصدها، لكنها سرعان ما رأت أسفلها ترباً أحمراً مثل الدم، والدود يتناثر حوله. فأسرعت وكوّنت شعلة من نار، ودفعتها نحو التراب، الذي أصبح يشبه الطين اللزج.

بدأت يارا تلهمت بصعوبة، وصوتها يتارجح بين صوتها وصوت ويل، حتى سمع الجميع صوت تحطم مفاجئ... لقد كان كارول، الذي بدأ يحطّم زجاج الأرضية بعد أن استيقظ إثر شعوره باحتراق التراب. هشم الزجاج، وبدأت عيناه تنزفان دماً

بنفسجيا ملأ المكان، ثم تحول إلى ورود سوداء. وقال بصوت ضعيف موجهها كلامه ليارا: "لقد جهزت القبر يا يارا... أكملني الباقي."

عندها، نظرت يارا إلى الوحش بألم، ثم أخذت السيف المغطى بدمها، وغرزته في قلبها بطريقة وحشية...



تدفق السيف كريشة مسنونة في قلب يارا، فارتخت عيناهَا بارتياح غريب امتنج ببهجة مفعمة بالجنون، ثم تمتت بصوت متقطع يقطر قسوة:

«ستموت يا ويل... ستموت أنت وأفكارك الغبية. سأطحن كل عظمة من عظامك، وسأشويك بدموع من نصفت أرواحهم».

وأشارت بيد مرتعشة إلى الوحش الذي كان يحملها كي يُفلتها، غير أنه تردد للحظة وهو يحدق في القبة الحريرية التي أطلقها لوسيا؛ إذ بدأت تهتز بشدة بعدما صعدت فوقها الوحش محاولة تمزيق الحاجز. يارا أصررت بإصرارٍ قاطع، فأطاعها الوحش أخيراً وأفلتها. وفي اللحظة نفسها التي هوت فيها يارا نحو الهاوية، انفجرت مياه

الشلال فجأة لتكشف عن كارول ولوسيا، وقد ارتجفت الأخيرة مذعورة لمشهد صديقها وهي تسقط.

كارول، الذي غلّفه القلق، طلب من لوسيا أن تعاونه على ثبيت الطاقة لتعزيز مفعول الورود السوداء. تلك الورود لم تكن مجرد زينة، بل تجسيد لأرواح ألف إنسان قديم مسلحين برماح شاهقة، استدعوا لإرغام ويل على الخروج من جسد يارا. لكنّ هذا كان في الآن نفسه إنذاراً بموتها المحتوم، فالسيف كان قد شقّ قلبه، غير أنها فعلت ذلك عمداً لأنّ ويل يتوق إلى جسدها.

لوسيا، التي لم تحتمل المشهد، رفعت كمامها بين يديها المترجفتين، وبدأت تسحب أوتاره الثقيلة. وفي لحظة، انطلقت من القبة الحريرية بتلات ياسمين متلائمة لتجه نحو يارا وتوقف سقوطها. ومع ذلك، بقيت يارا مستيقظة، بفضل طاقة ويل الذي كان يحاول إخضاعها وضم قوتها إلى جسده، لكن محاولاته كانت تهابي مراراً. عندها صرخت يارا بأعلى صوتها، ممددة بين مياه متجمدة في الهواء وسماء تموج بالوحش الراحفة:

«لوسيا... أفلتيوني، أرجوك!»

فأجابتها لوسيا والدموع تلمع كحبات نور على وجنتيها:
«مستحيل... لا يمكنك الموت يا يارا!»

غير أنّ كارول، وقد غلّف صوته رجاء عميق، حدّق في لوسيا قائلاً:

«أرجوكِ... إن لم تتركهما الآن سيدمّر كل شيء. أرجوكِ يا لوسيا!»

صرخت يارا مجدداً، وغرزت السيف أعمق في صدرها والدم يتفجر منه:

«سأموت ليحيا هذا العالم... أليس هذا ما تريدونه؟ إذن يا لوسيا... أفلتيوني!»

لكن لوسيا، بعناد يائس، ردّت:

«أنا... أنا آسفة، حقاً آسفة... لا تموتي يا يارا... لن تموتي!»

وفجأة، اجتاحت الأرواح الفضاء، فاندفع بعضها نحو قمة القبة ليمنع الوحوش من اقتحامها، بينما اتجه البعض الآخر ليحيط بجسد يارا كقفص من نور. عندها صدحت الأصوات في انسجام واحد يخاطب لوسيا:

«لن تموت... لذلك أرجوك يا ملكتنا، أفلتيها!»

ال TFT كارول نحو لوسيا مفتاظاً وصاح:

«لا تكوني أنانية... أفلتيها!»

انفجرت لوسيا بالبكاء، وأرخت قبضتها عن الأوتار. تساقطت بتلات الياسمين فوق وجه يارا الملطخ بالدماء، فيما استقبلتها الورود السوداء التي احتضنها بصمت

مهيب. غير أن ذلك الهدوء تحول لعذاب لاذع لويل؛ إذ انطلقت آلاف الرماح الروحية لتخرقه، فتعالى نحيبه من داخل جسد يارا المتهالك. حاول الفرار، لكن الورود السوداء التفت حوله كحقل كثيف متماوج. والسيف المغروس في قلماها قيد روحه، فلم يجد مهرباً.

وفي آخر لحظة، دوت صرخة مدوية من فم ويل:

«ساعدوني!»



?

في تلك اللحظة التي غلّفها السكون الموحش، كان دم يارا ينفر ببطء ليغمر كل شيء، كان الأرض نفسها تشرب من جرحها. صار الشلال، الذي كان يوماً عذباً صافياً، نهراً من الدم القاني، يتذبذب على الصخور العاتية ويصبغها بحمرة غامقة تشبه الغروب الأخير. والوحوش التي كانت تعوي وتمدد في السماء تلاشت فجأة، كأنها لم تكن سوى كابوس ثقيل أفرغ من صدر الليل. لم يتبقّ سوى جسد المورون الأنثى، الذي ظل معلقاً بين الأرواح ككنز أثقلته المأساة.

حين تلاشت القبة الحريرية، انبعثت الورود السوداء في انفجار من البياض، تحولت كل بذلة منها إلى زهرة ناصعة تنشر ضوءاً بارداً فوق جسد يارا الملقي. بدا المشهد كأنه مأتم سماوي، تتدلى فيه النجوم قرب الأرض، تواسي الأرض الملطخة بالدم.

اقربت لوسيا بخطوات متزنة، قدمها كأنهما تغوصان في طين أثقل من جبل. مدت يدها المرتجفة نحو السيف المغروس في صدر يارا، وأمسكت قبضته الباردة. كان ثقيلاً، وكان كل آلام يارا قد تكدرست في ذلك الحديد. جذبت السيف ببطء، وكلما انسحب انسكبت دماء جديدة، تبلل أصابعها وتلون وجنتيها بصفرة الموت. عيناهما تساقط منهما الدموع بغزارة، تلمع فوق وجنة يارا الباردة، فتزيد ملامحها سكوناً وجلاً. بدت كأميرة نائمة في قبر من الورود، أو كضحية مذبوحة بحنوّ القدر نفسه.

في هذه اللحظة، دوى صرخ كون وجوارا وغبريال، ومعهم أصوات الزوارا الآخرين، يعلو من أسفل الجبل. كانوا يرددون اسمها كابتهاج جماعي، أصواتهم متكسرة بين

الرجاء والصدمة. صداها ارتدّ من بين الصخور العالية، فصار كأنه نحيب الجبل نفسه.

أما كون ، فقد بقي متجمداً، عيناه اللتان طالما بعثتا القوة أضحتا نافذتين للحزن. دموعه انهمرت بصمت، تنحدر عبر وجهه الشاحب مثل شلال صغير يقاوم الانهيار. لم ينطق بكلمة، وكان صمته كان أشد وقعاً من العويل.

اقرب كارول من لوسيا، عيناه تلمعان بتعب قديم، وصوته مشروخ بالندم، وقال وهو يضع يده على كتفها المترجف:

«ربما... هذا هو الأفضل يا لوسي... نعم، هذا أفضل.»

لكن الليل لم يرحم، فقد أرخي ستاره الكثيف على السماء، حتى اختفى آخر شعاع من الضوء. شعر كارول بطاقة تتجدد داخله، طاقة بدت كأنها تنبع من الفراغ، من الأرواح التي اجتمعت حوله كدوائر من نور. راحت تحيط به وتكسوه بأردية من وهج سماوي، ثم زينته بسرج مرصع بالنجوم، كفارس كوني انبعث من صميم المأساة.

غير أن لوسيا، وقد التوت ملامحها بين الألم والسخرية، أطلقت ضحكة مأساوية هزت السكون، وقالت بصوت متحشرج:

«موت يارا... قد أنقذك صحيح؟! لكن... لماذا؟!»

عندما ارتفع صوت عميق من باطن الأرض المفروشة بالورود البيضاء، صوت لم يكن بشرياً ولا روحياً، بل شيئاً بينهما، وقال:

«التوازن... أحياناً يحتاج فرصة ليستعيد فعاليته. لا أحد يخلق كاملاً... كارول كان ينقصه الشجاعة ليُبرز قوته، وربما أنتم جميعاً الهمتموه حتى يحقق غايته. وكذلك يارا... التي تركت وحيدة أمام قوة لم تختارها، وهوية لم تختارها، وأصل لم تختاره.»

ثم استرسل الصوت، وقد انخفض إيقاعه كأنه رجاء آخر:

«لذلك... قبلوا جبينها احتراماً لتعاستها... أرجوكم.»

وما إن سكت الصوت حتى تلاشى كغبار مضيء في الهواء، تاركاً خلفه رهبة صامتة. وفجأة، ظهر الطفل نفسه الذي احتضنته يارا يوماً. اقترب بخطوات ودية، واستلقى بجانبها كأنه يبحث عن حضنها من جديد. رفع وجهه الطفولي نحو لوسيا وكارول، وقال بصوت رقيق مفعم بالحكمة:

«هل تعلمون... أن يارا، تلك التي اجتمعت فيها كل الخصال الجميلة، أساءت لنفسها في النهاية؟ كانت دائماً تنظر إلى السواد الذي يغطي السماء وتقول: ربما هذا السواد هو ما يجعلنا نصبح أنقياء... مثل النور. أنا... أنا مثل عقلها الذي رفضت أن تعتمد عليه، أنا الذي دفعتها لتصبح هكذا. أنا كل شيء بالنسبة لها. أنا الطفل الذي يمثل الحرمان المطلق، والشعور بالحب الحامي الذي أحرق يديها. أنا من جعلها تتعلق بالناس، وربما... هذه لعنة من يصبح بشرياً طوغاً.»

ثم التفت نحوها، وقبل جبينها بخفة، ووضع يده الصغيرة على الأرض المبللة بدمائهما. رفعها إلى فمها الدايل، مسح به، ثم ذابت ملامحه في جسدها حتى اختفى فيه كوميض يُمحى في فجر غامض.

وهنا انحدرت مياه الشلال برفق إلى مجريها الطبيعي، لأن الطبيعة تنفست الصعداء. انفتح باب الجبل بهدوء، فدخل الجميع مذهولين، يبحثون عنها. لكن يارا لم تكن هناك. عندها تقدم الحارس، وصوته أشبه بصرير الأبدية، وقال:

«يارا ماتت... هيا، اخرجوا.»

صعق كون، وتجمدت الكلمات على شفتيه:

«ماتت؟! كيف؟!»

أما غوريال، فلم يصدق، فاقترب من الحارس بعينين دامعتين وصاح:

«أنت تكذب!»

لكن الحارس بسط كفه، فظهر جسد يارا، مسجى بلا حرalk، وجهها شاحب كالقمر، وشعرها منثور كجدائل حريرية بين ورود بيضاء. رفع الحارس صوته مرة أخرى بصراحة آسرة:

«هيا... اخرجوا. سيعود كل واحد منكم إلى موطنها. لقد حل الليل بالفعل... اخرجوا.»

جوارا، الذي بدأ ينسحب عائداً بخطوات متربّدة، أحس فجأة بسعة ألم حارق تشقّ عينه اليسرى، العين التي انسكبت عليها دماء يارا الدافئة. الدماء لم تكن مجرّد قطرات، بل كانت تغلي داخله كحّم متفرّجة تبحث عن مخرج، فصرخ بصوت مبحوح وسقط يتلوّى على الأرض، جسده يرتعش كقصبة في مهبّ ريح عاصفة، وصوته يخترق الصمت الثقيل وهو يصرخ بأعلى ما يملك:

«ياراااا... ياراااا... ياراااا!!»

ومع ذلك، وعلى حين غرّة، انطفأت صرخاته فجأة، وخيم عليه سكون خانق، ثم فقد وعيه كشمعة انطفأت في ريح. ارتبك الجميع، عيونهم تبحث عن تفسير عاجز، بينما كان جوارا قد انغمس في مشهد داخلي رهيب، رؤية اجتاحت وعيه الممزق بلا استئذان.

فجأة، وجد نفسه واقفاً وسط فضاء أبيض صافٍ، بياض يلسع البصر بحدّته، لا يقطعه إلا ورود حمراء مبعثرة كالدماء المراق على ثوب ناصع. وفي قلب هذا البياض

الموحش، انتصبت مرأة ضخمة، ذات إطار أسود قاتم كليل بلا قمر، تُشعّ ببرهبة لم يعرف لها مثيلاً.

اقرب بخطوات مثقلة، وكلما اقترب، ازداد قلبه خفقاناً كطبول حرب. وحين دقق النظر، إذ به يرى طفلة صغيرة ملتصقة بزجاج المرأة. كانت يارا... ولكن في هيئة طفلة، محاصرة بدموع غزيرة سالت كالأنهار، حتى حُيّل إليه أن الفضاء كله يقطر حزناً من بكائها. وما إن رأته حتى هرعت تحاول معانقته، غير أن سلسلة فولاذية متينة بربت فجأة من العدم، فالتفت حولها كأفعى ضخمة، وشدّتها بقسوة، لتصدّها عن الوصول إليه.

حينها، دوى صراخها في أذنيه كخناجر حادة تمزق الوعي، حتى إن طبلتيه كادتا تنفجران بالألم. ارتبك أنفاسه، وصدره امتلأ بخوف متشابك كشبكة عنكبوت خانقة تضيق عليه أكثر فأكثر مع تصاعد أنينها.

ثم، وقبل أن يتمالك نفسه، تجمدت قدماه كالجليد، إذ ظهر أمامه مشهد أشدّ رعباً. كان جسد ضخم لامرأة، وجهها اقترب حتى غطى الأفق، وعيناها اتسعتا بشكل مخيف، كهاوية لا قرار لها. زفرت بقوة، فداحت أنفاسها الساخنة وجهه، رائحة حامضة خانقة جعلته يختنق، وقالت بصوت عميق يرثى كيانه:

«بُني... اعثر عليّ.»

ارتجمف جوارا، تلعم صوته وهو يتراجع كمن يسقط في هاوية:

«مستحيل... أنتِ؟! أنتِ... مستحيل... مستحيل!»

ابتسمت المرأة ابتسامة دامية، ارتعش لها الهواء، وقالت ببطء ثقيل كجرس نحاسي:

«ليس مستحيلاً... أنا والدتك. ابحث عنِي...»

لكن، وبلمح البصر، تبخرت هالتها فجأة، وتلاشت كدخان أسود يتلاعب به الريح. وما إن اختفت حتى أحس جوارا بصفعات متتالية تنهال على وجهه. فتح عينيه المرجفتين، فإذا بيارة أمامه، تصفعه بلا هوادة، ودموعها المختلطة بالدماء تتناثر على وجنتيه.

في تلك اللحظة، كان ينづف بشدة، الدم يتفجر من عينه كنافورة حمراء، ومع ذلك لم يُبال، فقد كان جسده كله ينبض بشعور أعظم: طنين مرعب يتربّد في أذنيه مع كل ضربة قلب. بالكاد استطاع أن يتذكر ملامح المرأة العملاقة، لكن وقعتها لم يزل ينهش عقله كتاب غائر.

وفي الخارج، كان كون يهزّ ابنه بجنون، عيناه جاحظتان من الذعر، صوته يتكتّر وهو يصرخ: «غابريال! تعال... ساعدني!»

إذ كان يرى الدماء تنهمر بغزارة من عين جوارا اليسري، بينما يده المبتورة تنزف بلا توقف. وحين لمس عينه، ارتعش جسده كله، فقد رأها تنفتح وتتسع بشكل غير طبيعي، كأنها بوابة مظلمة تُطلّ على عالم آخر.

?

أما في داخله، فقد كان جوارا يصارع صور يارا المتحولة. في كل لحظة كانت تتبدل: مرتّة في هيئة جده، وأخرى في هيئة عمه، ثمّ وجوه مألوفة من شعب الزوار، قبل أن تنقلب إلى ملامح غريبة من الرون والمورون. ومع كل تحول، كان الخوف يعصر قلبه أكثر، كقبضة جليدية تزداد شدّة. لكن ما شدّ انتباهه هو الهمس العميق المتسرب من أعماق المرأة السوداء.

اقترب أكثر، وإذا به يرى يارا محاصرة داخل المرأة، تحاول الصراخ، لكن يدًا قاسية غطّت فمها بقوة. أصيّب بدوّار شديد، شعر أن معدته ستُنقلب من هول ما يرى. رفع بصره نحو الكيان الذي أمامه، فارتعد إذ اتّخذ شكلًا أشدّ بشاعة: عيناه مشعتان بهلع يفتك بالقلب، وفجأة مدّ إصبعه الكريه إلى عين جوارا، واقتلعها بلا رحمة، ثم رفعها إلى فمه وأكلها بوحشية، الدم يتقطّر من شفتيه وهو يقول بصوت مبحوح بالغلّ:

«التضحيات... لابد منها لاستمرار الوهم. انظر إلى بطلتك يارا... الجميع يظنون أنها بطلة، وأنها أنقذت الشلال... لكنها جبانة!»

وما إن ارتفع صوته حتى دوى كهدير عاصف، وفي لحظة خاطفة تكسّرت المرأة كزجاج هشّ، لتكشف عن يارا وهي تتالم من سكين يُغرس في عينها ماراً بلا رحمة. الدماء انهمرت منها كالسيل الجارف، حتى بدا نزيفها أفعى من جرح جوارا نفسه.

وفي الجهة الأخرى، أحسّت لوسيا باضطراب رهيب في حركة الأرواح. ارتعشت أناملها وهي تحذر كارول، الذي اندفع بدوره نحو جسد يارا. وما إن اقترب حتى رأى التعويذات نفسها التي ظهرت أول مرة وقد غطّت جسدها، فيما بدأ صوت الكون يتتصاعد من باطن الأرض، جهوريًا وعميقًا، يهدّر:

«أخرجوا... يارا من هذا العالم! هيا! هيا! سوف تهلكون!»

لكن فجأة، انقطع الصوت كأنه اختنق، ليظهر على معصمي يارا بثور سوداء، كأنها آثار أصفاد قديمة. عندها، أطلقت الأرواح صرخة حادة شقت السماء، واهتزّت الأرض، فيما احترقت الزهور البيضاء بلهيب أزرق غريب يتتصاعد من العدم.

رفعت لوسيا كمامها المرتعش، تهتزّه بعنف، فتفجّرت منه طاقة هادرة تحاول صدّ القوى الدخيلة عن التسلل إلى الشلال. ومع ذلك، تردد صدى تمزّق عجيب، كأن شيئاً هائلاً يريد الخروج من تحت جسد يارا.

وفي خضم كل هذا، كان جوارا يئن ويتلوّى بين الحقيقة والوهم. لم يفهم ما يجري، لكنه جمع ما تبقى من قوته، وركل الكيان بقوة هائلة حتى تلاشى أثره. وفي لحظة

عاشرة، ظهرت يارا أمامه مقيدة من معصميهما كسجينه معاقبة، وبطنها يتفجر منه سيل من الدماء التي انسابت حتى بللت قدميه.

ركض بجنون نحوها، كل خطوة منه مثقلة بأصوات الرصاص المدوي في رأسه، لكنه لم يتوقف، بل اندفع حتى بلغها. هناك، توهج جبين يارا فجأة، ورُسمت على عين جوارا المصابة تعويذة مشابهة لتلك التي نقشت على جسدها.

رفعت رأسها بصعوبة، أنفاسها متقطعة، وصوتها يقطر ألمًا وهي تلهمث: «روحـي... تـحـرـق بـسـبـبـ وـيـلـ! أـرـجـوـكـ... سـاعـدـنـيـ! لـقـدـ نـقـلـ إـلـيـ جـزـءـاـ منـ سـحـرـهـ المـحـرـمـ، وـلـهـذـاـ... سـيـتـأـثـرـ العـالـمـ كـلـهـ. أـرـجـوـكـ... هـذـاـ لـاـ يـحـتـمـلـ. أـنـتـ تـسـتـطـعـ يـاـ جـوـارـاـ... دـمـائـيـ المـلـوـثـةـ بـطـاقـةـ وـيـلـ قـدـ سـقـطـتـ عـلـىـ عـيـنـكـ... أـنـتـ سـتـعـاـقـبـ مـعـيـ. أـرـجـوـكـ... اـفـعـلـ شـيـئـاـ... أـرـجـوـكـ!»

وتواصل صراخها مع الطعنات الغامضة التي كانت تمزق جسدها بلا رحمة، فيما رأس جوارا يغلي من الداخل، كبركان يوشك أن ينفجر، بسبب الكيان الذي تغلغل في كيانه. بدأ يفقد وعيه تدريجياً، ودون أن يدرك، أخذ يلطم الهواء بجنون، كمن يقاتل وحشاً خفياً يتربص بروحه.

كان جوارا يتارجح في الفراغ، يلوح بقبضتيه يمنة ويسرة كمن يهاجم أشباحا خفية لا يراها أحد غيره. كل حركة منه كانت متسلجة، مرتبكة، مليئة برعب داخلي يعصف بروحه. ظل يضرب الهواء بلا توقف، حتى خارت أنفاسه فجأة وتجمد جسده إثر صرخة حادة اخترقت السكون. كانت صرخة يارا، قوية ومزلزلة، دوت في أذنه كقنبلة مزقت الفضاء الأبيض إلى شظايا، لأن المرأة العظمى التي تعكس هذا العالم قد تحطمت، وتناثرت قطعها الحادة تمزق كل ما تعرض له. إحدى تلك الشظايا اخترقت صدره، فارتجمف بقوة، شعر بألم لاذع يخترق أوردته حتى كاد قلبه يتوقف عن النبض. انتفض جسده كطائرة أصابته رصاصة، ثم انفتحت عيناه مذعوراً، ليجد نفسه بين ذراعي والده، يلهمث كمن يختنق تحت ماء عميق، وأنفاسه تتهاوى مثل شمعة أو شكت أن تذوب.

[٤]

كان كون يضغط بكلتا يديه على صدر ابنه في يامن، وجهه مبلل بالعرق، وعيناه تفضحان ذعراً لم يعرفه من قبل. ارتجمفت شفتيه وهو يصرخ من أعماقه، صوتاً حطم الصمت واستدعى تاتا. ولم تمض ثوان حتى ظهرت الأخيرة، كبرق يشق الفراغ بضوء مفاجئ. ارتسمت علامات الدهشة على وجوه الزوارا الذين اعتقادوا أنها قبضت منذ زمن، غير أنها رفعت يدها بحزم، تسكن ارتباكيهم وتشير إليهم بالصمت. كان صوتها متقطعاً، منهجاً، أشبه بأنفاس آخر الليل حين قالت:

«كِدتُّ أُقتل... لكن دخول يارا إلى الشلال أوقف ويل في اللحظة الأخيرة. لقد تجاوزني بسرعة لم أعهد لها قط.»

غير أن كلماتها مرت على كون كالريح العاصفة، لا يستوعبها ولا يريد أن يستوعبها. أمسك يدها بقوة، نبرة صوته متسللة، مشبعة بالانكسار:

«تاتا... ابني! أرجوكِ، أنقذيه!»

على الأرض، كان جوارا يتلوى كالمحموم، جسده يرتعش ووجهه يتورم ببطء مرعب. عينه بدأت تنكمش خلف طبقة سميكة من جلد متغضن، ينبعض فيها وميض موجع كطعنات لا تتوقف. انحنت تاتا بخطوات محسوبة واقتربت من عينه، لكن فور أن لامستها، صدمتها طاقة جارفة دفعتها للخلف كأنها ارتطمت بصاعقة. رفعت بصرها بدهشة فرأت التعاوين تغطي كامل جسده، من قدميه إلى ذراعيه، نقشاً أسود يحاصر كيانه. اتسعت عيناه وأدركت الحقيقة، فتمتمت بصوت مبحوح:

«إنه العقاب... دماءه تلوثت بدماء السحرة. وهذا العالم لا يرحم... كل من يتسرّب السحر إلى جسده، ولو بالصدفة، ينال القصاص نفسه.»

شhec كون، وغص قلبه بغصة مريمة، وضع كفه المترجف على يد ابنته الدامية وهو يصرخ بحرقة:

«لكن ويل... كان ساحراً! كيف نجا إذن؟! وما ذنب ابني؟!»

تنهّدت تاتا ببطء، عينها تلمعان بخليط من الأسى واليقين، ثم أجابت:

«ويل لم ينجُ صدفة... لقد قدّم تضحيات جسيمة لمهرب من العقاب. استبدل دمه
بدماء غيره، وأخفى أثره عن الحكام الكونيين.»

ارتفع صوت كون مذهولاً، مبحوحًا بالغضب:

«كيف فعل ذلك؟!»

ترددت تاتا، وكأن الكلمات تثقل لسانها، ثم التفتت نحو غابريال الصامت، نظرة حزينة تفصح سرًا دفينًا. قالت بصوت خافت، كمن يكشف لعنة قديمة:

«غابريال... لم يولد من أمكم. أمه تملك دماء نقية... من عالم آخر. ويل لجأ إلى هذا الطريق، لينجب أبناءً خارج هذا العالم، فيتواري عن أعين الحكام.»

تجمد كون، حدق في ابنه مذهولاً، وعيناه ترتعشان وهما تهجمسان:

«إذن إصراره على مقابلة غابريال...»

أومأت تاتا ببطء:

«نعم... كان مصيره مرسومًا منذ لحظة ولادته. الموت، ليستر قوة ويل و لكن قبل أن يجد هذا الحل، كان القتل شففة الوحيد... قتل والده، وقتل زوجتك، كي يمتص

دماءهم ويصهرها بدمه. الوحوش العاقرة لم تكن سوى نتاج طاقته مع طاقة يارا...
وحوش يمكن تشكيلاً ودمجها، حسب حاجته.»

ارتجم قلب كون، صدره يشتعل بحرقة، لأن السكين تعمق طعنها داخله. ضغط على يد ابنه أكثر، وصوته متكسر: «إذن... دماء ويل... سرت في ابني.»

أومأت تاتا، وملامحها مثقلة بالأسى: «نعم... حين امتزجت طاقة يارا بدمه، كان أثر ويل واضحًا. بعض قطراته تساقطت على جوارا، وربما أصاب يارا أيضًا.»

صرخ كون، مذهولاً:

«يارا ماتت! كيف تتأثر؟!»

لكن تاتا ابتسمت، ابتسامة رقيقة فيها بصيص أمل: «يارا ليست مثلنا... طاقتها عصية على الفناء. حتى إن مات جسدها، تبقى روحها متحركة من الموت.»

مدّت يدها تمسح شعر جوارا المترعرق، ثم همست بحزم:

«سأُسكن ألمه مؤقتاً... لكن علينا مغادرة هذا المكان حالاً. وغابريال... يجب أن يرافقني.»

انتفض غابريال، دهشة تملأ صوته:

«أنا؟! إلى أين؟!»

ابتسمت تاتا ابتسامة تحمل غموضاً:

«أنت ترياق هذه اللعنات، يا صاحب الدم الجوري.»

ارتبك كون، ارتعشت حدقتاه وهو يهمس:

«تاتا... ماذا تعنين؟!»

اقربت من غابريال وربت على رأسه بخفة:

«دمك نادر... مختلف. أمه من عالم لم يفسده الشر، عالم زودنا لديه قوة ندية لا نملكونها.»

شhec غابريال مذهولاً:

«كيف؟!»

ابتسمت، نظرتها دافئة على الرغم من قسوة الموقف:
«شعرك البلاطيوني، عيناك الباهة، كلها إشارات. لقد زرت ذلك العالم يوماً، ولم أظن
أن الملكة نفسها ستترجم على التزاج مع ذلك النتن... لتنجبك. دماء أمك انتصرت
فيك... وهذا أعظم ما في الأمر.»

ازدادت ملامح كون اضطرباً، صوته جاد، ملهوف:
«تاتا... ماذا نفعل الآن؟!»

اقربت تاتا من جوارا، حضنته بحنان، ثم رفعت بصرها نحو يده المبتورة وسألت
بقلق:

«ماذا حدث له؟»

تدخل غابريال على الفور:
«كنت معه... هاجمنا قطيع من الوحوش العاقرة. كنا محاصرين، ولم نجد مهرباً.
جوارا ضحى بيده لينقذني. سموهم أحرقت ذراعه، فقطعها بنفسه قبل أن ينتشر
السم.»

?

أطربت تاتا رأسها، تنبيدة حزينة خرجت منها:

«فتى شجاع... جوارا قلبه نقى.»

لكن كلامها قُطع بصوت مدوٍ فجأة. الشلال انفجر بصوت كالرعد، واندفعت منه الأرواح بالمئات، هاربة كقطع زجاج تكسرت من انفجار داخلي. في خضم الفوضى، شق صراخ يارا الأجواء. كان صراخها حاداً، معدنياً، يخترق الأذن كالخنجر. غطت تاتا أذنها بسرعة وهي تصرخ بالآخرين:

«أغلقوا آذانكم!»

على الجانب الآخر، كان كارول يصد الأرواح، يدفعها بعيداً عن الشلال. لكن يارا كانت تتمتم بكلمات غير مفهومة، تعاويند خرجت من أعماقها، فانفجر من صدرها ثعبان أسود عملاق. انقض عليه كارول بجرأة، مزقه، لكن لوسيا صرخت مرتجة:

«تذكرة كلام الكون! يجب أن ننفذه فوراً... السحر سيدمر المكان!»

?

زمرة كارول، عض على شفتيه:

«ويل... أئها الخائن الماكر!»

ثم اندفع نحو يارا، رفعها بين ذراعيه، وأخرج حجراً من جيده، تحول في لحظة إلى وحش عملاق. أمره أن يحملها بعيداً.

حين رأته تاتا، صرخت بصوت حازم:

«هيا! اتبعوه! يجب أن نخرج قبل أن ينفجر كل شيء!»

مدّت يدها للجميع، أمرتهم بلمسها، ثم صفت بكفّيهما، فإذا بهم ينتقلون في لحظة إلى حافة العالم. هناك، استلقت يارا بجسدها مغطى بالكدمات والتعاويذ السوداء، بينما تحتها ظهرت عين مظلمة، شبيهة بتلك التي ابتلعتها سابقاً. عين أخرى ارتسمت تحت جوارا.

صرخت تاتا:

«غابريال! اقترب!»

اقترب مذعوراً، لكن تاتا خدسته في إصبعه، فانهمر دمه بغزارة، تشكّل على الأرض جذور دموية أحاطت بهما، رسمت دائرة متوجّحة. شعر بدوار، ساقاه ترتجفان.

نظرت تاتا إلى كون بحزم:

«يجب أن نصنع جسراً جديداً... الرابط القديم انهدم.»

ضربت الأرض بعصاها، فانشقت إلى اثني عشر وادياً امتلأت مياهاها، ومن أعماقها
خرجت أذرع ذهبية عملاقة، رفعت بوابة نورانية. صاحت تاتا وهي تحمل يارا:

«تقدمو! تسلقوا الأذرع، الباب لن يبقى مفتوحاً طويلاً!»

لكن كون تجمد مكانه، فقد باغته فيضان أسود يتدفق نحوه. ارتجف وهو يرفع
قدميه، وحين لمس الأذرع، اختفى في الضوء.

أما تاتا، فتمتت بتعويذة، صرخت:

«غابريال! تسلق! اذهب!»

انطلق رغم دواره، بينما تاتا تابعت تعويذتها، تصرخ:

«أيتها الأرض... سامحينا، وارجمي بالنار كل من دنس شرفك!»

في لحظة خاطفة، تبخرت، واختفت الأذرع الذهبية، وعاد المكان إلى سكونه... كما لو
أن شيئاً لم يحدث قط.

إغروقت عيناً ياراً عند ملامستها لتلك المياه الفضية؛ مياه غريبة كأنها مرآة أبدية تعكس ما هو مدفون في أعماق الروح. رأت فيها وجه أمها الراحل، ثم وجهاً آخر لأشخاص مرّوا ب حياتها وتركوا فيها جراحًا لا تندمل: رون، أزيل، والكثيرون ممن هلكوا أو أصابتهم لعنة مرافقتها في هذا الدرب الموحش.

كانت تمسح خديها بارتباك، والدموع الساخنة تتتساقط وتعانق مع التربة بحرارة، قبل أن يتراهى لها طيف فتاة جميلة ذات شعر بلا تيني متلائمة وعيون باهتة، تدور من حولها بخفة. انحنت تلك الفتاة لتترك على جبين يارا قبلة عابرة، ثم تبددت كضباب كثيف يذوب في الهواء.

شعرت يارا أنها تريد التخلص من ذلك العبء الثقيل الذي يسحق كاهلها، وربما تخلصت منه في بعض المحطات، لكن الألم ظل راسخًا لا يزول. اليأس كان يتغلغل فيها ببطء سام، وإحساسها بأنها بلا هوية تحمي كرامتها جعل عجزها يتضاعف. الجميع يتلذذون بجسدها، يطمعون في قوتها، يلهثون وراء كل استعراض تقوم به، بينما هي تعلم أنها لم تستعمل بعد سوى جزء ضئيل من طاقتها. ومع ذلك، تلك القوة أفقدتها طعم البهجة. توسّلت، وركعت، وعوّقت، وتشوهت براءتها المعهودة، لكنّها ظلّت مطمئناً للكل.

فتحت عينيها المثقلتين بالدموع، لتجد نظرات "تاتا" الهدئة ترمقها. يارا كانت تعرف أن تلك المرأة العجوز تحمل نصف أسرارها، ليس في هذا العالم فقط بل في العوالم التي تُساق إليها كرهاً. كانت

؟

تعلم أن "ويل" يريد جسدها ليفلت من العقاب، ومع ذلك صمتت تاتا وكتمت الحقيقة، ثم قادتها نحو مصير لم تختره. صرخت يارا حينها، وللحظة خرجت كلماتها كبركان مكتوم:

ـ يكفي! أحقاً لم يعد لي حتى حرية الموت بهدوء؟

بدت يارا على وشك الانهيار، دموعها تحاصرها لكنها قاومت البكاء. نهضت، فرأت "جوارا" مستلقياً أمامها والجميع يحدّقون فيها بدهشة عمياء، كأنّهم يقفون أمام إلهة سماوية. وضعت يارا كفيها على وجهها محاولةً إخفاء يأسها، لكن الدموع تسللت من بين أصابعها المنهكة، لتسقط قطرة بعد أخرى على البحيرة المغمورة أسفلها. أدركت، وللمرة الأولى، أن مصيرها محتوم: هروب، فهلاك، فعقاب. وما جعلها تنفجر بالبكاء أن كل من تحب سيلقى الهاك إذا ما واصلوا مرافقتها في خطواتها الملعونة.

وفجأة، اقتربت منها امرأة فاتنة الملامح، شعرها البلاتيني المتموج انعكس بريقه على سطح المياه الفضية. أزاحت يدي يارا عن وجهها، وقبلت عينيها المنتفختين قائلةً بصوت ملائكي خافت:

إهدئي يا صغيرتي... أنا أفهمك.

كانت تلك الكلمات كشارة أشعلت فيضاناً من المشاعر المكبوتة. اندفعت يارا محطمة كل قيودها الوهمية، وغرقت في البكاء بصوت شجيّ ملأ المكان. احتضنتها الملكة بحنان، بينما تنظر تارة إلى غابريال وتارة إلى جوارا. ثم أومأت إلى تاتا بأمر حاسم:

أحضري الجميع إلى قصر البياض... سوف نسوي الأمر هناك.

تعلّقت يارا بفستان الملكة، غير مبالية بخطواتها الرصينة ولا بهزاتها الهدائة. رفعت رأسها فجأة، فانهارت بمشهد قصرٍ عملاق، فخم، يزيّنه وهج بلوري؛ ورود كريستالية لامعة تحيطه من كل جانب، والماء يسري في أرجائه بانسياب أخّاذ. أكثر ما أذهل يارا أنها كانت تخطو فوق بلاط زجاجي هش، وتحتها أمواج عميقة تعج بأسراب الحيتان العملاقة، وكأنّها تمثي في قاع البحر.

صرخ غابريال بانهيار، صدى صوته ارتدّ حتى أعلى القبة المطرزة بخيوط فيروزية. وعلى عكس عالمهم البائس، انفرجت تعابير الجميع وانطلقت فرحتهم كنسيم بارد يثلج القلوب. أمّا جوارا، فرغم انهياره، بدأت آثار التعاويند تختفي تدريجياً. وتبدّلت هيئة الفتاة التي رافقهم، لتغدو في مظهر نبيل يليق بالعصور الملكية.

انفتح باب القصر على مصراعيه، وأفلتت الملكة جسد يارا التلامس قدماها ببرودة الأرض الزجاجية. امتزجت المياه الفضية مع الزجاج في مشهد أسر القلوب والأنفاس. التفتت الملكة نحو تاتا وأمرتها:

الجري سينقلون إلى غرفة التطهير... تابعي الأمر، وليرافقك كون. أما يارا وغابريال، فسيأتون معي.

لم تُعر يارا اهتماماً للأوامر، فقد غمرتها روعة المكان. همسَت بخفة، وكأنّها تخاطب نفسها:

جميل...

ابتسمت الملكة ابتسامة غامضة ثم أمسكت بيدها لتجاري خطواتها. دخلت القاعة الكبرى: نوافذ عالية من الزجاج الأحمر القاني، منقوشة عليها صور نساء فاتنات بإبداع فني، وخزانة منحوت عليها جناح أصفر مهيب يلتف حول الجدار، وطاولة دائمة ضخمة تتوسط المكان.

أجلست الملكة غابريال، بينما بدت يارا كرضيع يتعرّف في خطواته، فاحتضنتها الملكة بحنان، ومسحت على شعرها الأبيض قائلةً: روحك لم تتعافَ بعد... اجلسي، لا تعبثي بالأشياء.

ابتسمت يارا بسخرية طفيفة وهمست:
ربما كانت محاولي للموت يائسة هذه المرة... سأحاول من جديد في المرة القادمة.

جلس غابريال محدّقاً في الملكة "أنيت"، فتنهدت بعمق وقالت بجدية:
أعلم أنّكم لجأتم إلى هنا للضرورة، لكن ذلك لن يمرّ دون عواقب وخيمة. وأعلم يا
يارا أنّك تتجنّبين استخدام طاقتكم، بل تحاولين تخريب توازنك عمدًا.

تأملت يارا وجه الملكة طويلاً قبل أن تقول:
صحيح... حينما استخدّمت طاقتكم للحظة واحدة فقط، عثرت على منفذٍ
للدخول. ولمنع الضرر، ختمت طاقتكم حتى يفرغ هو سحره في جسدي. لم أكن أعلم
أن جوارا سيتأذى بذلك...

ضربت الملكة الطاولة بعنف، وقالت بعصبية:
غباءٍ هو ما أوصلكِ لهذا! ألم تعلمي أنّ ويل استغلكِ لينقل سحره المحرّم إليكِ؟
ألم تعلمي أن روحك قد تضررت، وأن جوارا سيدفع الثمن معك؟

خفضت يارا بصرها هاربةً من نظراتها، وقالت ببرود مستسلم:
لا أريد أن أكون بطلة أو منقذة... إن كان العقاب قدرني فسأتحمله. ولا تقلقي،
سأخرج جوارا من هذا الأمر.

عندما صفعتها أنيت بقوة، صدى الصفعه ارتج في القاعه، وصاحت بغضب: . بئسأ لك يا غبية! قوتك تكفي لغير مجرى العوالم كلها، وأنت تضيعينها بأنانيتك. لولا هروبك الأهوج لما استطاع ويل سرقة طاقتى ودمجها معه لإنجاب غابريال! أنت من مزق الروابط بين العوالم، وأنت من سمحت له بالنفاذ إلى هنا... السحر المحرم أقوى من السحر النجمي، ولم أستطع صده بسببك!

تبدرت ملامح غابريال فجأة، بينما توجّمت يارا، ونهضت من مكانها وقالت بحدّة: . وماذا تريدون مني إذن؟ ألا تستطرون إنقاذ أنفسكم من دوني؟ لقد دفعتُ ثمن إنقاذ ذلك العالم مئات المرات، سحر ويل الذي اخترق جسدي يمزقني ويقودني للجنون! لا تحكموا عليّ قبل أن تعيشوا ما عشتُ أنا من عذاب!

فقالت لها أنيت، وصوتها يرتعش من الغيظ الذي كان مدفوناً منذ سنين خلت، كأنه بركان قديم بدأ يتفجر:

«إخرسي فحسب.. أنت فتاة خرقاء وغبية وغير ناضجة... على الأقل احترمي الناس الذين كابدوا عناء غبائك. وماذا بعد موتك؟ هل تظنين أن موت المختارين سيكون سهلاً كما تتصورين؟

سوف تكملين مهمتك، شئت أم أبيت، لأنك ولدت لأجل هذا أيمها الغبية، ولأجل هذا كله نحن رفعناك رغم بؤسنا، ورغم علمنا بأننا ضعفاء.

هل تعلمين كم تعذبت من أجل الحفاظ على مملكتي لتسع قرون من الحروب الضاربة، فقط بسحر لا ينفع لشيء؟ هل تعلمين أيتها الجاجدة كم تحملت فراق إبني؟ كنت أعن الكون كله لأنه اختار فتاة ضحت بقوتها من أجل مشاعر بشرية ذابلة... هل تظنين أن تقمص دور بشري سوف يخلصك من شعورك؟ أجيبي.. ألم تتعلمي شيئاً من عالم الرماديين؟ ألم يلقنوك فن النسيان المميت؟ يجب أن تنسى ماهيتك القبيحة لتسيري فوق الجمر.. ألم يحن وقت إظهار عظمتك؟ ألم يحن الوقت أيتها المتباهية بالضعف؟ وهل أفادك الضعف شيئاً؟ وكذلك الدموع، هل دفعت لك ثمن طموحك المستحيل هذا أو مجاملاتهم الهاوية؟ هل غيرت وضنك؟ الجميع يعرف جهلك وغبائك، لكن لأنهم متاكدون أنك أكبر من هذا، لقد وثقوا فيك أكثر من أنفسهم. هل ختم قوة ذلك الشيطان في جسدك سوف يعينك على الموت؟ لن تموتي، بل سنموت نحن لإنقاذه، يا منقذنا.»

؟

ثم سقطت آنيت مغشّاً عليها، وارتطممت الأرض بجسدها كما لو أن الزمان نفسه توقف عن الدوران للحظة، والصمت الخانق غلف الغرفة.

وقفت يارا، ووجهها يكسوه الظلام الداخلي من وقع الحقيقة التي حاولت جاهداً أن تخفيها عن نفسها، لأن شبحها الداخلي ظهر فجأة ليواجهها. لكنها ابتسمت ببطء،

وعيونها تلمع بمزيج من الحزن والامتناع، وهي تنظر إلى آنيت الممدة بين ذراعي غابريال الصامت، الذي بدا كتمثال مرسوم بدقة في ساحة خاوية من المعنى. قالت يارا، وصوتها يهتز بين الحزن والارتباك:

«قد خذلته القوة... أنا آسفة، أنا لا أعرف ماذا أفعل أو أين أذهب أو كيف سينتهي هذا... كنت أعتقد أن ابتعادي سيعيد السلام، لكنني أخطأت، وأن انجذابي الأعمى لهذه المشاعر سيعتني من هذه الوحدة، لكنني أخطأت مرة أخرى... أو أن ذلك العقاب سوف يجبرني على أن أكون قنوعة، لكن هذا لم يحصل. لقد خسرت وتحطمت، وانثرعت كرامتي وهويتي... وكل شيء.

أنا لست بشريّة. لست من الرون، ولست من الزورا أو المورون أو الرماديين أو عالم البشر. أنا من عالم تتماهي فيه المتناقضات، الذي يظهر مرة واحدة ثم يندثر... أنا أعرف من أين بدأ كل هذا. لقد سمح لي الكون أن أكون في منتصف كل شيء، لكن هذا مؤلم... أن لا تجد سرّياً تأوي إليه، أو حضناً يصفلك لتهض من جديد.

آنيت، أنت محقّة تماماً، أنا لست ناضجة ولن أنصح، وسأبقى الفتاة العابسة التي تتذبذب مثل لهب لم يعرف مصدر ثباته.»

فجأة، سمع صوت جر أقدام ثقيلة يقترب من الباب، واندفعت دفة الباب بعنف، كأنها تقاوم كل الهواء حولها، ليظهر جواراً واقفاً بصعوبة، وعيونه تحمل مزيجاً من القلق والإصرار، بينما كانت صدى كلمات يارا يتعدد في أرجاء القصر، يلف كل زاوية وكل حجر. جذب يديها وعانقها بكل دفء، لكن ما شد انتباها يارا كان ذراعه المبتورة التي تجددت أمام عينها، كمعجزة صغيرة تهز روحها.

ثم ظهرت تاتا وكون، وكأنهما قطع من الأحلام تراقص في الواقع، وقالت تاتا بصوٍ
مفعم بالقوة والهدوء:

«أنت يا يارا مزيج من السقم اللعين والشفاء الذي يعافي المريض.»

آنئت، التي بدأت تصحو تدريجياً، طارت فجأة بين يدي غابريال، وقالت:
«أنا سأذهب، ويا يارا، لا تغضبي مني، فجرحي أقسى من كل ما تحملينه، وأنا آسفة
على كل ما قلته، لكن من الجيد أنك سمعت الحقيقة.»

ثم تبخرت، كأنها لم تكن موجودة من الأساس، وارتسمت الدهشة على وجه غابريال،
وهو يحملق إلى جوارا الذي يجرف يارا بين أحضانه بحركة حانية وملؤها الحماية،
وهمس بصوت مبحوح:

«اتركونا، أريد أن أحدثها قليلاً.»

نهض غابريال من الأرض، وعيناه غارقتان في بحر من المشاعر، لا تتزحزح، وأغلق
الباب خلفه، مغلقاً العالم كله عدا لحظة هذه العناق، بينما ظل جوارا متمسّكاً بيارا
وقال بصوت هادئ و مليء بالحنان:

«قبل أن نخرج من ذلك العالم، رأيتكم في حلمي تسبحين في فضاء أبيض ناصع. كنت
تطعنين مراراً وتكراراً، وكان الألم يتداخل مع صوتك الحزين... أنا أفهم شدة هلعك يا
يارا، فليس من السهل أن يمتلك شخص بمثيل رقتكم هذه القوة الصارمة، وكنت
أعرف أنك غير مؤهلة لمثل هذا التوازن منذ البداية. ولو أعيد إحيائكم مئات المرات،

لن تفلحي لأنك غير جاهزة. ومنذ أن تأملت عيونك الزرقاء ونحن صغار، كنت أنظر إلى عذابك في هذا العالم وكل العوالم. لذلك، لا تنتظري من أحد أن يمدك بالحنان الذي حرم منه. هناك القليل الذين يمتلكون القدرة على السخاء بهذه المشاعر التي تحملينها، وإن بدت أنانية لأنك تريدينها مهما كان الثمن.

طعم السعادة لا يذاق بسهولة، لكن أنت رائعة بخيباتك وعيوبك، وبكل ما تحملينه من صفات... كنت أحبك لأنك تشهين شخصاً كنت أعرفه، لكن الزمن محق ذكراء مني، فغرسه فيك. لا تفقدي الأمل في العثور على هذه المشاعر، فهي باهظة، فأجسادنا عرضة للفناء والزوال، لكن ما نكتنه في قلوبنا لا يمحى، حتى لو أقتلعنا من رحم الخير نفسه. حتى لو كنت شريرة، فأنت جيدة في نظري ونظر الجميع. الملكة كانت تقول ذلك تحت تأثير تجاربها في الحياة، وكلامها معقول، لأنك لست قادرة على تغيير مكانك في هذا العالم، وعلى هذا النحو تستمرين في تغييره حسب ما تريدين، وأنت تعلمين جيداً أنك قادرة على تغييره.»

?

قالت يارا، وهي ترفع رأسها من حضنه، وتتراجع قليلاً لتنفس بعمق، وعيناها تحملان حزناً مختلطًا بالعزم:

«أعلم هذا يا جوارا، وأعتذر لكم جميعاً، لكن بما أنني ختمت قوتي، فلن أستطيع التخلص من قوة ويل... تعرف، أستطيع امتصاص قوة الآخرين وإخراجها في أشكال عده، لكن قوة ويل محرمة. لذلك، لا أستطيع إدماجها مع العالم.»

قاطع جوارا كلامها وهو يضع جسده على الكرسي، عيناه تتوهجان بالفضول والقلق:

«كيف لختم قوتك أن يفيد؟ أخبريني.»

قالت يارا وهي تحدق فيه بعينين مثقلتين بالوعي:

«امتصحت طاقة الشيطان، التي هي منبتها العالم نفسه، لكن طاقة ويل مصطنعة
وليست من العالم، لذلك عالمنا يحظر كل طاقة تظهر خارج أصل الطاقات الأخرى،
مثل طاقتى. وعندما امتصصتها، طمسست طاقتى، لكن ذلك أدى إلى كارثة.»

قال جوارا، متمتماً بدهشة: «كيف؟»

قالت يارا، وصوتها يمزج القلق بالتصميم:

«الأمر أن طاقة ويل يمكن أن تخرج من جسدي في أي وقت، لأنني لست صاحبها،
وقدرتى على كبحها مسألة وقت. وإن خرجت أو ظهرت طاقتى قبل خروجها، سوف
تحدث كارثة. لذلك كانت الملكة غاضبة.»

قال جوارا، وعيناه تتسعان: «كيف ولماذا فعلت ذلك؟»

قالت يارا، بنبرة حادة وحزينة: «ذلك بفعل السحر... السحر يدنس كل روح نقية، ومع
ضعف الروح يمكن أن يحولها السحر إلى وحش، لكن المفرح أنك قوي.»

قال جوارا: «ما العمل إذن؟»

قالت يارا: «غابريال هو أملنا في دحض هذا السحر. ويل كان لديه قدرة على إخضاع السحر، لأن جسده مؤهل لذلك، ولأن غابريال ابنه، أظن أن لديه القدرة، وأيضاً قدرته التي امتلكها من الملكة.»

قال جوارا: «التطهير تعنين؟»

قالت يارا: «نعم، التطهير يفصل الطاقة الضارة عن النافعة، وأظن أن هذا ما حدث لك.»

قال جوارا: «كيف تعلمين كل هذا؟»

قالت يارا بسخرية، وابتسمة مريحة ترسم على وجهها: «الكون يمدني بالقليل من المعلومات الاستباقية أحياناً.»

قال جوارا، وهو يضع يده على قلبه: «المشكلة أن غابريال صعب المراس، ولن يصدق كلامك أبداً.»

قالت يارا لنفسها، وهي تتوسد الأرض المبللة بفتور، والندى يتسلل إلى ثنايا شعرها المتناثر على كتفها: عالم جميل لكنه يتيم الآمال.. طموح هذا العالم يقتصر على تثبيت أسس النقاء... لقد مر على هذا العالم أيام سوداء مثل ليالٍ تعيسة، حيث خيم الظلام على الأفق وأخذت الغيوم شمس الحقيقة.

قاطعها جوارا، وقد سمع همساتها الخفيفة تتلاشى بين صمت الغرفة والريح العابرة من نافذتها المفتوحة، فأشعرهما اللقاء النادر بإرتياح عجيب في صدر جوارا، الذي لم يحادث يارا بمثل هذا العمق من قبل.. كان الحب يفترس أوتار قلبه المنطفئ، فتتردد خفقات قلبه في الصمت، كما لو أن النجوم المنطفئة في السماء تحاكي حاله.. أو مثل هذه السماء الملبدة بأضواء زرقاء تبعث من كواكب متناثرة كالخرز، تبعث في النفوس رهبة وغرابة.

كلاهما يشعران بالغربة، وكأن العالم كله ألقى بثقله عليهم، شوهدت المعارك الحامية قدرتهم على الهدوء؛ كان جوارا يتقلب مثل المسعور في فراشه بسبب خوفه من أن يلتهم وهو مغمض العينين، فيما تتناثر في ذهنه صور المعارك القديمة والأئين المدفون بين الصخور. أغمض عيناه بهدوء طويل، وكأنما يحاول أن يجد ملاذه في صمت الليل، وقال ليارا الجالسة على حافة النافذة المطعمية بزجاج شفاف: «لماذا تسردين قصص الجميع دون تعب؟»

قالت يارا، وهي تنظر إليه بطفولية، وابتسمة خفيفة ترسم على شفتيها: «هل ستخرس وتستمع أم ماذ؟»

قال، وهو يضحك بخفة تخللها إحساس بال媿ة: «أكملي.»

قالت يارا بعد أن نهضت من النافذة واقتربت بخطى رشيق نحوي جوارا، الذي انعكس بريق عينيه الزرقاءين بسبب القمر المطل من السماء، كأنه يسبر غور أعمق الكون: «ذلك القمر ظهر منذ 5 قرون، عندما احتملت معركة بين الزوديا والنيروم... عالماً ينفران من بعضهما بسبب أن القمر يرسل طاقته باستمرار كل سنة إليهما، ولأن القمر في العالمين مهم جداً.. والجيد أن القمر كان ترياقه الأزرق يروي التربة المدججة بالسحر.. ويعافي كل من يلمس التراب.»

وقال جوارا، وهو يقطب حاجبيه بتساؤل متلهف: «هل يحتوي التراب سحراً؟»

قالت يارا: «نعم، تراب عالم النيروم سحره ينتشر في الأجساد كالطاعون.. كان السحر خطيراً جداً.»

قاطع جوارا يارا، وهو يتأمل وجهها المنشرح مع الأحداث التي ترويها، وقال: «أنت حقاً لن تكبري.. لا تفعلي ذلك بأنفك، وأخبريني، هل كل هذا من الكون حقاً؟»

قالت يارا، وقد انتابها غضب لسخرية جوارا، فقرصته وقالت: «لا تقاطعني لأكمل.»

كان عالم الزوديا ترابه خطيرًا بسبب السحر، وعالم النيروم السحر متصل في شجرة فارهة الطول، لكن مع انتشار الإصابات بسبب التراب في عالم الزوديا، استخدم شعب الأركانيس قدرتهم الفريدة على تفادي السحر لإنقاذ بقية شعوب الزوديا، مثل شعب يلقب بالطوفانيون أو الآريون.. يستطيعون تحويل الجمام أو الفضاء المفتر إلى بحيرة من المياه التي تبتلع كل شيء تقريبًا في المكان، وتحوله إلى مستعمرة مائية تطفو.. لكن نقطة ضعفهم أنهم غير مدربين لحماية أنفسهم من السحر.

هذه المياه هي خليط جذاب من السحر النجمي وقوة القمر الأزرق، وأيضاً تخيل أنهم يمتنون أحصنة في تلك البحيرات الم العمرة بالبنيات الصدفية.. مشهدًا يأسر النفوس، ويترك أثراً من الرهبة والجمال معاً.

السحر النجمي عند الآريون ليس مجرد طاقة تستدعي من السماء، بل هو سرهم الأعظم الذي يطلقون عليه المد الكوني؛ ينبع هذا السحر من شعاع نقي يولد في موضع بعيد يسمى عين الخلق، حيث تتقاطع مجرتان في عنق أبيدي، وعندما يختلط هذا الشعاع بطاقة القمر الأزرق يتتحول إلى مياه حية قادرة على إذابة التراب وصياغته من جديد بحراً عميقاً يموج بالكائنات العجيبة، كأنها بعثت من ذاكرة الكون ذاته.

لا تقتصر وظيفته على الإغراء والتحويل، بل يعد أيضًا لغة كونية؛ فمن انعكاس مياهه يقرأ الآريون خرائط النجوم والطاقات المسترسلة من القمر الأزرق، ويحفظون في أعماق تلك المياه امتداد الإشعاعات الكونية، فهي بمثابة بريد كوني نجمي متموج.

لكن استدعاء السحر النجمي ليس هيئًا، فإذا لم ينفتح المد الكوني إلا بطقس اصطدام عند اكتمال القمر الأزرق، حيث تلتلاق دوائر النجوم على الأرض مع أول قطرة فيض سماوات، فإنه يبقى مجرد حلم بعيد المنال.

ابتلع جوارا أنفاسه من أثر الدهشة، وقال، والفضول يخنق عقله الصغير:
«والأركانيس كيف استطاعوا حماية هذا الشعب العظيم من السحر؟ ما سرهم؟»

قالت يارا، وقد عدلت جلستها، وتواصل فمها في سرد ما تبقى من سر هذا العالم العجيب:

الأركانيس، فرع الزوديا المولود من رحم التربة، يعيشون في أراضٍ لا تشبه أي أرض أخرى. يمشون على أقدام طويلة تنتهي بأصابع غليظة تشبه جذور شجرة عتيقة، تغرس نفسها في الأرض مع كل خطوة. من تلك الجذور تنبع شحنات كهرومغناطيسية تتصاعد إلى السماء في ومضات برق خاطفة، ثم ترتد في شكل انفجار يهز التربة ويكشف عن معادنها المخبأة. ومع مرور الزمن، تحولت أراضيهم إلى سهول من تربة معدنية زرقاء، صلبة كالفولاذ بفضل طاقة القمر الأزرق التي اخترقتها، ومشبعة بطاقة متراكمة تحفظ فيها الصدمات كأنها خزائن حية للكهرباء.

هكذا صارت بيئتهم مرآة لقوتهم: أرض متقدة، تنبض بشرر دائم، تحرس نقاء الزوديا من سحر الخراب وتحوله إلى معدن أزرق خالد.

?

وقطع هذا التلامم المهيب سؤال جوارا: «ما هو هذا السحر الذي قد يهلك شعباً بأكمله؟»

فقالت يارا، وهي تفرك خدتها بإمعان:



سحر الخراب هو اللعنة التي تسكن التربة منذ فجر الأزمنة، قوة مظلمة تتغذى على أنقى ما في الكائنات. جوهره طاقة خفية تتسرب من باطن الأرض كالدود الخفي، تبحث عن جوهر النقاء في أجساد الزوديا لتمتصه ببطء. وما أن يعلق أثره بروحهم، حتى يبدأ في نخرها كما ينخر السوس الخشب، فيذبل الجسد وتخفت الهمة الندية حتى ينهاه صاحبه في موت صامت. قوته قاتلة لأنه لا يُرى بالعين ولا يُصدّ بالسلاح، بل يسري في التراب نفسه؛ كل أرض موبوءة به تتحول إلى فخ قاتل للزوديا، يسرق نقاءهم قطرة بعد قطرة حتى يفنوا. هو سحر لا يواجهه سوى الأركانيس، إذ أن صدماتهم الكهرومغناطيسية تمزق خيوطه وتحول مساره، فتجعل الأرض من مصدر فناء إلى حصن واقٍ.

صمنت يارا قليلاً، ثم نهضت قليلاً ونفضت ركبتيها، وقالت لجوارا: «أظن أن أسرار هذه العالم أصابتني بالنعاس، سوف أذهب للنوم.»

قال جوارا، وهو ينتفض من التذمر: «أكملي أرجوك.»

قالت يارا، وهي تثناء بـ: «من السيء أن تتعجل في معرفة كل شيء.»

قال جوارا: «لكن كيف عرفتني مكنون هذا العالم، وأنت وضعت قدمك فيهاليوم؟»

نظرت إليه نظرة أقشعر لها جسده، ثم قالت: «المعرفة التامة لا تهم، مادمت لا أستطيع تغيير الواقع الملموس.»

قال جوارا، وهو يتفحصها مليأ: «هيا أخبريني.»

اقربت منه وقرصت بلطف أنفه: «أنا الكون، والكون أنا، ليس من العسير على فتاة مثلية أن تستخدم عقلها المبهر في معرفة ما يحتويه من عجائب.»

قال جوارا، في لحظة إدراك: «هل يعقل أنك عشت هنا؟»

قالت يارا، محاولة إخمام جنون أسئلته بجواب حاسم وجدي: «أنا لم أطأ هذا العالم إلا اليوم، لكن ربما لم أرد معرفة كيفية استخدام طاقتى، لكن ذلك لم يمنعنى من الاطلاع على أسرار الكون و عوالمه.. والآن نم قبل أن أكمك أهيا الوغد.»

ضحك جوارا وهو يشاهد يارا وهي تلقي بجسدها بكل غضب على السرير، ثم قال بشيء من الحزن: «أظن أن الكون دائمًا يحرك إلى الخلاص بعد أن توعى نفسك في شراك المشاعر.»

أغمضت يارا عينها وهي تستمع لكلمات جوارا وقالت: «أظن ذلك.»

استيقظ جوارا من فراشه لتخلد عيناه إلى مشهد السماء الخالب التي زينت بأباريق كونية تتدلى من حلقات دائرية فقال في نفسه: سماء هذا العالم تشبه سماء عالم البشر كثيراً وكل العوالم ترابط و تتجانس في صفات تبدوا غريبة و الغريب أن يارا قد أفسدت متعة سرد حقيقة عالم زوديا ثم شعر جوارا بإضطراب في الأرضية الزجاجية و كأنها ضربات إطلاق النار ثم إقترب من النافذة ليرى شخصاً عملاقاً يرتدي وشاحاً برتقالياً و سترة منقطة بلون كستنائي بديع و رأسه صغير جداً على عكس كتفيه العريضين كأنه كيس ملاكمه لكن بوجه هامسترو لكن دون أن يعي جوارا تصادمت عيون الكائن بعيونه فلم يتحرك جوارا بل تمادى في إكتشاف تفاصيل هذا الكائن الغريب الذي يملك عيوناً تشبه الطوقان و قال جوارا بلهجة تنم عن الصدق تتماهى معها تعابيره المندهشة: هذا رائع...

تجاهل الكائن جوارا وأكمل طريقه إلى داخل القصر الزجاجي بخطوات رصينة
وهيبة فاخرة كأنه من زمن الملوك الأثرياء لكنه توقف لينظر إلى جوارا المائل أمامه
بأنفاسه المتقطعة بسبب ركضه من الغرفة إلى ممر القصر

نظر إليه الكائن بنظرة إستعلاء ثم تحاشاه وإنصرف لكن جوارا قال له معترضا
سبيله و يديه مفتوحين على مصراعيهما: أنت هو نعم أنت تشبه
الأركانيس الذي أخبرتني عنه يارا صحيح

نظر الكائن إليه بإمتعاض غريب و كأنه يتلمظ تعابيره الساخطة ليخرجها في شكل
كلمات لاذعة لكنه تراجع وإنحنى بهدوء نحو جوارا و قال به بصوت عاصف مزلزل:
لات... ط... مع .. أنت مجرد حثالة

لكن قبل أن يستوعب جوارا إنتبه إلى أبيه و عيونه تتوجه بغضب مشوه و قبل أن
يتفوه جوارا بكلمة واحدة إرتد سيف كون نحو الكائن الذي تمهد تميده طولية كأنه
يعلن إنساحبه من هذا اللقاء الغامض و لكن كون أحس بالخطر تبعث من هالة
هذا المخلوق و خاصة قدميه الصارختين بقوة نامية كأنها من مزيج السماء نفسها
فوثب نحوه لكن قبل أن يصل إليه داهمت الملكة آنيت بصوتها فاحتل المهدوء مكان
النطرات الخطيرة ثم حملق الكائن في يارا التي تمشي بتثاقل وراء الملكة ثم إنحنى و
قال: سيدتي المختارة أتمنى أنك حظيت بنوم جميل

لم يفهم الجميع ما يقصده الكائن إلا عندما قالت الملكة: أيها الضيف الموقر نحن
آسفون على هذه الإستطافة الفظة سوف أتأكد من أن يتم الإعتذار إليك بشكل
مناسب و إلتفتت إلى يارا التي بالكاد فتحت عينها ثم توسيع ضحكتها و تعلالت في
أرجاء القصر بسبب وجه كون المصدوم هو و جوارا تقدمت يارا بخطوات ناعسة

وووضعت يدها على كتف كون وقالت: لقد أغضبت ملكة هذا العالم ليس من الجيد
استخدام غريزتك الفائقة هنا هيا إذهب و أنت يا جوارا ما زلت لم تتعافي

إنصرف دون تذمر

إنصرف الآخران و ظل الأركنيس يحوم حول يارا بتوازن وقال : سيدتي المختارة
إسمحي لي أن أقول أن حضورك المباغت إلى عالمنا كان صدمة حرفيا لأن هذا
الحضور قد نجم عنه خلل بسيط

في حقل الضياع

إلتفتت يارا إلى الملكة: نعم بوابة حقل الضياع قد وهنت بسبب دخولكم السريع إلى
عالمنا وأيضا لأن أجسادكم حينها كان زاخرة بالسحر المحرم قد إنحرفت بذلك كل
موازين هذا العالم سوف يرافقك السيد أورافين ديركويل إلى قبر الزولفيان

صعقت يارا فور سمعها لهذا المكان و قالت للسيد أورافين : لكن هل حقا إندر هذا
الشعب أنها السيد

أوما أورافين برأسه للملكة إجلالا و تعظيمها ثم حمل يارا بين ذراعيه المطرزة بورود
صوفيه جميلة و قال لها : سيدتي أخفضي رأسك

أخفضت يارا رأسها ثم أطبق أورافين يده على اليد التي تحمل يارا ثم شعرت يارا
بصدمات متتالية تهمر على الأرض المائمة و التي تركت أصوات تشبه زئير الموتى ثم
أحسست بجسدها يختفي رويدا رويدا وسط ظلام دامس و سمعت يارا صوت يتكسر
من تحت أقدام أورافين الذي بدأ و كأنه يتمشى على جثث متفحمة ثم صمت
الضجيج لتفتح يارا عينها أمام منزل معدني بلون ازرق غارق في السواد. تحتها أرض
مكسوة بطبقة لزجة من مادة حمراء تشبه صخورا منصهرة و من بينها طبقة حديدية
ملساء

فتح أورافين يده أمام منزله فهمت يارا بسؤاله لكنها تراجعت و قالت: ما هذا المكان
قلب أورافين نظره عبر الأفق المتتصدع بألوان غائمة ثم قال: أمطار كربونية سوف
تساقط قريبا من الخطر التجول في هذا الوقت لندخل إلى المنزل لكن قبل ان
يتخطى أورافين عتبة الباب سمع صوت خطوات شخص ما فنادى بصوت حنون :
إفتحي أرجوك

فظهرت من الداخل فتاة شامخة الطول لكن ليس بطول أورافين و كانت ترتدي قبعة
زهرية مع ثوب محالك من مادة النحاس الخالص و مزيج من اللؤلؤ النادر كانت قد
أحاط بعنقها الرقيق و شعرها الأخضر الداكن و أطرافه الملطخة بلون أسود مائع
قد أحبط يارا قليلا لأن هذه المرأة ذوقها لا يختلف عن ذوق أورافين الغريب ثم مدت
المرأة يدها و حملت يارا و رمت على رأسها فستانًا مصنوعًا من خيوط الشمع و
السكر الحجري.. إستغربت يارا من هذا الثوب فسألت عن ماهيته فاجابتها المرأة و هي
تدفع أورافين إلى الداخل و لما أطبقت الباب إنشقت شفتيها بكلمات عذبة رقيقة
إرتديه لكي يمنع رائحة الأمطار من التسرب إلى جسد

فقط أورافين المرأة و قال: لا تعتمدي على مكانتك أيتها المختارة في هذا العالم أشد
فتاكا من عالمك الوردي ثم نهرته المرأة و رمقت يارا بهدوء: لا تستمعي إليه سوف
أحضر لكما شاي أوراق العنبر الذيذ

تلاشى ظل المرأة إلى داخل الغرفة ثم إنتمت يارا إلى أصوات تنقر سطح المنزل فقال
أورافين: سوف أخبرك بشئ هذه الليلة بعد إنقضاء الأمطار سوف يحدث هجوم ما
قالت يارا بإهتمام: كيف و لماذا و متى

قال أورافين و هو يلاعب أكمامه الصوفية: في عالم الزوديا، ليست الأمطار الكربونية مجرد ظاهرة عابرة، بل هي ندبة في قلب السماء تولد كلما تصادمت الانفجارات الكهرومغناطيسية للأركنيس مع تدفق السحر الخام. هذه الصدمات، حين تتسرب إلى أعلى الطبقات الجوية، تختثر مع غبار النجوم وتحول إلى سائل كربوني أسود يقطر من السماء كسيوف مذابة.

عندما تمس هذه قطرات أجساد الأركنيس، لا ترك جروحاً عادية... بل تذيب الخلايا الحية قطرة قطرة، حتى ينهار الجسد كما يذوب المعدن في أتون النار. ولهذا السبب ابتكر الأركنيس بيوبهم العجيبة: قصدير صلب يحمي الداخل، مدعّم بدعائم من الماس نادر يثبت بقوالب من زئبق مذاب. حين يبرد الزئبق ويتجدد على السطح، يكون طبقة لامعة كالمرايا، تعكس لوناً خاطفاً أشبه ببرق جامد، مانعةً أي تسرب للأمطار القاتلة.

ويُقال إن هذا الوميض الخاطف يجعل سماء مدن الأركنيس عند هطول الأمطار تبدو كأنها عالم من المرايا المضيئة، لكن خلف هذا الجمال يختبئ الرعب... إذ لا يجرؤ أحد من الأركنيس على الخروج، لأن مجرد قطرة قد تعني نهاية محتملة.

ولكن في الآونة الأخيرة تلقينا هجوماً من وحوش زحفت إلى هذا المكان تسمى الوحوش العاقرة إنها من عالمكم... تمكّن ذلك الساحر من إفحامها إلى هذا العالم وكل فترة تظهر بعد هدوء العاصفة و تدمر الأرض المانعة للسحر لذلك أظن أنها هنا الآن

نظرت يارا من النافذة الطويلة لكنها لم تلمح شيئاً لكن فجأة نهض أورافين و نادى على زوجته : لوريثا المطرقة

هرعت لوريثا نحوه مناولة إياه المطرقة كان مسننة من الواجهة الأمامية و تصدر من قبضتها شرارات كثيرة

نظر أورافين إلى يارا: لا تخرجي حتى أنا نادي عليك...

قالت يارا: لكن إنتظر

أغلق أورافين الباب بقوة و خرج غير مبال بهتاف يارا

لم تطق يارا الجلوس فوق الكرسي المعدني؛ كانت أصابعها تتثبت بركتبها بخوف مريض، فيما عيناهَا لا تفارقان النافذة وكأنها ساحة لمصير مجهول. ثم التفتت إلى لوريثا، وصوتها يكاد ينكسر:

«إن الأمطار مازالت تهطل ... ما العمل؟ هل سيكون السيد أورافين بخير؟»

أدركت لوريثا، من ارتجاف ملامحها، أن يارا توشك على الجنون من فرط التحديق في الخارج. فانحنت نحوها، أغمضت عينيها محاولة بث الطمأنينة، وقالت بهدوء مصطنع:

«لا تقلقي سيدتي... استرخي. أورافين سوف يتولى كل شيء.»

غير أن تلك الكلمات المفترضة لم تستطع أن تنفذ إلى قلب يارا، بل زادتها ضيقاً. فاندفعت صوب الباب بخطوات متسرعة، لكن لوريثا اعترضت طريقها وحذرتها:

«المطر سوف يؤذيك!»

وما إن حاولت يارا ابتلاء أنفاسها المرتجفة، حتى دوى في الخارج صوت تمزق قوي، فاضطربت حركتها وامتنع لونها. تقدمت بضع خطوات مرتعشة نحو الباب، وإذا بها تسمع ارتطاماً صاخباً جعل الأرض تحتها ترتعش. دفعت الباب بكل قوتها، وما إن انفتح حتى تسمرت مكانها؛ لقد رأت دماء أورافين تسيل وتحتلط بسواد الأمطار الكربونية التي شوهرت ذراعيه الطويلتين. وأمام جسده المترنح وقف وحش عاقد، مختلف قليلاً عن المعتاد، فتمتمت بصوت خانق:

«... أبيض!»

لكن الوحش لم يمهلها لحظةً للاستيعاب؛ انقض على أورافين الذي يكابد لإبعاد المطر عن جسده المتعب. وفي الخلف، ارتسمت على وجه لوريثا ابتسامة فارغة، وهي تهمس بصوت بارد موجّهة بصرها نحو ملامح يارا المنكسرة:

«من السهل رؤية الألم، لكن من الصعب محو أثره من العالم. ألم تختاري أنت التضحية بالآلام الآخرين لأجل تحرير نفسك من المصير؟... فماذا ستفعلين الآن؟»

صرخ أورافين صرخة هائلة اهتزت لها الأرضية الملطخة بصدمات كهرومغناطيسية، فأثارت عواصف رعدية اجتاحت السماء من حول البيت القصديري. كانت يارا تحدّق في أنينه الموجع، فيما زمجر الوحش الغريب وبدأ ينبعش بمخالبه الحادة في التربة، كأنه يبحث عن مخرج للخراب.

وبينما أوشك جسده على الانهيار، نهض أورافين بعياء. كان المطر ينحدر عن وجهه كما لو يغسله من الحياة، لكنه مد يده المثقلة نحو المطرقة التي سقطت بعيداً. وما إن قبض عليها حتى هوى بها على الأرض، فانتفشت التربة وأرعد الفضاء من حوله بصوت احتكاك قاتم، ارتج له صدر السماء. عندها توهجت ساقاه، وانبثقت منهما جذور كهربائية امتدت كأفاعٍ نارية، فصعدت الوحش وأطاحته أرضاً.

غير أن ذلك لم يكن كافياً. فالوحش، بعناد لا يُكسر، استعاد وعيه بسرعة وانقض على أورافين، مغرساً مخالبه الفضية في كتفه. ومع الطعنة، انطلقت ومضات نابضة، مثل عروق سوداء مسمومة، تفشت في جسده حتى غزت كل أطرافه.

وفي تلك اللحظة الحرجية، ظلت يارا عالقة بين الصراع الدامي. غير أن الخوف تحول في صدرها إلى دفقة مريرة؛ لأن جرعة أدرينالين فائقة اخترقت دماءها، فتطاير من عينيها بريق شراري محتقن. همست بصوت خافت، يتهجد بأنه حديث إلى نفسها: «بئسًا... بئسًا... هذا مرير... كيف سأتصرف الآن؟ ما العمل؟! أشعر أن سحر

وإذ رمّقها عينها بالصدفة، لمحت في المطبخ خنجرًا ضخماً، فاندفعت نحوه وأمسكته. ثم، كمن تتحدى حتفها، دفعت بجسدها نحو الوحش المتشبث بمخالبه في جسد أورافين. قفزت عالياً، وكان فستانها الأبيض يتطاير مذاباً في بقايا الشمع

والمسكر الحجري البراق، فيما انسكب شعرها الأبيض، المبلل برائحة الكربونات، على كتفها.

وبقوة قد미ها العاريتين نسفت الأرض تحتها نسفاً، قبل أن تطلق صرخة مرعبة من حنجرتها، وهي تهوي بالخنجر نحو عنق الوحش. لكن الأخير تفطن لهجومها وتراجع بسرعة، فهوت يارا أرضاً قبل أن تصل إلى هدفها.

ومع ذلك، لم تستسلم. نهضت فجأة، وجهها مبلل بالعرق والمطر، وسددت ركلة جانبية أصابت عين الوحش اليمنى، تلتها لكممة قاسية ارتج لها فكّه. ومع أن المطر الكريوني كان يتتساقط بثقل قاتل على جسدها، إلا أن الذي أحرقها حقاً كان نظرات الوحش المقيمة. فترامت نحوه بخطوات مختلفة، تتعمد تشتيت حركتها حتى لا يفر منها، ثم اندفعت كعاصفة هوجاء ولوّحت بخنجرها مجدداً نحو عنقه. هذه المرة أصابته، لكن الضربة كانت ضعيفة، ومع ذلك بقي الخنجر يتآرجح فوق عنقه، فيما الوحش يتخطى كالجنون محاولاً إبعادها... لكن يارا لم تراجع.

?

وفي تلك الأثناء، أزاح أورافين المطر عن وجهه، وندت عنه ضحكة عميقة كأنها سخرية من الهاوية. قال لها بصوت يقطر مرارة: «اللّعب مع الهررة أمر رائع... لكن يا يارا، ماذا تفعلين؟!»

لم تلتفت يارا إلى كلماته، بل واصلت تسديد اللكمات بعنف، حتى اتضح لها أن هذا الوحش لم يكن إلا هرّاً من فصيلة النيس، مشتقاً أساساً من شعب الأركنيس.

مدّ أورافين يديه قليلاً، ثم التفت إلى زوجته وأمرها بأخذ المطرقة، وهو يقول ببرود ساخر:

«ظننت أنها ستنجح في إمتناعنا... لكنها فتاة صغيرة مشاكسة.»

وفجأة، توقف المطر، وتلاشت الألوان الغائمة من السماء، لتنكشف سماء أهداً. اقترب أورافين بخطوات متناغمة، رغم جروحه النازفة، وانتسل يارا من فستانها الأبيض، رافعاً إياها إلى فوق، قبل أن يؤشر بعينيه إلى الوحش بالترابع.

جلس الوحش عندئٍ، وتبدل ملامحه الوحشية إلى هيئة ودية ناعمة، تماهى لونه الثلجي مع بريق الأرض الزرقاء، ثم انغمس في لعق قدمه ببرود كأنه لم يقاتل منذ لحظات.

نظر أورافين إلى يارا وقال بنبرة صارمة: «لديك غريزة مثالية للقتل، لكنك لم تتقني استخدام توازنك بعد... حتى بابتلاعك سحر ذلك المجنون.»

فقالت يارا وقد ارتجفت كلماتها:

«لكن... ألم تكن على وشك الموت؟ كنت أريد مساعدتك، سيد أورافين...»

قطع دهشتها صوت السيدة لوريثا من داخل المنزل، وهي تضحك ضحكة راقية،
قائلة:

«سيدي... بهذا المعدل لن تستطعي تجاوز مقبرة الزولفيان. أو ربما سوف تجرفك
أرضهم قبل أن تفكري بشيء!»

فجأة شحب لون يارا، فيما سحب أورافين الخنجر من يدها وحدق في عينيها
الشاردتين، ثم قال بحزم:

«هل كنت ستفرغين طاقتك مع طاقة ذلك المجنون هنا؟! لوهلة شعرت بفيض من
الطاقة يتسرّب منك، لكنك لم تدرك ذلك حتى... بل وواصلت تنسيق هجومك
ببراعة. غير أن ذلك أدى إلى استنزاف طاقتك سريعاً. انظري إلى وجهك المنها...
سيدي، ألم تتعلمي كيف تحافظين على طاقتك من الإهدار العشوائي؟»

أجبت يارا بكلمات تائهة، كأنها تخرج من لا وعيها:

«إهدار...؟ عن ماذا تتحدث أينما السيد؟»

لوح أورافين بالخنجر مرتين في الهواء، حتى بدا معدنه يلمع بلون دموي داكن
واسطع، ثم قال لها:

«أنتِ أفرغتِ غضبك المتورم هنا... وهذا اللون الحامي ليس غضباً عادياً. حتى في نوباتك، لا تستطعيين كبح جماح طاقتك من التسرب. يارا... اسمعيوني جيداً: أعلم أنك قوية، لكن من المخزي أن تتصرفي على هذا النحو الدرامي. لو لم تتوقفي، ربما فجّرتِ المعدن الموصول بالأرض وأطلقتِ سحر الخراب. لذلك أنسحبك أن تتخلي عن مشاعرك، وتفكري بعقلانية.»

ثم تركها أورافين، ودخل المنزل بخطوات حازمة. وإثر ذلك اقتربت لوريثا من يارا وقالت بنبرة أكثر رفقاً:

«سوف تستمرين في التدرب على فصل مشاعرك عن طاقتك، حتى تستطعي اجتياز مقبرة الزولفيان. وهناك، ربما نجد حلاً لسحر ذلك الشرير.

استمعي جيداً... شعب الزولفيان لم يخلق ليعيش على سطح عالم الزوديا فقط، بل نشأ من صهارة ثلاثة عوالم: الرماديون، عالمك، والزوديا. ومن هذا المزج الفريد ولدت قوته وسحره الغامض.

من الرماديين استلهم الزولفيان أجساداً قوية وعضلات مرنة، صُممّت لتحمل الضغط الهائل تحت الأرض، وللزحف في الأنفاق المشبعة بالسحر الأسود دون أن تمسّهم السموم أو التّشوهات.

ومن عالمك، اكتسبوا التحكم بعناصر الطبيعة: يستطيعون استدعاء الرياح، تحريك المياه، أو توجيه الزلازل الصغيرة بدقة، ما يجعلهم أسياد الأرض والهواء تحت أقدامهم.

أما من عالم الزوديا، فقد ورثوا سرّ خلق الجاذبية؛ قوة تحفظ ثبات السماء والأرض حتى في أحلك الفوضى، خصوصاً مع تقلبات شعب الأريون والأركنيس الذين يغيرون التركيبة الفيزيائية للعالم باستمرار.

إنهم الضمانة الخفية للتوازن: فبدونهم، يصبح سقوط السماء ممكناً، والأرض مهددة بانفجارات كهرومغناطيسية، خاصة حين تتفاعل قوة القمر الأزرق مع السحر النجمي، فتكون طبقة رخوة من الفضاء، أشبه بقشرة واهنة تكاد تهار.

الزولفيان قلّما يظهرون على السطح؛ فهم مناضلون نائمون، يسكنون الأعماق، يخططون بصمت، ولا يخرجون إلا حين تهدد الكوارث توازن الأكوان. حينها فقط يظهرون بسرعة رهيبة ودون ضجيج ليعيدوا الاستقرار.

يُحكي أن أعين الزولفيان تشبه النجوم المحترقة في باطن الأرض، قادرة على رؤية التيارات السحرية الخفية، وكشف أي خلل قبل أن يتحول إلى كارثة. حركتهم سلسة كالماء، وقوة أجسادهم تجعل الزحف في الأنفاق المشبعة بالسحر الأسود أبسط من التنفس، حتى أن الأرض نفسها تخضع لهم وتسمح لهم بالمرور بلا أثر.

باختصار... الزولفيان هم حرس التوازن الخفي لعالم الزوديا، أبناء الماضي المستعار من العوالم الثلاثة، الذين يحملون قوة الأرض والسماء والظل معاً.

وبما أنك أحضرت سحراً محراً وطاقة لا تستطيعين التحكم فيها، فأنتِ يجب أن تذهب إلىهم. وذلك المكان، لا يمكنك أن تتجولي فيه بحمامة؛ فأي خطر يشعرون به سيدرونك بلا رحمة. ولهذا أورافين يقسوا عليك... انتبهي يا عزيزتي وركزي.»

ثم رمت الخنجر أمام يارا، وأومأت للهر أن يتبعها، وقبل أن توصد الباب قالت: «سوف تتدربين الليل كله على معالجة تلك الطاقة الهوجاء... يجب أن تسحبها وتحولها إلى طاقة مستقرة. حظاً موفقاً... ولا تقلقي، سأحضر لك الحساء.»

انهارت يارا على الأرض، علامات الصدمة بادية على وجهها، ولم تنبس بكلمة. مدت يدها المرتعشة نحو الخنجر، وهمست بتلعلعهم، كأنها تخاطب نفسها أكثر مما تخاطب العالم:

«كيف... كيف... كيف سأفعل ذلك؟...»

دموع يارا تساقط بغزارة بعد أن انشطرت السماء بلون الشفق، معلنة بداية لحظة اختبارها الكبرى. قالت لنفسها بصوت مرتجم:

«لكن أليس غابريال هو من يستطيع تخلصي من السحر... لماذا لم يحادثه أحد في هذا... لماذا دائماً أواجه المستحيل وحدي... لقد ختمت طاقتى مرة، والآن تسربت كفيضان هائج، ويدى الواهنة هذه لا تقوى على رفع شيء، وهذا المكان الغريب الذى علقت فيه... ماذا أفعل؟ أشعر أني ضائعة.»

وفي الوقت ذاته، تعلالت أصوات التصادمات الكهرومغناطيسية من تحتها، صرير مزعج وحاد اخترق صمت المكان، وكان الأرض نفسها تنبض بالخطر. رفعت يارا يديها المرهقتين بالخدوش، تأملتهما للحظة قصيرة، ثم همت مجدداً إلى تناول الخنجر. نهضت بكل عزم وإصرار، أغمضت عينيها بإحكام، وأوصدت قدميها في الأرض الرطبة، متناسية كل الألم، محاولة إخراج طاقتها بهدوء دون أن تُغرق مشاعرها في السحر المحرم. واصلت استدعاء قوتها مراراً وتكراراً، وكلما حاولت بإستماتة الوصول، ارتعش الخنجر في يديها وكأنه يرفض ما تحاول.

اتخذت يارا وضعية الوقوف وسط صمت مشبع برائحة المطر الكربوني ورذاذ الأرض الرطبة، وأغمضت عينيها ببطء، كأنها تغلق أبواب العالم الخارجي. الهواء من حولها

بدأ بالاهتزاز، واصطدام قطرات المطر على الأرض خلق موسيقى خفية تتردد في أوتار روحها.

بدأت تنفس بعمق، ليس فقط بأحبالها الهوائية، بل بكل أعصابها وعضلاتها، لأن كل خلية في جسدها تتبع الهواء. مع كل زفير، كانت تتخلى عن الطاقة الفوضوية، كل توتر، كل خوف، كل غضب جامح، وكل شيء يخرج من جسدها على شكل شرر رمادي يتلاشى في الهواء.

ثم ركّزت على مركزها الداخلي، نقطة في القلب والصدر، تتلاّلاً كجوهر من بلور نقي. من هذه النقطة، بدأت بسحب الطاقة من كل أطراف جسدها: أطراف الأصابع، كعب القدمين، حتى شعيرات رأسها. الطاقة الفوضوية تحولت إلى شعاع أزرق فضي يسري في أوصالها، يملأ كل فجوة، يعيد ترتيب كل خلية وكل موجة من القوة التي كانت تهدر بلاوعي.

مع كل حركة صغيرة-رفع ذراع، ثني ركبة، ميل خفيف للجذع-تخرج خطوط ضوئية، وકأن الأرض تتفاعل معها، تتوهج جذور كهربائية ناعمة تحت قدمها. كل ذرة في جسدها أصبحت مترابطة مع الكون: الهواء، الأرض، المطر، حتى الحجارة تحت قدمها تتناغم مع قلماها في انسجام غامض.

لكن، حتى بعد ذلك، أبت يارا المواصلة وجلست بتذمر على الأرض، تنظر إلى نافذة منزل أورافين الذي لمحها عن كثب فجأة. ارتبكت و التفتت إلى الخلف، وكان توترها واضحًا، ويديهما المرهقتين جلية الوضوح. تنهد أورافين طويلاً، ثم نهض من الطاولة، أخذ الصحن وقال:

«إذا سمعت شيئاً مريباً، أحضرني المطرقة... لدي عمل طويل مع هذه الفتاة.»

ابتسمت لوريثا ابتسامة خفية وهي تسرح فرو الهر الكبير. فتح أورافين الباب ليجد يارا عادت إلى تدريهما، جسدها على وشك الانهيار، لكنه لم يبدي أي قلق. دنى منها بثبات، وضع الصحن على الأرض، ثم أخذ الخنجر منها، مرر إصبعه الطويل على حافته الحادة، ثم رمك يارا بعينين صارمتين، وقال:

«لن يساعدك أحد، سوف تنفذين كل شيء وحدك، فهمت؟»

قالت يارا بتعجب: «كيف؟»

قال وهو يفرك شعرها الفوضوي:

«ابن الملكة لن ينخرط في هذه المسألة، وقد سمعت الملكة تتحدثين عن قدرة غابريال على التأقلم مع السحر، ووافقت مبدئياً، لكنني رفضت. نقل السحر المحرم إلى وريث ذلك المجنون مجازفة كبرى... إما أن يفقد عقله وينقلب على الملكة، أو يدمر عالمكم بسهولة. جسده وعاء ثمين، وفاعليته هذا السحر أشد من أي سحر... لذا سنتصرف بعيداً عن هذه الخطة الغبية. وأيضاً، أنت لا ترکزين على تجميع قوتك

عند خروجها، فقط تبذر جهلك لإهادارها... وهذا الخنجر ضئيل جداً مقارنة بقوتك، فلا تتشبهي به. وأخيراً... لماذا تبكين مثل الأطفال، رغم أنك سيدتي؟ مجرد فتاة لا تعرف اتخاذ القرارات، لكن بما أنني معلم متعرس، سأسمح لك بمحاولة مقاتلتي.»

قالت يارا: «ولكن هل هذا مسموح؟»
ارتفع حماس أورافين فجأة: «قاتلني بقوتك! أريد اختبار طعم هذه القوة العظمى،
هيا!»

قالت يارا باستغراب: «قوتي مختومة... كيف سأقاتلك؟»
قال أورافين بثقة عالية: «هيا... أعرف أنك تستطعين. استخدمي الخنجر إذا أردت،
رغم أنه مريع، لكنه سيفيدك هذه المرة.»

نبضات الليل المحيط بهما ازدادت، والساحة الفارغة تتوجه بخفقات الشحنات الكهرومغناطيسية المنتشرة كالشلل في الهواء. يارا تهوي بخنجرها بلاوعي، لكمات عشوائية، ضربات جانبية، ركلات متسرعة، لكنها في الداخل تحاول السيطرة على نفسها، تمنع السحر المحرم من الانفجار. كل حركة صراع بين رغبتها في الهجوم وحذرها من قوة جسدها المحرمة.

أورافين، بابتسامة هادئة صارمة، يستخدم كل حركة مدروسة لإسقاطها أرضًا، ليس لإيذائها، بل ليجبرها على النهوض، كل مرة لستجمع قوتها وتعلم التحكم بها. كل سقوط على الأرض الصلبة يرسل صدمة كهربائية تتناغم مع جسدها، كل مرة تنہض، شرر الطاقة السوداء يلمع في عروقها، لكنها تحكم فيه لتجنب إطلاق السحر المحرم.

مع كل لفحة تصوّبها أورافين، وكل دفعه، تقوى يارا على الإحساس بوزنها الداخلي وأعماق قوتها. ببطء، تبدأ طاقتها الهادئة، المترنة، بالتدفق في جسدها، دون أن تفقد السيطرة. شعرت فجأة بأن جسدها أصبح محوراً للطاقة، كل ذرة متوازنة مع الكون. تيار من الطاقة يلتف حولها، يحرك الهواء، كأن آلاف التنانين الطاقية تحلق فوقها، كل جناح جزء من توازنها الداخلي.

أورافين يراقبها بعينين صارمتين، كل محاولة لإسقاطها، كل ضربة، كل حركة تقوى من تركيزها، تحفز طاقة التوازن فيها. سقوطها لم يضعفها، بل جعلها أكثر وعيًا بجسدها، أكثر قدرة على توجيه طاقتها دون أن تفقد السيطرة. كل حركة أصبحت رقصة متقدمة بين إرادة يارا، قوة أورافين، والسيطرة على الطاقة الهائلة.

بعد أن خرجت طاقة التوازن من جسدها، شعرت يارا لأن كل شحنة كهرومغناطيسية في الساحة تنجذب إليها بلا مقاومة. الهواء اهتز، الشرر الأسود أصبح شبكة متشابكة من الطاقة تدور حول قدميها ويديها، متشابكة مع خطوط التوازن الداخلي فيها. كل خطوة على الأرض تصنع وميضاً يتبع حركاتها، الأرض تهتز، والشحنات ترتفع إلى السماء لتلتف حولها.

جسدها بدأ يتوجه من الداخل، عروق الطاقة تتلاأً كخطوط برق أسطورية، تمتد من قلبه إلى أطراف أصابعها، مع كل لكمه، وكل حركة من خنجرها تتشكل دوامت من الطاقة المضيئة. كل موجة من طاقتها تجذب الشحنات من الأرض والفضاء، فتتجمع حولها كرة متوجهة نصف شفافة، تراقص بداخلها شرارات سوداء ووميضاً أزرق فضي. كل ضربة من أورافين تصطدم بها، لكنها الآن تتفاعل مع هذه الطاقة، ترسلها إلى الأرض كصدمة كهرومغناطيسية قوية، دون أن تفقد توازنها.

شعرت يارا بأن جسدها أصبح معدناً موصلًا للطاقة، كل خلية فيه تنبض بالقوة، وكل حركة تحول إلى موجة من التوازن والطاقة المتوجهة. السماء تتلاأً بخفقات متكررة من الشرر، الأرض تهتز مع كل خطوة، والشحنات التي كانت تتحرك بلا هدف أصبحت تتناغم معها، جزء من جسدها وروحها في آن واحد. كل هذه القوة، رغم ضخامتها، لم تهدد نفسها أو الساحة، بل جعلت كل حركة دقيقة ومتزنة، كل لكمه أو حركة تحول إلى سحر متوازن، هادئ، مهيب، أسطوري.

في تلك اللحظة، لم تعد مجرد يارا تهوي بخنجرها، بل أصبحت محور قوة متكاملة، تحرك الساحة والفضاء حولها، كأنها مركز الكون في لحظة واحدة.

صفق أورافين بحرارة وقال: «لم أعتقد أنك ستحاكي قوتنا، أيتها المختارة... هذا مذهل حقاً.»

إذن، هل أستطيع مناداتك بالعلم أورافين؟

ابتسم أورافين بهدوء، وعيناه تحملان معان الحكمة الكامنة في أعماق الزمن، ثم قال:

- هذا شرف لي أيتها المختارة السامية.

تهادت يارا بخفة نحو الصحن الموضوع على الأرضية، وجلست حذوته، وشرعت في الأكل ببطء، وعيناها تلمعان بمزيج من الامتنان والتفكير العميق، ثم طلبت من أورافين ملحتها، فوافق بابتسامة هادئة.

وهي تمضغ، قالت يارا، وطبقها ممتئ بالطعام:

- هل تصدق حقيقة أنني مختارة، يا معلمي؟

أسدل أورافين ثوبه الطويل نحو الأرض، وكأنه يخلق حاجزاً من الرهبة والوقار حول حضوره، وقال بصوت عميق، نابع من حكمة خالصة:

- سؤالك وجيه، لكن الجواب مدفون وراء سؤالك. ولأسئلتك أنا: هل تفضلين أن تكوني مختارة، أم كائناً مهمساً في كون أسود؟

ردت يارا بصوت منخفض لكنه صادق:

- لا أريد أن أكون ما تريدونه مني أن أكون. أريد أن أعيش حرة، في كون لا يقيدني بواجبات مفروضة... فواجي الأوحد الذي أؤمن به هو التفرد بهويتي وحدي. من دون قوتي، أنا بلا هوية، بلا وطن، بلا قطيع. ولأنني اخترت طریقاً مفروشاً بالإنسانية، فأنا الآن أدفع ثمن تلك الإنسانية. ببساطة، أريد أن أتفتح في عالم لا ينبع بقوتي بقدر ما يعجبه ذاتي.

صمتت قليلاً، ثم أضافت بنبرة أكثر تاماً:

- منذ أن شعرت بلساعات البرد القارص تخترق روحي، تهت في بحر من الجمود والنكران. لأسئلتك أيها المعلم: هل أدائي يعكس حقيقي؟ وهل مروري لأرض الزولفيان سيغير شيئاً حقاً؟ ولنفرض أن السحر دُمر وخلصنا من شروره، هل فكرت في ما بعد النهاية البطولية؟

أومأت برأسها وهي تتحدث لنفسها أكثر مما تخاطبه:

- لقد فكرت... واكتشفت أن الزمن لا يرحم من يختار أن يصبح بطلاً. وربما عاهتي الوحيدة هي أنني لست كاملة، ولا أريد أن أكون كذلك. ولو كنت كاملة، فلن يغير ذلك قناعاتي شيئاً: سأرضي بأكل التراب المتسخ، ولن أقبل السماء الطاهرة. سأبقى إنسانة تهفو إلى الوجود المدنس، وسأغفو عن غروري الذي، لو اتبعته، لقادني إلى مصير يشبه مصير ويل التعيس.

رفع أورافين عينيه إلى السماء للحظة، ثم أسقط نظره على صحن يارا الذي أفرغته بالكامل، وقال بصوت هادئ، لكنه مليء بالوقار:

- أاحترم رأيك، يا سيدتي، لكن سأجيب عن أسئلتك واحداً تلو الآخر. الذهاب إلى مكان جديد لا يعني بالضرورة تنفيذ مهمة. أنت ذهبت طوعاً إلى عالم البشر، ولم تطالبي بشيء، ولم يجبرك أحد على إنقاذه. لكن تعطشك لمعانقة النادر ألهماك للاستمرار في هذا الطريق.

ثم تابع، وعيناه تتأملان جسدها وروحها:

- أرض الزولفيان ليست مجرد مكان تلهو فيه الكائنات دون وظيفة. لكل كائن مهمة تضيف رونقه في هذا الوجود. نحن جمياً مترابطون بمهام تمثلنا. أنا مختلف عنك، لكن مساراتنا تستطيع أن تتقاطع في مناسبات مثل الآن. الجميع لا ينظر إليك كإلهة أو قديسة، بل يتوقع منك أن ترفعي إيمانك وتصنعي يومهم، لأن المهام لا تدار إلا برئيس ذكي، وأنت، يا يارا، هذا الرئيس.

ابتسمت يارا، وعيناها مشتتان في كل مكان، وقالت بصوت خافت:

- أظن أنك بلغتني وجهة النظر هذه بكل جدارة مثل الجميع...

أطلقت شهيقا طويلا، كأنها تفرغ غيظاً دفيناً، ثم قالت:

- أنت لن تفهمي الآن. أريد فقط النوم. لقد تعبت، أيها المعلم.

رمقها أورافين بمكر خفي، ثم مد يده الطويلة نحو صحنها، وقال بهدوء:

- سأأسلك، وأجيبي بصدق: تجاربك بين الهرب والعقاب، كيف كانت؟ ألم تتعلمي شيئاً؟

شمت يارا رائحة ماكرة من سؤاله، لكنها أجبته بصرامة:

- هروبي من العالم كان بعد مخاض وولادة دامت ثلاثة سنت، واحتضار في عالم الأشباح. صدقأ، تعلمت شيئاً واحداً: أن الحزن، إذا امتنج مع التمرد والتضحية، يصبح مرا مثل الحنظل. وقد ألبستي هذه التجارب ثوباً ثقيلاً، ولا أعرف كيف أتخلص منه، لذلك لا يسألني أحد عن معاناتي.

ابتسم أورافين، ثم حملها بين ذراعيه وبدأ يمشي بخطوات واثقة نحو المنزل، كأنه نقل معها كل الإجابات التي كانت معلقة في ذهنها، وأحاطها شعور بالأمان والسكينة، رغم أن روحها لا تزال مليئة بالتساؤلات والتمرد.

في حلم يara بنغ فجأة طائر أسطوري يُدعى أوراياندر، جناحاه الممتدان كأنهما بساط سماوي من نجوم مذابة، ريشه يتلألأ بالأزرق الفضي والأحمر الغامق، وعند كل رفرفة تصدر أصداها تشبه همس الرياح بين جبال نارية، ممتدة حتى بين خطوط السماء. عينيه تشعلان نوراً خافتًا، كأنهما مصدر معرفة قديمة لم تصل البشرية بعد، كل نظرة منه تخترق قلب الحلم، تكشف أسرار الكون وأعمق الأرواح.

الطائر حلق حول امرأة عملاقة، منتصبة على شلال من الجمر المتدقق من الصخور السوداء، قدماتها العاريتان تلامسان الصخور الملتهبة، وجسدها يشع وهجًا هادئًا وحرارة محايضة، كأنها حارسة التوازن بين العالمين. جسدها الكبير يلتف حوله هالة

من ضباب ناري وشراارات فضية، وكل شعاع من جسدها يبدو وكأنه شريان طاقة يربط الأرض بالسماء.

فوقها، كسوف الشمس يغطي نصف السماء، شعاعه المحجوب يرسم هالة ذهبية وبرتقالية حول رأسها، والغيوم المحترقة تتلوّن بلون الدماء الذهبية، كأنها تاج ناري سماوي منحها قوة الإلهة القديمة. النجوم حولها تدور في مدارات صغيرة، وكأنها أقمار تحميها وتراقب حركتها.

?

مع كل رفرفة من جناحي أوراياندر، تتطاير شراارات من الضوء، ترسم دوائر مضيئة في الهواء، وتشابك مع تدفق شلال الجمر، فتوهج الأرض والهواء، وكأن الأرض نفسها ترقص مع الطائر والمرأة العملاقة. الرياح تتحرك في دوامات عميقة، تحمل رماداً لامعاً وأصداء أحلام بعيدة، وتتكسر في فضاء الحلم على شكل قطع من زجاج سماوي تعكس نبوءات قديمة.

الطائر يرسل أحياً نبضات ضوء صامتة إلى المرأة العملاقة، فتفتح عينيها برأي كونية، وتشع من قلبه طاقة شمسية متوجهة تمتد نحو السماء، فتتفاعل مع الكسوف، ويظهر قوس ناري مزدوج يحيط بالشلال. الأمواج النارية ترقص على الأرض، والشلال يتوجه بألوان الطيف، فتبعد المشهدية وكأنها احتفال كوني بحضورهم، بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وحتى يara، وهي تراقب، شعرت أن كل حركة، كل رفرفة، وكل شعاع من الضوء، هو رسالة من قوة أسطورية تحاول إيقاظ روحها، وكان الحلم بأكمله بوابة إلى معرفة غائبة، إلى قدرها الخاص، إلى قوتها الداخلية التي لم تُكتشف بعد.



بعد ذلك الحلم المشبوه، استفاقت يara متثاقلة بجسدها المكدود والمتعب، لكنها صكت على أسنانها بعزم، ونهضت ببطء. ارتدت ملابسها سريعاً، ثم خرجت إلى الخارج حيث كانت السماء تعوي بألوان صارخة تشبه الغدير الداكن، مليئة بالغموض والرهبة. نظرت إلى يديها الملطختين بجروح دفينة لم تندمل بعد، ثم قالت لنفسها بحزم: "يجب أن أبرهن للعالم أن كلماتي سوف تصنع الكون، لا الكون يصنعني".

أغمضت يara عينها، وضربات قلبه بدأت تثور بجنون داخل صدرها، لتبدأ بعد ذلك في الركض في دائرة متسرعة، بينما شرارات الأرض تتفاعل معها بلون كهربائي ينبع

بالحياة. كانت تدفع جسدها إلى أقصى حدود طاقته، مكررة الحركات بإيقاع متزايد.

تذكرت فجأة كلام أورافين عن الطاقة، وكيف أن قوتها لا تأتي عند إرادتها، بل تندفع عندما تختنق بالمشاعر، وكل هذه الأفكار كانت تحلق في ذهنها دون أن تفهم عمقها تماماً. ثم تذكرت كلمات تاتا حين نعثها بالسقم والشفاء، فازدادت سرعة ركضها إلى أقصى حد، وبدأت تشعر بالخور، لكنها ضغطت على نفسها أكثر لتصبح دوامة من الحركات غير المرئية.

كانت الطاقة تصدى في جسدها كائن حي يتنفس معها، حتى اشتبكت خطواتها فجأة باللليب الأزرق، لم تدرك يارا مصدره، لكنه كان يتبع حركاتها بلا كلل. خرج أورافين من المنزل متفاجئاً، مندهشاً من زخم الطاقة الذي تصنعه يارا عبر بضع خطوات فقط.

لم تدم لحظات الدهشة طويلاً، حتى شعر بركلة متجهة نحو وجهه، فتفاداها لكنه لاحظ أثراً على يارا، ووجدها تلهمت، وعيونها تندلع منها أعراض القوة. لم تتمهل يارا، واندفعت بكل طاقتها نحو أورافين، وقالت: "سأتدرب حتى تجف عروقى من الحياة... فلا ترافقني معى!"

إندھش أورافين من كلماتها، لكنها لم تترك له مجالاً للتفكير، وارتقت من تحته لتوجه له ركلة على قدمه المغطاة بالجذور الكهرومغناطيسية. لكنه أبعدها بسرعة،

لكن أثر الركلة كان واضحاً بالفعل. ابتعد أورافين للخلف مبتسمًا، وعيناه ترسم
عليهما الحماسة: "أظنك مستعجلة للخروج من هذا المكان يا سيدتي."

أطلقت يارا عنان حركاتها السريعة، وارتمت نحوه بركلات عشوائية لكنها مشبعة
بطاقة خافتة، شعر بها أورافين، فابتسم أكثر وقال: "أنت جيدة."

دون أن تشعر، أمسكت برأسه ولفت حوله كالثعبان، وما إن لمست جبينه حتى
انتقلت ذكرياتها وكل ما تشعر به إلى أعماقه، فتجلت أمامه رؤياها السابقة، حيث
رأى أم الثالوث العظيم، والطائر كصolgان مملكة الغريم. تعجب أورافين من دقة
المشهد، لكن حركات يارا هزت رؤيتها، وتداعى جزء من إدراكه لتلك الرؤيا.

لكن شيئاً واحداً لفت نظره: يارا أمام أم الثالوث بشكل مختلف عن المعتاد، كان
طاقة الكونية صورتها ككائن مطلق القدرات، لا يهزّم. مزقت يارا ذلك السبات بركلة
مزدوجة من الأعلى إلى الأسفل، ثم لكمت أورافين في بطنه، حتى شعرت خلاياه
بالتمدد من قوة الضربة المشبعة بالطاقة.

لكنها لم تكتفِ بذلك، انتصبت فوق المنزل القصري المطعم بالألماس، وأخرجت من
يدها سيفاً طويلاً براقاً، النصل يتوجّج بشعاع أزرق نابض.

قبل أن تشهر يارا سيفها نحو أورافين، فتح الباب وخرجت لوريثا، تصيح في أورافين:
"الملكة في خطر محقق!"

نظرت يارا باستغراب إلى وجه لوريثا المذعور، وقالت: "ماذا حصل؟"

لكن لوريثا لم تكتثر لسؤالها، وظللت تلح على أورافين لمساعدتها، مؤكدةً أن الوحوش ستقضى على الجميع.

دخل أورافين إلى المنزل مصدوماً، ونظر عبر مراة تشكلت من طاقة كهربائية إلى القصر في حالة دمار شامل، ووحوش دموية تغزوه، لكنه قاطع فزع لوريثا: "هؤلاء ليسوا وحوشاً عادية، إنهم من عالم النورميين... بئساً، هل أتي الدفع أم ماذا؟ يجب أن نستدعي أحداً!"

قالت يارا بارتباك: "هل أتي معكم؟"

رد الإثنان بلهجة صارمة موحدة: "لا، هذا مستحيل."

قالت يارا: "لكن لماذا؟"

أدرك أورافين حجم الموقف، وتنهد: "أنت ستبقين هنا حتى يوم انبعاث القمر، وسيأخذك نيس إلى المكان المحدد، لذلك احرصي على التدريب الجيد، ولا تغولي عن حراسة المنزل، فهمت؟"

ابتلعت يارا كلماتها، وقالت بشكل رسمي: "حسناً، معلمي."

ظللت تنظر إلى لوريثا وأورافين، وهم يستعدون للرحيل بسرعة. بعد أن رحلوا، بقيت يارا تلوح بسيفها الموجه نحو الآن، ثم خرج نيس بهدوء، ينظر إليها كأنه يأمرها بالنهوض فوراً.

قالت يارا وهي تتأمل المكان من حولها، صرخت: "أكرهك أيمها الكون!"، ثم ألقت برأسها على حجرها واستغرقت في التفكير العميق.

فجأة، سمعت صوت خطوات ثقيلة، رفعت رأسها لتجد وجهًا ممتنع اللون، لسانه يتدلّى كلسان أفعى سامة. كان قريبًا جدًا، حتى صعب عليها استيعاب ما يحدث. لكن نيس، بكل تلقائية، قفز إلى سقف المنزل، محاولاً إبعاد المتطفل، لكن بإصبع واحد فقط أطاح به أرضاً وبدأ يتحكم في الألم.

كانت يارا متجمدة كجثة أمّام عينيه اللاذعتين، التي تبعث وميضًا قاتمًا وهالة كريهة. لكن ما جعلها تراجع هو جسده المغطى بالوشوم والجروح المتحركة، كما لو أن كل جزء منه حي. أمسكت يارا بالسيف بقوة، مختلطة بالخوف والقلق.

بدأ الكائن يزحف بخطوات رصينة، تبعث رائحة الحقد التي لا تنضب، وكأنها شلال من الحقد الصافي. هرولت يارا بكل قوتها نحوه، لكنها قبل أن تدفع بسيفها، أمسك الكائن وجهها وحطمه بركبته الحديدية.

أحسست يارا بجمجمتها تسحق تحت يديه، كأن الزمن يتلاعب بها عمدًا، وكل حركتها تُحبط بلا رحمة. كانت ركلاته قوية وعدوانية، حتى شعرت بالغثيان وتقيّات، وكانت الأرض المعدنية مغطاة بدماءها.

ثم أمسك الكائن شعر يارا، وشده بقوة، واقترب منها بصوت ينخر دماغها وقال:

"أنت هي المختارة... من الجيد أن خطتنا نجحت، سوف تذهبين معي إلى قلعة الثالث
الأعظم... إنه يريد ملاقة المختارين".



أخرجت يارا زفيراً خانقاً من حنجرتها، وكأنها تحاول لفظِ ثقلٍ يضغطُ صدرها، ثم
قالت بصوت متقطع تغلّفه الحيرة:

"هل... هل الهجوم كان خدعة؟ ومن أنت بحق السماء؟".

لكرها ما لبّثت أن أحسست أن حركتها قد شُلّت فجأة، كان الزمن جمد أطرافها، حينها
انفجر الكائن في ضحكة مشوّمة ارتج لها المكان، وقال بنبرة ساخرة تقطّر احتقاراً:
"من السهل خداع هذا العالم... أيتها المختارة. من يصدق أن عالماً مثل ذاك
سيشنّ هجوماً عليكم بسبب طمعهم في ترياق فعال لسحر الخراب؟... يا لكم من
أغبياء".

ثم توقف قليلاً، وكأنه يستمتع بوقع كلماته عليها، وأردد وهو يتذكر من حولها:
".لكن أخبريني... هل صدقت أنك فعلاً قمت باستخدام طاقة التوازن؟ هه! أنت
فحسب تتوهمين. تلك الطاقة التي تدعين التحكم بها... مجرد هراء أمام طاقة
التوازن الحقيقية. وهل صدقت ذلك الأخطبوط حين قال إن الذهاب إلى الزولفيان
سيخلصك من السحر؟"

اقرب منها أكثر حتى شعرت بأنفاسه النتنة تلفح وجهها، وأضاف بنبرة جارحة:
".الجميع خدعوك! السحر بالفعل قد تم امتصاصه. من قال لك أن جسدك يحمل
ذلك السحر؟ إنه ليس سحر ذلك الجرذ... بل طاقتكم أنت! أنت تختارين كفأة على
كفأة، ثم تدعين أنك سيدة التوازن... كم أنت غبية."

قبل أن تستوعب يارا وقع الكلمات، صفعها الكائن صفعة مدوية أفقدتها الوعي
للحظة، بينما تابع كلامه ببرود قاتل وهو يحدّق في شعرها الأبيض المنسدل:
".لا أعرف لماذا السيد يلتحّ على حضورك... بئساً لهذا العمل الأخرق! لكنه يريدك
لسبب ما، لذلك لا يمكننا مناقشته. لكن... هذا الشعر مثير للاهتمام. من بين كل
الأشخاص يختار الكون هذه السمكة الصغيرة؟ ما المميز فيها غير طاقة لا تستطيع
التحكم بها؟... حقاً إنه غباء."

ومع آخر كلماته، توارى فجأة عن الأنظار مخلفاً وراءه دخاناً أحمر قاتماً، ثم دوى
انفجار هائل دمر المنزل بأكمله، وأحال الأرضية إلى ركام متفحّم.

حين استفاقت يارا من ذهولها، كانت تتحسس الأشياء من حولها بكل ما استطاعت، فقد وجدت نفسها معصوبة العينين بعناية فائقة. ازدادت حيرتها أكثر عندما التقى أنفها رائحة طعام مألفة وسط الخراب. وفي تلك اللحظة اخترق الصمت صوت ذكورى خشن، يهدى نحوها بتثاقل، و كان خطواته تحوم حولها:

"أهذه... رائحة شواء؟"

فجأة، وبحركة حادة، أزيحت العصابة عن عينيها، لتكشف أنها ليست في منزلها المدمر، بل في قصر ليس كالقصور. كان القصر يبدو مشيداً على حافة الفضاء نفسه، جدرانه تنفتح على عتمة لا نهاية. تجمد الدم في عروقها، وشعرت بالخوف العميق وهي تتمعن في عيني الرجل الذي يحوم حولها. كان يشبه رجلاً في مقتبل الثلاثينيات، لكن عيناه مرصعتان بلون أبيض شفاف لا بؤؤ فيها، وشعره القرمزى تتفجر منه خصل سوداء داكنة. كان ينظر إليها بهم مفترس، كأنه يريد التهام كل جزء فيها.

وبينما ظلت تحدق في وجهه الموحش، تغير المكان فجأة إثر فرقعة أصدرها من إصبعيه السميكتين. في لحظة خاطفة انتقلت يارا إلى قصر آخر فخم، يعج بالآثار العاجي ولوحات مشوهة لوجوه قبيحة، بينما كانت الملابس مبعثرة في كل مكان. لكن الشيء الوحيد الذي لم يتغير كان عيني ذلك الأهوج، مازالتا تلاحقانها بلا هواة.

تغيرت ملامحه سريعاً، احمر وجهه من الغضب حتى كاد ينفجر، في حين ارسمت على محياه علامات كارثة قادمة. وقبل أن تستوعب الأمر، ضحكت يارا بسخرية عفوية، لكن ضحكتها لم تدم، إذ قاطعها الرجل بعصبية عارمة: ".فتاة... فتاة! بئساً! كنت أعتقد أنني سأقابل امرأة فاتنة... بئساً، ماذا سأفعل بها؟" أخبروني!"

رمقته يارا بنظرة ازدراء حادة، عقبت على انفعاله بسخرية جارحة: ".أنت أيضاً لست رجلاً حتى تتحدث عن النساء أيها الغريب المنحرف... منحرف كبير! وماذا تريـد من النساء أصلـاً أيها المسـكـين؟"

اشتعل وجهه أكثر، وأسنانه تصطـلـكـ كـأـنـهـاـ عـلـىـ وـشـكـ الانـفـجـارـ،ـ فـصـرـخـ مـهـدـداـ: ".سوف أقتلـكـ أيـهـاـ المـخـتـارـةـ اللـعـيـنـةـ...ـ لـكـ لـيـسـ الـآنـ!ـ لـأـنـ الـمـلـكـةـ،ـ جـلـالـةـ الـإـمـبـراـطـورـةـ،ـ أـمـرـتـيـ أـنـ أـسـلـمـكـ لـهـاـ حـيـةـ.ـ لـكـ...ـ لـيـسـ الـآنـ."

ظل مارلوك، كما بدا من كلماته، ينبع الأريكة بأظافره المسننة بعصبية، ثم نهض فجأة واتجه نحو السيف المتوج الم موضوع بجانب يارا، وهو يقول بغضب يتخـلـلـهـ جـنـونـ:ـ

".هـذـاـ السـيـفـ!ـ بـحـقـ الـجـحـيـمـ...ـ كـيـفـ صـنـعـتـهـ؟ـ أـخـبـرـيـنـيـ!ـ حـتـىـ أـنـ،ـ بـعـدـ قـرـونـ عـدـةـ،ـ لـمـ أـسـتـطـعـ أـنـ أـصـنـعـ مـثـلـهـ.ـ لـكـ كـيـفـ لـمـخـتـارـةـ ضـعـيـفـةـ...ـ لـاـ تـفـرـقـ بـيـنـ الـقـوـةـ وـالـدـمـارـ...ـ أـنـ تـفـعـلـ هـذـاـ؟ـ سـأـجـنـ!"

اتسعت حدقة يارا، لكن بدلاً من الخوف، ألقت بإبتسامة باهتة نحوه، وقالت ببرود ممزوج بالتهكم:

"لا أعرف من أنت... لكن هيجانك المستمر يعجبني، فأنت تشبه كلباً مسعوراً. وأيضاً... لا تجرؤ على لمس سيفي أيها المنحرف. ثم أخبرني، ما هذا المكان؟ ولماذا أحضرتمني إلى هنا؟ أيها الغريب المشتعل... ليس غريباً أنك غريب أطوار!"

فغلى مارلوك من الغضب وقال:

"متعرفة حمقاء!"

لكن يارا لم تبال، فرددت بحدة:

"لا تصرخ في وجهي أيها النذل... لتفك وثاقى حالاً!"

ثم فجأة، فتح الباب على مصراعيه ليظهر نفس الشخص الذي هاجم يارا من قبل. وما إن وقعت عيناهما عليه، حتى تبدّد لون شعرها الأبيض ليتحول إلى أحمر داكن، ورفعت عينيها نحو السيف فأشارت إليه، فارتفع كأنه طائعاً لها، وانطلق بسرعة نحو وجه ماريوس، ذلك الدخيل الغامض. لكنه تفاداه ببرود، ثم وفي حركة واحدة احترق الوثاق الذي يقييد يارا، فانطلقت دون تردد نحوه، موجّهة له لکمة أصابته في خده. لكنه أمسك بها بيد واحدة، وقرب وجهه من وجهها، وقال ببرود ينضح بالتحدي:

"لا تتعالي كثيراً أيتها المختارة المتبجحة، فسوف تلقين حتفك إن استمررت في إضاعة طاقتك هكذا... لقد لوثت الأرضية حقاً".

التفت يارا بذهول لترى بقعاً سوداء عميقة تنتشر من الكرسي الذي كانت مقيدة فيه، وصولاً إلى موضعها الحالي.

هنا انفجر مارلوك ضاحكاً سخرية:

".إنها كجسد بلا لجام! طاقتك تتسرّب فوراً ما إن يتملكك الغضب... فلا عجب أنك دمّرت عالمك الغبي... والعالم السابع أيضاً، أيتها المختارة!"

لكن ماريوس أنزلها بعنف على الأرض، وقال بصراحته: ".بعد أن غرست ذلك السيف في قلبك أصبحت ممزقة مثل قماش مهترئ! وأنت التي ظننت نفسك منقذتهم... انظري ماذا حصل لك. أظنك كنت منذ البداية تحفظين على طاقتك، والآن ختمتها بسبب وهمك أنك تحملين سحراً. أتعرفين معنى أن تحملين سحراً في عروقك؟ أنت لست أقوى من السحر، ولا حتى قوتك المتوازنة التي، لو تعلمت استخدامها مثلما قال لك المعلم، لكنت من أمهر المختارين. لكن... انظروا إلى وجهها الباهي. أنت تبكيين؟ تبكيين لأجل هذا الكلام؟ إنها الحقيقة... تلك التي واجهتك بها تلك العجوز المتنكرة. ألا ترين أن العالم يستغلك بينما أنت تتخبطين كسمكة مريضة في الوحل؟ كلما أردت الخروج يمنعك أحد... ولماذا؟ لأنك... غبية!"

تصاعدت أنفاس يارا كبركان، ودونوعي صفت ماريوس بكل قوتها. تفحص مكان الصفعة، ثم رمّها ببرود وقال:

ـ "لأقول لك... أنتِ جيدة، إن توقفت عن إثارة مشاعرك. كم هو ممل أن تكوني عاطفية.".

لكن مارلوك قاطع بحدة:

ـ "دعها الآن... واذهب لتدريب الجنود. يجب أن نستعد بعد أن تنتهي الحرب بين العالمين وينزل الطائر الأمرد إلى سرداد الكون، حيث الإمبراطورة... فهي الوحيدة التي ستعرض غبائها. هيا."

نفخ ماريوس على وجه يارا باستحقار، ثم دفع الباب بعنف وهو يغادر. تحنّطت يارا مكانها، وقد انسل شعرها الأحمر على منكبيها، وهمست بصوت مرتجف وهي تنظر إليه:

ـ "لم أستعد هيئتي منذ زمن..."

كانت تتمتم، متّجاهلة خطوات مارلوك الذي اقترب منها بقوة وشدّ ساعدّها. لكنها أبعدت يده فجأة، ووجهت له لفحة ساحقة في بطنه. لكنه لم يتأثر، وقبل أن يتفوه بكلمة، قالت يارا بعينين متّمرتين تشتغلان:

ـ "لا تجرؤ على إهانتي... هل فهمت أيها المنحرف؟ لا تبتهج لأنني ضعيفة... فأنا أعرف كيف ألكمك وقتما أشاء! أنت وذلك الوغد. وإن كان هذا آخر شيء سأفعله..."

ثم أفلتت يدها، وحملت سيفها، وجلست على الكرسي من جديد بعزم وهدوء.

قال لها مارلوك ساخراً:

"ألن تغادري؟ ألن تحاولي الهروب حتى؟"

فأجابته يارا بصوت ثابت يقطّر تحدياً:

"لست جبانة لأهرب."



قال لها و هو يطالعها بسخرية حادة، والشرر يتطاير من عينيه كأنهما نصلان:
الهروب من هواياتك المفضلة أيتها الأميرة.

فما كان من يارا إلا أن نظرت إليه نظرة قاتلة، وكأنها على وشك أن تقتلع عينيه
الواثتين على وجهه من مكانهما، وقالت بنبرة مشبعة بالغضب: إخross أيها الأحمق.

حينها قال مارلوك وهو يلوح بيده باستخفاف: آسف على اللقاء العنيف، لكن ذلك كان كافيًّا لنعرف أنك فتاة جامحة حقًا.

غير أن يارا نهضت من مكانها بكل اندفاع، وتوجهت نحوه في عاصفة من الغضب، ثم عضّت كتفه بعضة شرسة كأنها وحش صغير يثار لماضيه. وبرغم فارق الطول الشاسع بينهما، إلا أنّ الألم قد تسلل سريعاً في جسده الفظّ. تشبّثت بأسنانها الصغيرة كأنها تنتقم لكل ما فعل بها سابقاً.

تنفست الصعداء أخيراً وقالت بصوت متقطع بين حنق وراحة: هذا لأجل ما فعلتموه أيها الأوغاد الحثالة... وسوف أُرى ذلك الكوموندو كيف سيكون عقابه وخيمًا، سترون.

ثم، ومن غير تردد، أمسكت بالكرسي الذي كانت مقيدة فيه، ورمته بكل قوّة على الألواح الخشبية المشبعة بألوان توحّي بالبؤس، وصرخت: سوف أدمّر هذا المكان على رؤوسكم!

لكن فجأة، ومن بين الملابس المبعثرة على الأرض، تسللت روح غريبة لتنين صغير كان نائماً وسط كومة الفوضى. انطلق بخفة نحو يارا، وانقضّ عليها بأسنانه الطويلة، ثم حلق بها عالياً في الغرفة وهي معلقة رأساً على عقب.

تفطن مارلوك إلى المشهد سريعاً، فصرخ متائماً: أنزلها يا دوميروك! أنزلها فوراً! غير أن التنين لم يلتفت إلى أمره، بل ظل يتوجّل بها أعلى وأعلى. عندها، وبلا تردد، أطلق مارلوك من يده السليمة كرة نارية هائلة أطاحت بالتنين أرضاً. ثم مد يده نحوه فامتصه داخل كفّه كما لو أنه يتلّعه.

بعدها، هرّع نحو يارا ليعيّنها على النّهوض، فقد ارتطم رأسها بتمثال عاجي وبدأت تنزف. لكنّها رفضت المساعدة بشراسة، وانتزعت سيفها ولوّحت به في وجهه وهي تتّوعده: أنت ميت... فهمت؟ أنت في عداد... في عداد...

و قبل أن تكمل كلماتها الأخيرة، تصدّع الأرضية من تحتها، فانشقت عن فوهة سوداء رهيبة، شبيهة بتلك التي رأتها حين اشتمت رائحة الشواء.

أسرع مارلوك إليها، وقبض على يدها بإحكام، وهو يقول بصوت متماسك رغم الألم: سوف ننتقل إلى العالم الأول... لذلك أغمضي عينيك حتى لا تصابي بالهذيان.

الإنّتقال إلى هناك خطير قليلاً، لأنّنا على حافة الكون... الطاقة هنا تسجن كل من يمرّ بها، لكن ذلك ليس بالصعب علينا.

لم تفهم يارا شيئاً، غير أنها أغلقت عينيها، واتكّأت بجسدها على جسده الذي ما زال يتّأوه من قوة العضبة. ابتسّم بسخرية رغم الوجع وقال: عضّاتك مريعة أيّتها الحمقاء... من حسن حظك أني لا أضرّ النساء.

وبينما السواد يبتلعهم من كل جانب، اتسعت الفوهة أكثر فأكثر، لتحتّضنّهما بكل قسوة. فجأة، خرج من ذلك الظلام فم عملاق ابتلعهما دفعة واحدة، لينقلّهما إلى عالم مشرّوخ... إنه عالم "سالون"، المركون في زاوية معتمة من الكون.

كانت القصور مشيدة من طوب نيزكي فريد، وأشجاره مقلوبة رأساً على عقب، فيما
الحمد تجتمع في صدع فاره عظيم. أطلق مارلوك صفيرًا مدوياً، فظهر التنين ذاته
الذي امتصه بيده قبل قليل. اندهشت يارا تماماً، لكن ما إن اقترب التنين حتى ارتحى
جسدها فجأة، وشعرت أنها ستسقط. لو لا أن مارلوك أمسكها، وهو يهمس لها بعدما
امتطيا التنين: تمسكي... يجب أن نصل إلى القصر قبل أن تنهاري.

خلال الرحلة، ظلت يارا تتشبث بجسد مارلوك، تبحث عن بصيص من الدفء وسط
لسعات البرد القارس الذي كان يطوقها. أما هو، فلم يندهش إطلاقاً، بل غمرها في
حضنه، وأسدل وشاحه على رأسها الأحمر وهو يقول: تحملني أيتها المختارة... تحملني،
سوف نصل.

هبط التنين على أرض مسطحة في هدوء عميق حتى لا يوقظ يارا من نومها. ثم حملها
مارلوك بين ذراعيه بخفة، وتخطى بها المرج الأخضر الذي يزين القصر الأسود
العملاق. كان المشهد متناقضًا حد العجب، وكان تلك المساحة المضيئة لا تنتهي إلى
السوداد السحيق، بل هي قطعة مبتورة من عالم آخر أكثر حياة.

وما إن هم مارلوك بصعود الدرج حتى اعترضه "ماريوس" مرتدياً زيه الرسمي، وقال
وهو يرمي يارا النائمة بعينين يملؤهما القرف: هل تستطيع أن تفسر ما يحدث الآن؟
أليس من المتفق أن تاحتجزها في البهو العلوي للعالم؟ لم أنزلتها إلى هنا يا سيدى
المختار؟

تجمّد وجه مارلوك من الغضب، وحدق في أخيه بصرامة، ثم قال: لا تختبر صبري.
أخبرتك أن تحضرها سليمة، لكنك خالفت أمري. والآن، ماذا تريدين؟

ردّ ماريوس بحدة: سيدتي، إنها عار على المختارين جمِيعاً، وليس من العدل أن تتوارد
بينهم...

عندما أمر مارلوك أحد الخدم الواقفين أمام الباب بأن يرافقه يارا إلى الداخل. ثم
شمر عن ساعديه وصفع ماريوس بقوة، وقال بصوت كالرعد: إخْرُسْ يَا أَخِي! ليس
من العدل أن تصب جام غضبك لأنك لم تُخْرِجْ لهذا المنصب بدلاً عني. هل وجدت
فيها فرصة لتنقم؟ هاه؟! أخبرتك أن وجودك بيننا سيزيد غيظك سوءاً، لكنك لم
تستمع لي وأصرت أن تكون قربي. غير أن تتعدى على سمعة أحد المختارين؟ هذا
جرائم عقابه الموت. لذلك سوف تعذر لها... مفهوم؟

ماريوس، وهو يضغط على أسنانه، قال: أنا لا أُعْتَرِفُ بضعف مثلك لتكون مختارة.
لقد سببت المتاعب لنا جمِيعاً، وحتى حين عوقبت، كانت تُبَخِّلُ أنت والجميع في
مكانتها. لم تستدعها الإمبراطورة قط، والآن، هذه أول مرة تستدعيمها... انظر إليها! ما
سرها يا أخي؟ أتشوق لمعرفة السبب الذي يجعل الإمبراطورة تفضل تلك الضعف
على الجميع، وتمنحها حرية التهور. لو كنت مكانها وارتكبت خطأً مماثلاً، لدت، لكنها
لم تمت!وها هي حاضرة بيننا... لذلك لا أرى سبباً لاحترامها.

غير أن مارلوك قاطعه وهو يهُم بالدخول: لا تنغمِس في التفكير، فذلك خطير عليك
أيها الرقيب. إذهب إلى عملك، ودع عمل الكبار للكبار. هيا، يا أخي.

اقترب بعدها من يارا التي غطّت في نوم ثقيل، أفقدتها كل قدرة على الشعور بما حولها. ظل يداعب خصلات شعرها بخفة وقال، كأنه يخاطب نفسه: من النادر وجود فتاة بين المختارين بهذا العناد. رغم أن آنيت كانت تشهد، لكنها كانت أنضج منك... آه، أتمنى أن يحل كل شيء قريباً، فهذا الكون لن يتحمل مأساة أخرى.

فتحت يارا عينها بتألق، لتجد مارلوك بجانها، فقالت له بنبرة ساخرة: أهـا المتعفن، صوتك مزعج حقاً.

فما كان منه إلا أن تغيرت نبرة صوته، وقال: أنت عديمة الجدوى حقاً... لا أعرف كيف تحملك ذلك العالم. ثم أردف، بصوت هادئ يخفي وراءه ضيقاً واضحاً: أحياناً أظن أن عدم مقدرتك على مقابلة الإمبراطورة كان سببه أنك الوحيدة التي أعيد إحياؤها أكثر من مرة... بينما نحن لم نبعث إلا مرتين فقط بفضلها. يالـك من محظوظة! لهذا ربما أخذ عنك الجميع انطباعاً غامضاً.

قالت يارا باستفهام: من؟

أجابها: المختارون الباقيون... سيأتون قريباً. لا تقلقي، لقد أصرت الإمبراطورة على رؤيتك. فقط أتمنى ألا تثيري ضجة أخرى.

ضحكت ساخرة وقالت: أنت غبي حقاً.

ابتسم بخث، وهو يمرر أصابعه بين خصلات شعرها: لماذا يتغير لون شعرك؟ هل بسبب القوة؟

قالت: نعم... عندما أطلق العنان لقوتي تتغير هالي. لكن في العادة أنا هكذا... ألا يعجبك شكلِي، أيها القبيح؟

رد بابتسامة خفيفة: لترتاحي، أيتها المجنونة. غداً لديك عمل كثير.

قالت باستغراب وهي تتقلب في الفراش: ماذا؟ عمل؟



استيقظت يارا مجدداً في عالم ينبع بالقوة والغموض، كما نبع قلبه عند رؤيتها لوجه مارلوك وهو يرمي بنظراتِ صامتة، جامدة، كأنه صنم كوني أُلقي على عرش الأسرار. تراجعت خطواتها المترقبة إلى الوراء حتى تداعت من هول الصدمة وسقطت من على السرير، لتنتبه بدهشة أن ملابسها قد تغيرت أيضاً، وكأن هذا العالم لم يكتفي بانتزاع يقظتها بل أراد أن يفرض عليها هيئته.

أطربت برهة، تستجمع أنفاسها، تمسح ظهرها من أثر السقطة المفاجئة، غير أن مارلوك تقدم منها بخطوات ثابتة وصوت ذكوري مهيب قائلاً:

«اتبعيني إلى دهليز الأحلام... لكن قبل ذلك ارتدي شيئاً يليق بك وصففي شعرك المنكوش، فأنت تشمرين عجوزاً على وشك الموت».

بلا تردد، ركلته يارا بقوّة على قدمه، فارتسمت على محيّاها ابتسامة انتصار صغيرة، لكن سرعان ما اجتاح المكان الخدم من كل صوب، كأنّهم إعصار جارف، يحيطون بها بالفساتين والأقمشة البراقة، بينما غاب مارلوك عن أنظارها متّجهاً صوب مكتبه. غير أنّه لم يقطع سوى بضع خطوات حتى اعترضه ماريوس، الذي كان يقصد غرفة يارا. عندها قبض مارلوك على ذراعه بقوّة، يقيّد حركته، وقال بلهجة حادّة تحمل تحذيراً خفيّاً:

«إياك أن تخطو خطوة نحوها، فالمختارون سيجتمعون هذه الليلة، فاحتفظ بنوياك السيئة لنفسك».

تنفس ماريوس بغيظ، وألقى نظرة طويلة نحو باب غرفة يارا، ثم قال باستهزاء: «هل أصبحت تلك الصغيرة من أولوياتك يا أخي المقدام؟ لم أعرف أنك مطيع إلى هذه الدرجة... هل أخافك كونها المفضلة، فتتحمل العقاب بدلاً منها؟».

ولم يكدر مارلوك يفتح فمه للرد حتى اختفى ماريوس فجأة، متلاشياً من أمامه كطيفٍ ساخر، فشعر مارلوك بالإحباط ينهش صدره، وتمتم غاضباً: «تبّا لك...».

في تلك اللحظة، ظهرت يارا من خلف الباب، متقدّمة بخطواتها الوائقة، فبهر مارلوك بجمالها للحظة خاطفة، غير أنّه تدارك نفسه سريعاً، سعل بتصنّع ليغطي ارتباكه، ثم قال بنبرة ساخرة:

«ألم تجدي غير هذا الفستان الأسود لترتديه؟».

ابتسمت يارا بخفة وقالت:

«كنت محتارة بشأن الملابس، لذلك تركت زمام الأمر للفتيات الآخريات... وأظن أن هذا الفستان مريح. والآن، إلى أين سندهب؟».

أفاق مارلوك من سهوته، ورفع يده مشيراً إلى الممر المظلم وهو يجيئها:

«من هنا... أريد أن أريك شيئاً قبل أن يأتي الجميع».

ترددت يارا قليلاً وقالت:

«ولكن... أليس الوقت مبكّراً؟».

ابتسم مارلوك ابتسامة غامضة، وأجاها بثقة:

«في هذا العالم، الساعات تمضي مثل الدقائق، فلا تخشي شيئاً... لكن انتبهي من خطواتك، فأنت تعرجين مثل البطة الصغيرة».

عقدت يارا حاجبها ببراءة، ثم ردّت بعفوية: «هذه أول مرة أرتدي مثل هذه الأشياء... ظننت أنني لن أعيش هذه اللحظة أبداً».

أطرق مارلوك رأسه قليلاً ثم قال بلهجة محايده: «من البديهي أن تشعري بذلك... فأنتِ فتاة في النهاية».

قطّبت يارا حاجبها أكثر وقالت بسخرية لاذعة: «أنت مولع بالتنقيب في أذواق الفتيات، أيها المنحرف!».

تنهد مارلوك، كأنه يحمل خبرة أزمنة، ثم أجاها بنبرة تحمل مزيجاً من الجد والسخرية:

«حسناً... لست منحرفاً. لكن خبرتي بين سكان عالمي أكسبتني هذه الحنكة».

قالت يارا، وهي تحدّق في عينيه ببرود:

«عالِك».

ابتسم مارلوك بخفة، ثم قال بنبرة واثقة:

«عالِي يتفرد بغزاره الكائنات الأنثوية على الرجال، ولأنَّ العالم الذي وُجدتُ فيه يخضع لقوانين صارمة تمنع الرجال من التواجد لسبِّ ما، فقد غدت النساء هناك أكثر قوَّة وهيبة. ولذلك نادراً ما أصادف فتاة مرنَّة مثلَك... عنيفة بشكِّ لطيف».

زفرت يارا بضيقٍ، وقالت وهي تكتم ارتباكيها:

«أَخْرَسْ أَمْهَا الْمَتَمَلِّق».

ومع ذلك، واصلاً المضي في الممرّ الحجري الطويل. على حين غفلة، توقف مارلوك فجأة، ليُوقف يارا معه، ثم رفع رأسها بيده نحو السقف الملطخ بلونٍ داميٍّ ساخن يقطر على الأرض بخيوط متقطعة. ارتجف صدى قطرات في المكان، كأنَّها أنفاس كائنٍ يتآلم في الظلام.

قال مارلوك وهو يراقبها:

«اخْطُ خطوتين فحسب لتصل قطرات إلى فروة رأسك. هذه خدعة صنعتُها لجعل هذا المكان محسَّناً من براهن أخي... أنت لا تعلمين شدَّة تلهُفه للدخول إلى هنا. سيجنَّ إذا عرف أنَّك في هذا الموضع. المختارون وحدِّهم مسموح لهم بدخول دهليز الأحلام، حيث تراقص أحلامهم كفقاعات نورانية. هيا... أذهبِي».

مدّت يارا قدمها خطوةً واحدة، غير أنها ترددت في الثانية، ثم التفت نحوه فجأة وأمسكت بذراعه بعنادٍ واضح: «أيها الأحمق، حدمي يقول إنك أعددت لي فخاً... فلتذهب معي».

وفي اللحظة التالية، ذابت ظلالهما في الممرّ القصري، كأنّهما انصهراً في العتمة. وما هي إلا لحظات حتى وجدت يارا نفسها محاطة بنسيجٍ ظلاميٍّ منسوج بخيوط الشفق الكوني المنصهرة، وقد فرش فوق آلاف من زهور التوليب. كل زهرة كانت تحمل ذكرى أو رحلة لأشخاص غرباء جاؤوا من عوالمٍ شتّى، غير أنّ زهرة واحدة، فاحمة اللون وشائكة، كانت تنزو في ركنٍ مفتر، تفيض بطاقةً دافئةً وغامرةً.

اقتربت يارا ببطء، تتأمل تلك الزهرة العجيبة، مدّت يدها لتكشف الحجب عن أشواكها المتعانقة، لكن مارلوك انقضّ على كفّها وأمسكها بقوّةٍ قائلًا: «لا تقترب مني... إنّها زهرة الرؤى العظمى».

ثم أردد بجدّيةٍ ثقيلة: «تلك الزهرة تحمل في طيّاتها عجائب العوالم السبعة. فهي تكتنز رؤى عظيمة لمصيرها جميّعاً، أمّا بقيّة الزهور، فهي مجرّد تشييد لذكريات أو أحلام كل مختار، قطّارٌ متين لا ينقطع وريده أبداً. لقد أثنت الإمبراطورة هذا المكان بطاقةٍ كي تُخلّد الذكريات وتحافظ على نجاعتها، لأنّ العوالم تحتاج دوماً أن تتنذّر مصيرها. غير أنّ

تلك الزهرة... نادرة. لقد تألقت عندما حطمّت الرابط بين عمالك وعالم البشر. إنّها زهرتك، التي اصطفّتها الإمبراطورة لتكون معبراً خاصاً لك وحدك... لكن من الأجرد بك ألاّ تقتربى. حتى نحن، حين نزور هذا المكان، تغرينا أشواكه وتدفعنا رغبة مقيمة إلى كشف أسرارها. أظن أن رؤاك تكدرست هناك بشكلٍ تلقائي، لكنّي أحياناً أشعر أنّها لعنةٌ وُضعت بذكاء».

لم تكترث يارا لتحذيراته، بل اقتربت أكثر. وما إن لامست بتلاته حتى ارتعشت الزهرة بقوّة، ونزل من أشواكه رحىقٌ ذهبيٌّ أخاذ، تفوح منه رائحة زكيّة عطرة. غير أنّ ما جعل يارا تندهش هو ظهور وجهها الطفوليّ في لهب الزهرة الذي تموّج خارج العتمة الموحشة، فغمر المكان بصوت بكاءها عندما ماتت أمها... تلك البداية المأساوية التي حملت بصمتها الأولى.

راقب مارلوك ذهولها، ثم عقب قائلاً بلهجة متأمّلة: «من النادر أن يعيش المختار حياة شفف وسط هذه الممّيزات. نحن لم نفقد أمّهاتنا ولا عوائلنا. لقد ترعرعنا في بيئة تتناغم فيها السعادة والمسؤولية، وتباور كياننا على كيفية حمل هذا الثقل. لكنك أنت... استثناء. لا أعرف لماذا لم تنقذ الإمبراطورة من هذا المصير المشوّه. وربما إرادتك الحرة جعلتك فريسة للجميع».

التفتت يارا إليه، والدموع تحرق وجنتها، وقالت بصوت مرتجف وهي تشير إلى الزهرة:

«أذكر هذا اليوم... حين مُتُّ في ساحة الحرب مطعوناً من أقرب الناس إليّ؟ بطريقة مخزية سُحبت طاقتى لصنع الوحش العقيم. ومن أجل أن أهرب من هذه المعاناة لجأت إلى العالم السادس... لكن اللعنة لم تفارقني. آه... وهنا حلمي حين رأيت نفسي في قاعة المورون، أتلوي من الألم والمحن... ورأيت أمي تلوح لي بعزاء مميت. ثم هنا... حين ابتلعتني العين وسحبتي إلى الحكام الكونيين... وهذه أنا... عندما قفزت بكل رشاقة وسعادة من الجبل ورقصت كالمجنونة... لأعود إلى المجمرة نفسها!».

لم تستطع يارا إكمال كلامها، إذ تملّكتها نوبة بكاءٍ ساخنٍ فقدتها القدرة على الوقوف، فانحنىت راجيةً:

«مارلوك... أتعلم لماذا أنا ضعيفة لهذه الدرجة؟».

اقرب منها مارلوك بكل هدوء، ووضع يده على كتفها قائلاً: «لا أعرف. لكن الشيء الوحيد الذي أعرفه... أنك لست وحدك. أعرف أن الجميع هاجمك، وأنا منهم. حتى هذا العالم المتكامل... حقير إلى أبعد الحدود. التنافس الوحشي على مكانة المختارين قادر على إبادة عوالم بأسرها. أظن أنك محظوظة لأنك لم تدرك بعد قوتك... لأنك ستكونين مستهدفة حتماً. ومع ذلك، لقاونا مختلف. لأنك يا يارا... مختلفة رغم كل شيء. لذلك استجمعي قوتك... ولنمض، فالجميع متلهف لرؤيه مثيرة المتاعب».

رسمت يارا ابتسامة ساذجة وسط دموعها، وقالت:

«أنت مربع في مواساة الآخرين».

ابتسم مارلوك بفتور، ثم حملها بين ذراعيه قائلاً:

«على الأقل حاولت أن أعيد الابتسامة إليك أيتها المتمرّدة... والآن تمسّكي، سننزل».

وانطلقت خطواتهما في الممر الطويل...

نزل مارلوك ويارا الدرج العريض، تردد خطاهما في أصوات الممر الطويل الذي بدا وكأنه لا ينتهي. كانت الجدران مزخرفة بنقوش باهتة، والليل في الخارج قد جن بالفعل، فأخذ الظلام يتسلّب كدخانٍ بارد إلى الزوايا الخفية، كأنه يريد التلصص على ما سيحدث. ومع كل خطوة، كان قلب يارا يخفق بارتباك وفضول، بينما ظل مارلوك متّمسّكاً، ملامحه صارمة كتمثال من حجر.

وما إن بلغ الاثنين الباب الكبير المؤدي إلى قاعة الاستقبال، حتى انفوج وجه يارا فجأة بضحكه عفوية، فقد وقعت عيناهما على أنيت التي كانت تتقدم بين الحاضرين بخطوات واثقة. ارتجف صوتها وهي تنادي كطفلة:

"أنيت! أنيت!".

غير أنّ مارلوك أسرع بالزجر قائلاً بصرامة:

"اضبطي نفسك أيتها المجنونة."

توقفت يارا، نظرت إليه باستنكار:

"ولكن...".

فقطّعها ببرود:

"أنت تُحرجينا. هيا... تقدّمي أولاً وألقي التحية كما يليق بمختارة."

انكمشت ملامح يارا بين الحيرة والحرج، وازدادت رهبتها حين لاحظت أنّ وجود الحاضرين قد قسّت فجأة، وأنّ عيونهم المشتعلة ترسل شرارات من الحنق المكبوت. عندها ابتلعت ريقها، وجمعت شجاعتها، ثم تقدّمت بخطى مرتعشة وقالت بصوٍّ خافت متردّد:

"مرحباً بكم... أنا يارا."

لكنها انحنى أكثر من اللازم، فشدّها مارلوك من فستانها بشيء من الغضب، وهمس في أذنها: "أكملي".

فقالت بصوت مختلط بالسعال:

"أنا مختارة من العالم الخامس... سرت بلقائكم جميّعاً".

عندما جحظت عيون بعضهم باستعلاء، ثم قال أحدهم بنبرة ملؤها الضجر: "هل ستتركونا واقفين كثيراً؟"

فأدركت يارا أنها أطالت الانحناء، فتراجع عن مرتبتها، بينما بدأ الجميع بالدخول إلى القاعة. مررت أنيت بجانبها، رمقتها بنظرة حزينة صامتة، ثم أكملت طريقها. لكن رجلاً من بين المختارين الثلاثة ثبت بصره عليها لبرهة طولية، قبل أن يقول فجأة: "أنت... لقد رأيتك مرّة. أنت التي زرتنا".

تجمدت يارا مكانها، لم تفهم قصده، غير أنه تراجع بسرعة، محاولاً إصلاح الموقف، ثم لحق بالآخرين نحو الطاولة الضخمة التي تتوسّد القاعة المهيّبة.

جلست يارا في المقدمة، بينما أخذ مارلوك يعرّفها بالمختررين واحداً تلو الآخر: ". على جانبك الأيمن... سيرافينوس، مختار العالم الرابع. وعلى يسارك... السيد أركانوس، مختار العالم السادس. أما السيدة أنيت والسيد يوجين، فهما مختارا العالمين الثاني والثالث، ويلقبون بالثالوث العظيم. أما أنا... فمختار العالم الأول."

ابتسمت يارا ابتسامة باهتة وقالت بنبرة واثقة متكلفة: ". سرتُ بمعرفتكم."

تنهد أركانوس، كأنّ في صدره غصّة حنق، لكنه أخفاها بابتسامة مصطنعة. أما سيرافينوس فقد ردّ بصوت رقيق ينضح بالاحترام: ". سرنا بمعرفتكِ، أيتها المختارة يارا. نتمنى أن تجدي راحتك بيننا."

". أنا مرتاحٌ،" أجبت يارا بخجل، قبل أن يقطع اللحظة صوت أنيت الذي دوى في القاعة، حادّا كالسيف: ". من الآن فصاعداً يا سيد مارلوك... حين تقتسم عالمنا وتشير الفتن، احرص ألا تمسّ ضيوفنا ولا تخطفهم بتلك الطريقة الحيوانية!"

ساد صمت ثقيل، لم ينطق مارلوك بحرف، بينما جاء صوت ماريوس من خلف يارا، متهدّماً:

"تلك أوامر الإمبراطورة يا سيدة أنيت. حتى لو طلبنا منكم تسليم يارا، فسيد يوجين سيعارض، لأنّ له غaiات أخرى... مخفية."

عندما ضرب مارلوك الطاولة بعنف، فارتجّ المكان، وقال بصوت غاضب: "اصمت!... أعتذر يا سيدة أنيت. لا أعرف كيف أعوّضك عن قلقك، ولا عن الأضرار التي لحقت بكم."

ثم التفت نحو ماريوس بحدّة: "انصرف!".

لكن يارا قطعت الموقف بصوت خافت خجول، كمن يريد أن يطفئ النار بيديه العاريتين:

"آسفة... لكن السبب الحقيقي في كلّ هذا هو أنا. لذلك سأحاول أن أعوّضكم، بقدر استطاعتي."

فاللقط أركانوس الحديث ببرود، وقد ضاق صدره: "عذرًا أيتها السيدة الحكيمة، لكن... أذّرك أنيك زرت عالمنا بعد محاولتك الفاشلة للهروب من مسؤوليتك. وبفضلك انهارت روابطنا، وفقدنا القدرة على التواصل. أليس هذا صحيحًا؟"

تشنج الجو، لكن أنيت تدخلت بسرعة، تبادلت نظرات ممتعضة مع مارلوك، ثم
قالت بحزن:

"لننس الماضي. يارا لم تنشأ مثلنا، ولذلك كان تصرفها منطقياً لشخصٍ عاش
مصيرها. ولا أظن أنكم قادرون على تحمل التهميش الذي ابتنىت به، ولو للحظة".

ظللت يارا تحدّق في أنيت طويلاً، قبل أن تقول بصوت يرتجف:
"أعرف أن حماقتي سبّبت لكم الضرر، لكنني لم أختر ذلك... لم يكن بإرادتي".

وما إن فرغت، حتى دوى صوت يوجين وهو يضرب الطاولة بيديه غضباً، لكن أنيت
مدّت يدها لتوقفه، وقالت بحدة:
"اهدأ! لسنا بحاجة إلى أحكامك الثمينة".

ثم التفتت إلى الجميع، وأكملت بصوتٍ حاسم:
"هذا أول اجتماع تحضره يارا معنا بحضور الإمبراطورة. لذلك أطلب منكم أن
تخلوا عن ضغائنك... وأقصدك أنت يا ماريوس. اعتداوك على أحد المختارين
جريمة لا تُغفر، وسأوصل هذا إلى الإمبراطورة. وحينها... سترى قوتك التي تتفاخر
بهما، كيف ستلقي أمام حكمها".

اكتفى ماريوس بضحكه ساخرة:

"افعل ما تشاءين، أيتها السيدة."

لكن في اللحظة ذاتها، اهتز قلب يارا فجأة. أحست بسيفها ينبع داخل الغرفة، وكأنه يستدعيها. تجاهلت النداء بداية، لكنها ما لبثت أن ارتجفت حين تبدلت هالتها بشكل مفاجئ، كأنها استشعرت خطراً لا يراه غيرها. انهر الجميع بما شعروا به، وقبل أن تستوعب ما يجري، ظهر السيف أمامها فجأة. مدّت يدها تمسّكه... وإذا بطاقة زرقاء باهتة تتفجر من جسدها حين ضربت الطاولة، متحولة إلى عنقاء صغيرة، رفرفت بأجنحتها وسط القاعة.

صرخ ماريوس وهو يندفع لقتل العنقاء، لكن يارا صدّته بيدها، وهي تهمس:

"أشعر... بشيء غريب."

ازداد نبضها، تدفقت طاقة هائلة من قلبهما، جعلت جسدها يتلوي من الألم. هرعت أنيت نحوها، صارخة:

"هل اخفي الختم؟"

أجابت يارا والدم يتفجر من أنفها:

"أظن ذلك... هذا التدفق سيقتلني، أنيت! افعلي شيئاً... أشعر أنني سأدمّر المكان!"

تأملت العنقاء، ثم غرست سيفها في الأرض، فارتّجت القاعة حتى تساقط الغبار من السقف. تهادت العنقاء نحوها، لامست السيف، وفوراً اختفت، لينتشر ضباب أزرق كثيف. شرقيت يارا:

"هل هناك... أرض جائعة؟"

تبعد الضباب، كاشفاً وجهها وقد تغطّى بشقوق متوجّحة تمتد من وجنتيها حتى قلبها. أنفاسها لاهثة وهي تتمتم:

"أريد أن أسحب قوتي... إلى مكان لا يُدّمر."

أمسك مارلوك بيدها، صوته مزيج من الحزم والحنان: "تنفّسي بعمق... لا تتحاملي. تستطعيين تخزين طاقتك بهدوء... فقط أخرجي من عقلك كل ما يزعجك."

ثم نظر إلى أنيت بعبوس، محذّراً: "إذا لم تتحكمي في نفسك... ستجرفنا جميعاً."

التفت بعنف إلى ماريوس:

"أحضر سيفي!"

لكن ماريوس صرخ محدراً:

"هذا سهلتنا جميعاً!"

مع ذلك أكمل مارلوك حديثه إلى الجميع:

"يارا جزء من عالمنا. هي الوحيدة القادرة إما أن تحفظ السلام... أو تجلب الدمار. إما نتوحد، أو نموت جميعاً."

صرخت يارا وهي تنهار على الأرض، جسدها يتمزق من الداخل:

"لا أستطيع... مارلوك! هذا مؤلم... مؤلم!"

جثت أنيت بجانبها، أمسكت معصمها برفق، وهمست:

"صفي ذهنك. أنتِ الكون، والكون فيك... اسحب طاقتك إلى فراغك الداخلي، ستشعرين بالراحة. هيا يا يارا... هيا."

نهض مارلوك مسرعاً، جلب سيفه، وخدش معصميه، لتناثر دماء الصافية على شقوق يارا، فبدأت تلتئم ببطء. لكن ذلك لم يكفي. وما إن لمس السيف حتى صُعق، لكنه لم يتوقف. وضع كفه على قلب يارا، وجبينه يتوجه ببريق كوني.

قال بصرامة إلى أنيت:

"يجب أن تستفرغ بعضًا من طاقتها... وإلا ستتحطم."

هزّت أنيت رأسها:

"طاقتها أقوى من أي شيء... محاولة استفراغها معدومة."

لكن قبل أن يكملوا، انتفضت يارا فجأة، عينها تحولت إلى لون أسود كوني، وصوت آخر انبعث من فمها:

"أبنائي... أحضروها إلى مخدع السلام... والأمان..."

ثم انقطع الصوت، لتعود يارا مطلقة شرارات هائلة أسقطت الأنقاض من السقف. احتم المختارون تحت قبة من الطاقة، بينما صاحت يارا بصوت مبحوح:

"أنيت... أنا آسفة!"

وفي لحظة خاطفة، انفجر نور عظيم من جسدها، أعمى الأ بصار، وأخفاها عن أنظار الجميع. عم الصمت، قبل أن تعود يارا لظهور من جديد، جسدها متربّح، والدموع تنهمر من عينها.

تقدّمت نحو أنيت متسللة:

"أرجوك... ساعدبني!".

سألتها أنيت بقلق:

"أين اختفيت؟".

أجبت يارا بصوت مبحوح، ممزوج ببكاء:

"لقد... سحبتي الحافة الكونية".

ارتّج المكان بالدهشة، وصرخ الجميع معاً:

"الحافة؟! هذا... مستحيل!".



أنا... أنا أختنق، سأغرق في بحر الظلمات يا أنيت... في وجود لا قرار له ولا شاطئ.

شدّت آنيت على يد يارا بقوّةٍ كأنّها تتمسّك بأخر خيط للحياة، فيما كان مارلوك يرفع صوته المحطم نحو الجميع، نبرته ممزوجة بالغضب والرجاء:

– لنذهب إلى الإمبراطورة، هيا بسرعة!

لكنّ أحداً لم يتحرك، كأنّهم تماثيل من حجر، يحدقون فيه بعيون خاوية. عندها، لم تعد آنيت تحتمل ثقل الصمت، فانفجرت بطاقة جنونية خرجت من أعماقها، حتى أنارت القصر المهدوم بنورٍ مستعرٍ مزق العتمة. ثم فجّرت دوامة وسط الأرضية المهشّمة، لتندفع منها ينابيع صافية، غمرت المكان كأنّها دموع خفية للأرض نفسها. انحنت المياه برفق يارا، تعانق جسدها وتنساب في شقوقها المتصدعة كبلسم يرفض أن يتركها تذبل.

غير أنّ مارلوك، الذي لمح الظلام الزاحف يبتلع أطراف القصر، شعر بالخطر الداهم. ركض نحو الباحة، فرأى طوقاً كونيّا يطبق على المكان من كل الجهات. ارتجف صدره، وهتف مهوتاً:

– مستحيل... هذا الشرخ سيبتلع القصر خارج الوجود!

التفت نحو يارا بعينين تفيض بؤساً، وصاح:

– يجب أن نخرج فوراً!

لكن آنيت، وقد ارتجفت من الرعب، صرخت بصوت مذعور:

– لا... لا بدّ أن يكون هناك حل آخر!

تقدّم يوجين بخطوات مثقلة، وعيناه غارقتان في مراة الحقيقة، وقال بنبرة حاسمة:

– لا فائدة... حتى الإمبراطورة نفسها جرحت حين حاولت إغلاق الشرخ. إن بقينا سُنسحب جمِيعاً إلى خارج الكون... لذلك اتركها، يا آنيت.

اهتزّت كلمات يوجين في وجداه، فنهضت ببطء، ودموع الأسى تحرق عينيه، وقالت بنبرة مليئة باللوعة:

– أن نهرب مثل الجرذان ونترك أحد المختارين لمصيره... هذا جبن لا يُغتفر!

مدّ مارلوك يده محاوّلاً إقناعها:

– آنيت... الوضع ينهار، يجب أن —

غير أنّ صوته انقطع فجأة، إذ اهتزّت الأرضية بعنف، وانشقّت لتجري منها ومضة حادة، كان سيف ماريوس. اندفع منها بجسده، ويده تقبض على يارا داخل فقاعة الماء، ثم قذفها ببرود من نافذة القصر إلى المرج الأسود في الخارج. صرخ باحتقار:

– ليس عدلاً أن نُضحي بالجميع من أجلك، أيتها الجبانة! فلتَمُوتِي كما متّ في حياتك السابقة!

تراجع بعض خطوات، لكن مارلوك انقض عليه كإعصار، وركله بقوة اهتزت لها الجدران. ز مجر بغيظ:

– تبا لك أيها الخائن!

إلا أن الكارثة لم تمهله. قبل أن يصل إلى يارا الملقاء، انفجرت فوقهم حلقة سوداء، وأطلقت موجات صوتية صاحبة كادت أن تمزق الأجساد. ارتبك الجميع، وتشتت نظراتهم، لكن يارا وحدها بقيت جامدة، ملامحها تحجرت كتمثال عتيق، وصوتها خرج مأساوياً يخترق السكون:

– هل أنت سعيد الآن يا ماريوس؟ ألقيت بي في الجحيم... ماذا تعني لك القوة؟ أن تجعلني قرباناً لهذا الكون العاصل؟

سقط صوتها فجأة، وذابت حواسها، فيما جسدها تحول إلى بياض ناصع، تتشقق منه أزهار سوداء تزحف ببطء. صرخ مارلوك، لكن صوته ذاب في الفراغ، أما آنيت فركضت لتلحق بها، لكن جسدها تجمد في مكانه. حتى ماريوس نفسه لم ينجُ، فقد شُلت حركته، وابتلعته الحلقة السوداء بجوع لا يرتوي.

الكل كان ينظر إلى المشهد ببرود مخيف، كأن الرحمة غادرت وجوههم. وفي اللحظة ذاتها، دوى صوت عميق من داخل الحلقة، وأطلقت خيوطها السوداء نحو جسد يارا الممدد. لكن، قبل أن تختفي، انشقت السماء بسوط عملاق مزق الحلقة، فتجلى من بين يارا نسيم غامض يشبه أول خيط من فجر بعيد.

سقطت يارا على الأرض هامدة، لا تملك سوى عينيها للتبع خطوات خفيفة اقتربت منها. من بين الظلال ظهرت امرأة بهيئة ملكية، مهيبة كأنها سليلة الكون نفسه، وجهها صارم يفيض بالجبروت. تقدمت حتى تجاوزتها، ونظرت نحو مارلوك قائلة بصرامة:

– استيقظ... وأيقظ الجميع.

لم يفهم مارلوك، لكنه إذ التفت رأى الموجة التي أطلقها قد أثرت فيهم بالفعل. عادت الإمبراطورة ونظرت إلى يارا، كأنها تفتّش عن سر عميق في ملامحها، لكن فجأة امتدت يد خفية وسحت يارا بعيداً، تاركة خلفها صدى كلمة يتيمة:

– لماذا؟

لم تتحرك الإمبراطورة، فقط وضعت يدها على جبين مارلوك، فسقط مغشياً عليه، ثم نادت الطائر الأمرد بصوت يفيض بالشجن:

– المختارة خرجت من هذه الحدود... يجب أن نعثر عليها قبل الطامة الكبرى.

ارتفعت عيناهَا نحو الجمع، فرأتهُم ما زالوا واجمِين، حتى آنِيت التي سقطت هي الأخرى مغشياً عليها حين انهار مارلوك.

... أما يارا، فقد وجدت نفسها في فضاء سرمدي بارد، تنظر إلى العدم غير مصدقة ما يحدث. ومع ذلك، تسلل إليها سلام غريب، حتى رسم على شفتيها ابتسامة حزينة لكنها حنونة، وهمست:

– لا أريد البكاء مجدداً... لكن، أتعلم أيها الكون؟ لقد فشلت كل محاولاتي للانسجام معك... تعبت من العيش في مكان ليس مكاناً.

وفجأة، تلاشى السواد، وظهر وجه الإمبراطورة وهي تحضرنها، وصوتها يخرج غامضاً: – لم أخترك يا يارا... لم يكن بيدي، فقد خرج الأمر عن سلطتي. لم أختر لك هذا الألم، لكنك عشت... وبرهنت لي أنك تسعين للحرية مهما كان الثمن، حتى لو دفعك ذلك إلى شتات كوني مرعب.

تنهدت بعمق، ثم أضافت:

– لديك قلب جبار، لكنه في جسد هش... ورغم ذلك، قاومت، ولم تسمحي لأحد أن يُسقطك. لماذا تواصلين الكفاح هكذا من أجل مصير مجهول؟ لماذا تريدين تجاوزي دائماً؟

أجبت يارا، وصوتها مبحوح حزين:

– لا أعرف... أشعر أن جسدي يحمل ما لا أستطيع استيعابه. هل تشعرين بألمي الآن؟ بالطبع لا... ولن يشعر أحد ما دمت أنت مصدر الهداك. لماذا اخترتني أنا؟ أما كان يكفيك آنيت ومارلوك وكل المختارين؟

قالت الإمبراطورة بمرارة:

— لم أخترك... لكن لم يكن بوسعي تركك تعيشين بساطة لا تليق بما تحملينه. في داخلك عالمٌ عظيم... عالم يحيل الأخضر واليابس إلى هباء، ومن ذلك الهباء تُبعث الحياة.

شُهقت يارا، واعتصرت صدرها المرتجف:

— أين أنا الآن؟

ابتسمت الإمبراطورة ابتسامة موحشة، وقالت:

— أنتِ في بداية النشأة... لقد خرجمتِ من الكون، والآن... أنتِ أنت.

بدأ صوتها يتلاشى شيئاً فشيئاً مع دقات عنيفة تضرب من أعماق العدم. حاولت يارا التمسك بصوتها، لكن ملامح الإمبراطورة تشوّهت أمامها. مدّت يدها لتلمس وجهها، غير أنّ جسدها بدأ يتلوى وسط سواد ثقيل يخيم على كل خلية فيها.

تشنجت، وذاكرتها أخذت تستحضر وجوهًا متفرقة من حيوانات بعيدة، بينما السواد امتد إلى قلبهَا، فانتزع مكانه عروقًا من حمم لاهبة. أغمضت عينيهَا تستجمع قوتها، لكن لا جدوى؛ عقلها وروحها وقلبهَا صاروا ملگًا لمكان لا تعرفه. همسَت برجاء:

– أرجوك... لا تسْلُبْ ما تَبْقَىْ مِنِّي. أرجوك...

ثم سقطت فجأة، لفتح عينها وسط غيمتين ملبدتين بالرعد والبرق. مدت يدها تتحسس جسدها، فاكتشفت أنه شفاف كالهواء.

تجمد البرق حولها، كأنه ينتظر أنفاسها للتأذن له بالانطلاق، بينما الرعد دوى كأنين آلاف الأرواح المحبوسة. رفعت يدها المرتجفة نحو الغيوم، لكن أصابعها احترقتها بلا أثر. وفجأة، انشق الأفق إلى شق أسود لا نهائى، خرجمت منه عيون متلائمة كالنجوم الحية، تحدق فيها مباشرة.

ارتجمف قلماها كطبل حرب قديم، بينما الصوت يملأ الأفق:

– أنتِ لستِ ضائعة يا يارا... بل نحن من تاه فيك.

تجمدت مكانتها، والعيون تتشكل إلى وجوه مختارين من عوالم اندثرت، ينظرون إليها بإجلال، ويهتفون بصوت واحد:

– أنتِ تحملين العالم السابع... العالم الذي ابتلوك قبل أن تولدي، والآن جاء وقت أن يولد منك.

صرخت يارا:

– لكنني لست مستعدة! أنا مجرد فتاة!

اهتزت الغيوم، وتساقطت قطرات من نور تحولت إلى رموز كونية تحوم حولها. حتى
الرعد تبدل، وصار أصواتاً بشرية تهمس من كل الجهات:
– إما أن تنسجينا... أو تدمرينا.

وبينما هي في ذهولها، انبعثق أمامها جناحان عظيمان، أحدهما من الظلام والآخر من
النور، يتصارعان ويتعانقان في آن، كأن الكون نفسه انقسم ليعرض عليهما اختياراً
مرعباً:

أن تنصهر مع العالم السابع وتولد ككائن يتجاوز كل المختارين...
أو ترفض، فتذوب هي والعالم الذي يسكنها في العدم إلى الأبد.

جثت يارا على ركبتيها، الدموع تتتساقط من عينيها الشفافتين كالندى المحترق،
وصرخت بصوت ممزق:

– أخبريني يا إمبراطورة... هل هذه هي الحرية التي كنت أبحث عنها؟

لكن لم يأتِ جواب... سوى صدى قلها، الذي لم يعد قلباً بشرياً، بل صار يقوع
كجرس كوني لا يتوقف...

:

شعرت يارا بفيض من العيون تعفنها بنظرات سامة من بين الظلام المهلك

وتساقطت الرموز الكونية حول يارا في بطل شديد، كما لو أن الزمن نفسه صار أثقل من أن يتحرك. كل رمز يلمس كتفها، يذوب فيها كهمسة، وكأنه يذكرها بشيء قديم جدًا لم تعش يومًا... لكنه محفور في جوهرها.

أغمضت عينيها للحظة، وشعرت أن أنفاسها لم تعد تنتمي لها. كأنها تستنشق هواءً لا ينتمي لهذا الكون، وكان صدرها صار بوابة لعالم آخر.

ارتجم صوتها وهي تهمس:

"لماذا أنا؟... لم لم يختاروا غيري؟"

لكن الفراغ لم يجد، إلا أن العيون المتلائمة ظلت تحدق فيها، أقرب فأقرب، حتى
كادت تذوب في داخلها. شعرت بثقل رهيب يضغط على كتفها، وكأن ملايين الأرواح
تسرب إلى عروقها، تبكي، تصرخ، وتضحك داخلها في نفس الوقت.

سقطت على ركبتيها ببطء، راحتها على الأرض المظلمة. لم تكن أرضًا... بل كانت
نسيجًا من ضوء قاتم، كل خيط منه يرتجف مع خفقان قلبه.

رفعت رأسها، والدموع تنحدر على وجهها، لكنها لم تكن دموعًا عادية... كانت سائلة
من نور شفاف، كل قطرة تسقط على الأرض تحول إلى نجمة صغيرة ثم تختفي.

همست من جديد، بصوت أضعف:

"إن كان هذا قدرى... فدلونى... كيف أعيش بثقل عالم كامل داخلي؟"

وفجأة... ساد صمت لم تعرف له مثيل. حتى أنفاسها تلاشت من مسامعها. وببطء
شديد، انبعث صوت جديد من العدم... صوت لا يشبه أي شيء عرفته. كان صوتًا
هادئًا، لكنه يطرق قلبه كالمطر الناعم:

"لا تعيشيه... دعيه يعيشك."

شعرت يارا بقشعريرة تجتاحها من قمة رأسها حتى أطراف أصابعها.

و فجأة

تفتّحت العتمة أمام يارا، وإذا بالفراغ يتحول إلى بحر من ألوان سماوية لا توصف. لم تكن ألوانًا مألوفة، بل خيوطًا من نور لا تدركها العين البشرية، كأنها جزء من لغة الكون السرّية.

في قلب هذا البحر، ارتفع عمود من الضوء الأزرق الغامق، ملتفّ حوله حالة سوداء مشعة، تنبض كما لو كانت قلبًا كونيًا حيًّا. وكل نبضة منه كانت تهز يارا من الداخل، تجعل دمها يرتجف وعظامها تتشقق من قوّة لا تقاوم.

مدّت يدها دون وعي نحو العمود، لكن ما إن اقتربت حتى أحسّت أن روحها نفسها تُسحب للخارج، كأنها ليست سوى شرارة صغيرة وسط نيران لا تنتهي.

وفجأة... وفي تلك اللحظة، تجمّعت الكائنات المجهولة، لم تكن أجسادًا ولا أرواحًا، بل أطيافًا عملاقة تسبح في الفراغ. كل طيف منها يحمل تاجًا من نور أسود، وأجنحة

ممتدة كال مجرات. كانت تراقبها في صمت رهيب، كأنها المحكمة الأبدية التي لا تعرف رحمة.

ومن بينهم ارتفع صوت مهيب، لم يخرج من فم، بل من عمق الوجود نفسه:
"أنتِ لستِ مختارة فحسب... أنتِ التي ابتلعت عالماً كاملاً قبل أن يولد اسمك."

ارتجم جسد يارا، والدموع النورانية تساقط من عينيها بلا توقف.

"لكن... إن كان العالم داخلي... فأين ينتهي أنا... وأين يبدأ هو؟"

سكتت الطيوف للحظة، ثم تحرك العمود الأزرق فجأة، كأنه يجدها بنوبة عظمى. وفي تلك اللحظة انفجرت حولها دوامة من الرموز المضيئة، التفت حول جسدها وصارت تنشق على جلدها علامات لم تفهمها، كأنها لغة الكون منقوشة عليها إلى الأبد.

وفي اللحظة الأخيرة، سمعت الهمس الأول يعود إليها، أكثر وضوحاً، أكثر أسطورية:
"أنتِ ليست ابنة عالمٍ واحد... بل جسرٌ نحو ولادة كونٍ جديد."

انحنى الفراغ كله، لأن العدم ذاته يركع لها.

انفرجت الأطیاف العملاقة، تراجعت في صمت كأنها تسلّم الطريق لشيء أعظم.

ومن أعماق الفراغ، تفتحت بوابة هائلة، لم تكن بوابة من حجر ولا من نار، بل قوساً مصنوعاً من صرخات وأحلام متكسرة، تتدفق منه أنفاس الكون نفسه.

وراء البوابة... ظهرت ألف عرش، مصطفة في صفوف تمتد بلا نهاية. لم تكن مجرد عروش، بل كأنها قبور ملوك سُجّل تاريخهم بدمائهم الخاصة. كل عرش ت نقش عليه رموز غامضة تشبه جروحاً لا تندمل، وكل رمز ينفر ضوءاً أحمر يقطر ببطء شديد، ك قطرات زمن يذوب.

ثم، ببطء مرّع، ارتفعت فوق العروش أرواح صغار... أطفال بملامح نقية، لكن عيونهم تشع بحكمة آلاف القرون. حمل كل واحد منهم غصن زيتون ضخم، أوراقه تتلألأ بلون زمردي يخترق الظلام.

رفعوا أغصانهم عالياً، وهتفوا بصوت واحد، كأن المجرات كلها تنطق معهم:

"نحن بانتظارك... يا يارا."

اهترّت البوابة بعنف، وانغلقت فجأة كأنّها لم تُفتح قط.

و قبل أن تستوعب يارا ما رأت، اجتاحها نور أسود سحّمها من مكانها و رماها في هاوية أخرى.

سقطت في دوامة سوداء هائلة، جدرانها ليست جدرانًا، بل تروس ذرية متداخلة، كأنّها قفص مصنوع من أسرار المادة نفسها. كانت القيود الذرية تتشابك حولها، تضغط على قلبهَا، تجعل تنفسها ينقطع لحظة بعد لحظة.

ثم... تحول المشهد فجأة.

وجدت نفسها ترتدي ثوبًا ناصع البياض، يتوهّج كأنّه حيّ، وأمامها يقف شخص غريب. لم يكن له وجه واضح، بل ملامح تتغيّر كل ثانية، كأنّ الزّمن يرفض أن يثبت صورته.

ابتسم ذلك الغريب ابتسامة باردة، وقال بصوت يقطع الصدى:

"من المضحّك... أنك وصلت إلى هنا مبكرًا جدًا، جدًا."

شعرت يارا بأن الأرض تختفي من تحت قدمها، فأشار الغريب بيده ببطء، وقال:

"انظري خلفك."

التفتت يارا... وإذا بالمكان يمتلئ بجثث.

جثث لكل من عرفتهم.

وجه أمها، ساكن بلا روح.

أورافين، مطروح أرضاً وسيفه مكسور.

أنيت، عيناهَا مفتوحةتان تحدّقان في الفراغ الأبدى.

الزولفيا، الأركانيس، وحتى من لم يكن لهم مكان في قلبهَا... الجميع، ممدّدون بلا حياة، كأن الموت ابتلع العوالم كلها وأعادها أمامها.

انحنى ركباتها من الرعب، وصوتها يكاد يختنق وهي تهمس:

"هذا... مستحيل."

ابتسم الغريب أكثر، واقترب منها خطوة بخطوة، حتى صار صوته يملأ دماغها:

"المستحيل... هو الشيء الوحيد الذي تبنينه ببطء داخلك، يا يارا."

تراجعت يارا خطوة، والدم يطرق في أذنيها كأنه طبول حرب قديمة.

لكن الغريب لم يتوقف، بل رفع يده إلى الأعلى، وعندما فجأة تحولت الجثث الملقاة أرضاً إلى تماثيل من رماد. تطاير الرماد في الهواء، وصار يدور حولها كإعصار هادئ، كل ذرة منه تحمل ملامح من أحبتهم.

قال الغريب بصوت يجلجل:

"هذا هو امتحانك..."

أنتِ تحملين قلب عالم كامل، لكنك لم تتعلمي بعد أن تميّز الوهم من الحقيقة.

هل ستغرين في الحزن... أم ستستخرج من داخلك القوة التي تليق بمن تحمل

"العالم؟"

شعرت يارا بقلبها ينقبض، ثم فجأة غُرست قيود ذرية في ذراعيها، في صدرها، وفي عينيها نفسها.

لم تعد ترى إلا سواداً حالكاً، صوت الغريب صار يتعدد في أعماقه:

"إن كسرت هذه القيود... فستُفتح لك أبواب السابع."

"إن فشلت... فلن تكوني سوى ذكري أخرى تنضم إلى جثث الماضي."

القيود أخذت تشد أكثر، حتى صار جسدها يرتعش من الألم. لكن وسط كل ذلك، انبعث من داخلها صوت صغير، ضعيف... كأنه أتى من أعماق روحها:

"أنا... لست ضعيفة."

توسعت القيود فجأة، كأنها ارتبكت للحظة، وبذلك انشق الضوء من بين حلقاتها. الأطفال الذين رأتهم قبل قليل ظهروا من جديد، لكن هذه المرة لم يكونوا بعيدين؛ بل أحاطوا بها، يمدون إليها أغصان الزيتون المضيئة.

وقالوا بصوت واحد كأنهم يفتحون لها الطريق:

"الاختيار لك... يا وريثة السابع."

ستفعلين ذلك.

إنهمرت الدموع على الأرض كخناجر دامية، ثم نهضت يارا، وقالت بصرخة مكتومة: "مستحيل... هذا مستحيل! هذا غير عادل... غير عادل بتاتاً! لقد هربت من مصير لأجد نفسي في نفس المكان... لماذا أكون أنا حاكمة العالم السابع؟ لماذا؟"

ترددت صرخاتها في العتمة، ثم تراجع الغريب بخطوات ثقيلة، وجلس على الفراغ المميت أمامها، وقال بصوت هادئ لكنه مثقل بالسلطة:

"منذ فجر البداية الكونية، وجدت أربعة مجرات، وكل مجرة تحمل كونين، وكل كون يحمل عوالم شتى. لكن هناك كون لم يحمل أي عالم، لأن حاكمته ضاع أثرها بين ذرات الأكوان، لذلك جعلنا منك أنت البداية لهذا العالم ونبذناك في عالم فاسد... وملوث بالقتالات وبالأنانية. لكن الإمبراطورة قبلت بك، رغم أنها لم تخترك، ولو أنها تركتك لتعيثنين في الأرض ببساطتك، لما وجدت الطريق إلى هنا، ولما تصادفت وجوهنا، أيتها الحاكمة. غير أن الكون لديه طريقته في تحضير كل شيء... تركك وحيدة لسبب ما، وعاقبك لسبب آخر. لكن المتفق عليه هو أنك لم تكوني جزءاً من تلك العوالم، ولست تابعة لهم. إلا أن استحوذ الإمبراطورة على هويتك أفقدك طعم الحرية... جعلك مختارة رغمماً عنك، ورغمماً عنا، ورغمماً عن كل شيء."

وأضاف بعد لحظة صمت ثقيل:

"كان العالم فيك ولم تعلمي ذلك، وهذا أفضل لك، لأنك لو علمت لما تقدمت بجسارة كل هذه المحن بقوة. لقد تركت بصمتك رغم حرصك على مبادئك. وربما ذلك الكون اشتاق إليك كما تشتق الأم إلى وليدتها، لذلك اصطدم بالكون الآخر محدثاً شرخاً عظيماً، تناسب منه كل الطاقات، وكأنها أرض ظمانة، وجذبك نحوه... وأنت الآن تسبحين في ملكك".

تنفست يارا بعمق، وأنفاسها انفجرت مع كلماتها:

"أنت مستحيل... أنا لست كما تقول! أنا ابنة أمي وأبي ورفيقة أصدقائي... أنت تكذب! أنت تخدعني بالتأكيد... أنا ما زلت في عالمي الذي ترعرعت فيه... أنت كاذب كبير... قل إن ذلك كذب!"

لكن الغريب أومأ برأسه ببطء وقال:

"لا... أنت في منزلك الآن، لا داعي لاسترجاع الذكريات العابرة".

قالت يارا، وهي تصرخ:

"عبيرة... عابرة؟ هل تمزح معي؟ إذن هناك حاكمة ضائعة ولم تجدوا بديلة عنها غيري... أنا لا تجعلني أضحك!"

ثم انفجرت يارا بالضحك الهستيري، حتى سقطت دونوعي نحو الظلام الكثيف، الذي حملها إلى حقل من النيازك المتجمدة فوق كوكب أحمر. كان الكوكب عملاقاً، يهيم على المكان كله بظلال عريضة، بينما شعرت جسدها يتفتت كالصخور اللينة. ثم ارتطمت بالأرض فجأة، وألمها كان يخترق كل ذرة من جسدها، كأن شفافيتها اختفت، وطعنات تسري داخل لحمها الطري.

نظرت إلى الأعلى بخوف لتجد الغريب نفسه أمامها، وقال بصوت بارد: "من المؤسف... أنك مزيج مأساوي من كل الأعراق. لكن أتمنى أن تمضي بك الأيام، وتكتبري في هذا العالم الذي تربى داخل جسدك الصغير... أتمنى أن تنسى ما مضى، وتمضي في سبيل الحياة".

ثم أطلقت يارا أنفاساً ساخطة، وقالت وهي تنظر حولها: "أكرهكم جميعاً... لأنكم ضحيتكم بي لأجل مصلحتكم، أئها الأوغاد! أكره هذا العالم، ولن أسامحكم، لأنكم سجنتموني في الوهم... أئها الملاعين! سوف ترون... لكن هذا... هذا... هذا!!"

وتواصل نحيمها حتى غاصت في النوم. وعندما استيقظت بفتور شديد، ونظرت حولها، ازداد بكاؤها، حتى أغرت التراب بدموعها، وقالت: "أريد العودة إلى المنزل... أريد العودة!"

فجأة، سمع صوت تصفيق قوي يأتي من جانبها. ركزت نظرها، لكنها لم تلمح شيئاً، ثم شعرت بيد تلمس خدتها، لكنها لم تر أي شخص. وقال الصوت الأنثوي الرقيق:

"ما بال هذه الصغيرة تبكي وحيدة هنا؟"

تجمدت يارا لوهلة، وهي تستمع إلى ذلك الصوت، الذي كان يحمل رجفة أزلية، كأنه خرج من أعماق كوكب حي. أحست بيد خفية ترفعها عن الأرض، وكان الأرض الحمراء سلمتها إلى قوة أخرى.

وبينما كانت عيناهما غارقتين في الدموع، بدأت الملامح تنكشف ببطء... فتاة غامضة، شعرها يتدفق كسيل من الغبار الكوني الأحمر، وعيناهما تشعّان بلون السديم المتوهج. ابتسمت ابتسامة هادئة، وقالت:

"تعالي... هذا ليس مكاناً للبكاء. هنا يبدأ طريقك الجديد."

وبإيماءة واحدة من يدها، انشقت التربة الحمراء لتصعد منه جسور من صخور متوجهة، شكلت طريقاً ضيقاً يصعد نحو أعلى الجبل العملاق. كانت الصخور نفسها تتنفس، ينبثع منها بخور عطر يمزج بين رائحة الرماد والمسك، لأن الكوكب كله يصل إلى خطواتهما.

صعدت يارا ببطء خلفها، وكل خطوة كانت ثقيلة على جسدها، لأن الجبل يمتحنها: ويسألهما:

"هل أنتِ قادرة على حمل نفسك قبل أن تحملني عالماً كاملاً؟"

وحين وصلنا إلى القمة، انكشفت أمام يارا قرية لم تر مثلها قط. كانت عالقة بين السماء والأرض، بيوتها محفورة داخل الصخور الحمراء كأنها كهوف منسوجة بالنور، وأسقفها مغطاة بكريستالات ضخمة تتوهج بألوان أزرق وأرجواني. كل منزل كان يتنفس مثل كائن حي، يتوجه مع نبض الأرض.

وفي وسط القرية، ارتفعت شجرة أسطورية، جذعها أسود كالليل، وأغصانها من لهبٍ بارد لا يحرق، بل يضيء السماء بوميض لا ينطفئ. وعلى أغصانها كانت هناك طيور غريبة، أجسادها من معدن أحمر، وأجنحتها من زجاج يتكسر ويعود يتشكل مع كل رفرفة.

توقفت يارا مذهولة، وقلما ما زال مثلاً بالحزن، لكنها شعرت لأول مرة أن الهواء لا يخنقها، بل يحتضنها. رائحة البخور التي تصاعدت من الأرض كانت تذكرها بأمهما، ببيتها، بالذكريات التي حاول الغريب محوها.

قالت الفتاة الغامضة وهي تضع يدها على كتفها:

"هذه هي قرية أوماريس... المكان الذي يخبي فيه الكوكب أسراره. نحن أبناء هذا الجبل الأحمر، نحيا بين النيازك التي تحرس سماءنا، وننتظر منذ قرون أن تأتي الغريبة التي تحمل السابع في داخلها."

ارتجمت يارا، دموعها لم تتوقف لكنها تحولت إلى دموع صامتة، وكأنها بدأت تتصالح مع قلبهما. نظرت إلى القرية، ثم إلى الشجرة المضيئة، وقالت بصوت مبحوح: "أنا... لستُ مستعدة. كل هذا يفوقني."

ابتسمت الفتاة ابتسامة غامضة، ورفعت يدها نحو السماء. فجأة، انفتحت السحب الحمراء لتكشف عن حلقات من النيازك التي تدور حول القرية كأساور كونية ضخمة. كل نيزك كان محفوراً برموز مضيئة، كأنها حكايات منسية كتبت في الحجر.

همست لها:

"لا أحد يولد مستعداً يا يارا... لكنك لستِ وحدك بعد الآن. هذا الجبل، هذه القرية، وهذا الكوكب... سيدرك دائمًا أن العالم السابع لم يبتلعك ليديرك، بل ليجعل منك صوته الأخير."

شعرت يارا أن الأرض تحتها تنبض مع قلبهما، لأن الكوكب نفسه بدأ يتنفس معها.

وبمجرد أن وضعت قدمها على تراب الكوكب الأحمر، داهمها نعاس قهري غريب، كان قوة غامضة تنتزع منها آخر ما تبقى من وعيها. لم تستطع المقاومة؛ أغمضت عينها وسقطت بهدوء على الأرض التي بدت كأنها تنفس من تحت جسدها.

انزلقت في نوم عميق، نوم لم يكن عادياً... بل سبات يمتد على حدود الزمن. في تلك اللحظات، كان جسدها يتغير ببطء. ملامحها الطفولية ذابت لتترك مكانها لامرأة ناضجة، خطوط وجهها صارت أكثر وضوحاً، وعظامها اكتسبت صلابة، وصدرها ارتفع كعلامة على اكتمالها. اختفى اللون الأزرق من عينيها تدريجياً، ليذوب في عمق عسلي متقد، بينما خصلات شعرها تحولت من البني المائل للزرقة إلى سواد حalk يلمع تحت خيوط الضوء الأحمر للكوكب.

كان العالم بأسره يراقبها. هذا العالم الذي ظل حبيساً في داخلها لسنوات، قد انفتح الآن واستعاد وجوده الحقيقى. كل كائن فيه يعرف قصتها، يعرف أنها، يعرف رحلتها منذ أن كانت طفلاً حتى صارت هذه المرأة النائمة بين ذراعي القدر. لذلك لم يتركوها على الأرض؛ حملوها بهدوء، دون كلمة واحدة، وساروا بها عبر مسالك سرية وسط الجبال الحمراء حتى وصلوا إلى قصر الملوك.

قصر شاسع، مبني من حجارة متوججة، جدرانه تنبض كأنها دماء متجمدة، وأعمدته تعانق السماء. وضعوا يارا على سرير من زجاج أسود محفور عليه رموز قديمة، ثم انسحبوا جمِيعاً في صمت، وكأنهم يؤدون طقساً مقدساً.

بقيت يارا هناك، غارقة في سباتها العميق الذي امتد أسبوعين كاملين. وخلال تلك الفترة، هبت ريح غريبة في أرجاء القصر، تراكمت حول سريرها ثم تجسدت شيئاً فشيئاً في شكل أسد ضخم، عيناه جمرتان تتقدان وسط الظلام. تقدم بخطوات ثقيلة، راقبها للحظة، ثم تحولت هيئته فجأة إلى رجل ضخم البنية، بشرته سمراء قاتمة، وعيونه كالسود المطلق.

اقرب منها، انحنى قليلاً ليتفحص ملامحها المتغيرة، ثم همس لنفسه:
"هذه إذن الحاكمة... لكنها لم تتحول بالكامل بعد."

سكب ماءً بارداً من قارورة حجرية فوق جبينها، فتوهج جسدها للحظة كما لو أن النجوم انعكست على بشرتها. عندها، انقضّ صقر أسود من أعلى القصر وهبط بجانها، طوى جناحيه ونام بالقرب منها.

نظر الرجل إلى الصقر وقال بصوت جهوري:
"إياك أن تفارقها... ربما تستيقظ الليلة."

ثم جلس عند عتبة القصر، يترقب بصمت، بينما يارا ما زالت غارقة في نومها الطويل، بين حدود الطفولة التي غادرتها والقدر الذي ينتظرها.

كان القصر قديماً ومهجوراً من أي حياة، وكان هذا العالم متزوكلاً إلا من الأطلال المتهدمة وأجسادٍ خلدتُها التربة الحمراء. بدا المكان كمدينة أشباح لا يسمع فيها سوى صدى الريح يتتردد بين الأعمدة.

استيقظت يارا، وقد داهمها شعور قوي بأنها تغيرت كثيراً، حتى إن صوت نبضات قلبه لم يعد مألوفاً، بدا أكثر ثقلًا وأشدّ وقعاً، وكأنه ينبض بإيقاع غريب لا ينتمي إليها. ثم انتبهت فجأة إلى وجود الصقر بجانبها، يغطّ في نوم عميق. غير أنها لم تُعرّه أي اهتمام، فقد ظلت عيناهما مشدودتين إلى مشهد الأعمدة الحجرية المنقوشة برسومٍ عجيبة، وكأنها تتحدث بلغة خفية عن تاريخ غائب عن الوجود.

نهضت من على السرير بخطوات متثاقلة، واقتربت من تلك الأعمدة، لكن قدميها كانتا تتشابكان وتفترقان، كأنها تسير فوق أرضٍ متعددة بين احتضانها ورفضها. ومع ذلك تابعت المسير حتى وقفت أمام العمود الكبير، وهناك اقشعر جسدها حين لاحت وجه امرأة فاتنة تشهماً كثيراً، وخاصة بريق عينيها الذي كان يشي بحزنٍ دفين وتاريخٍ ساحق. عندها مررت يارا أصابعها الحنطية على النقوش التي راحت تتلون كلما لمسها، وكأن الحجر يتجاوب مع حرارتها.

ثم وقعت عيناهما على رسمة مخيفة: سبعة كواكب عظيمة، غير أن أحدها كان طاغيًا على الجميع، كأنه امتصّ عبيرها وشمسمها وبهجتها، حتى بدت تلك الكواكب سوداء كسود الليل الدامس. وبين الكواكب، رأت فتاة تهوي إلى هاوية عميقة، وفي تلك الهاوية كانت تستعر نيران مرعبة. أشخاصٌ مجهملون وقفوا يمنعون النيران من الوصول إلى الفتاة التي رفعت يدها في شكلٍ مأساوي، وجسدها بدا محترقًا، لا من النار بل من شيء آخر غامض لا يُسمّى.

وفجأة، أحسّت يارا بصوت طقطقة عظامٍ يتربّد من خلفها، فارتجمفت والتفتت في هلع، لترى شخصًا أسمر البشرة، عيناه مربية، يكسوها بريق غامض ينذر بالخطر. حاولت يارا أن تستوعب ما تراه، فتقدّمت لتتكلّم، لكن صوتها اختفى، وكأن حنجرتها قد سُلبت.

حينها قال الرجل بعدما أمسك بذراعها بقوّة:
— يجب أن تكملي الطقوس الملكية، وبهذا سوف تسترجعين حقيقتك، أيتها الملكة.

تذكّرت يارا على الفور حديث ذلك الغريب عن كونها حاكمـة العالم السابع. فارتدت متراجعة إلى الخلف، والذعر يتطاير من عينيها، وحاولت بكل استماتة أن تُخرج الكلمات العالقة من حنجرتها، لكنها فشلت.

واصل الرجل قائلاً:

— أنا اسمي فهد، وربما تجدين هذا غريباً، لكنني كنت خادم الإمبراطورة السابقة التي اختفى أثراها... لقد عاش هذا العالم، ونحن معه، داخلك. لذلك، وبما أنكِ الإمبراطورة المستقبلية، يجب أن تفي بشروط الخلافة، وإلا سوف تُدمرين.

ثم أطلق ترنيمة غامضة، فاستيقظ الصقر على إثراها وحلق عالياً باسطاً جناحيه، حتى غمر المكان لون الشفق الأحمر. وبعد أن رمق فهد يارا مطولاً قال:

— هذا العالم لا يختار بعشوائية، بل ينتقي من يستحقه. ومن النادر أن يصمد أحدٌ أمام قوة هذا العالم. نحن شعبٌ واحد، لا غيرنا هنا، ولأننا العالم الوحيد في هذا الكون، فإننا نتحكم في زمام كل شيء تقريباً. غير أنّ الإمبراطورة السابقة رحلت دون عودة، وقد مضى على غيابها تسعة قرون. أظنهما ارتحلت إلى الكون الآخر الذي كنتِ فيه. ومنذ رحيلها، والخراب يهددنا، خصوصاً بعدما امتص هذا العالم سحر ويل المجنون، فصار أكثر نشاطاً وحيوية من ذي قبل. لذلك، يجب أن تسعدني ولا تحزني.

نظرت إليه يارا، وقد تملكتها إحساس عميق بأنها لا تنتهي إلى أي مكان. رفعت يديها وأشارت إلى النقوش في العمود. عندها عبس فهد قليلاً، ثم أمسك بوجهها قائلاً بنبرة متعددة:

— أنتِ الآن امرأة ناضجة، ومن حركك أن تعرفي حقيقة وجودك. تلك الفتاة... هي أنتِ. لقد خلد هذا المكان العتيق ذكريات الجميع، مثل ذلك المكان الذي يسمى دهليز الأحلام. إنه غريب عند رؤيته من خلالك. نحن هنا نتوارث الذكريات من بعضنا البعض. وأنتِ، أيتها المختارة، أو لنقل الإمبراطورة، في وضع حرج بعد أن تركتِ

العوالم تختنق في دوامة مصيرك. عالم زوديا سوف يُدمَّر عن قريب، لأنك – أيتها الشجاعة – قد استخدمتِ ما يكفي من طاقة عالمنا كي ترسخي هنالك في زوديا. أنا أشعر بالأسف لتلك الإمبراطورة، ولكن ذلك كان نتيجة أفعالها المتهورة. لو أنها أطلقت سراحك، لكنتِ هنا منذ زمن بعيد. وهذا النقش مستقبل بعيد، لكنه سيتحقق. وما هنالك في الأعلى إلا ذكري. هذا العمود يخزن الكثير، ومن النادر أن يُفهم سبب وجودها. لكن الآن... يجب أن تكملي الطقوس. هيا بنا.

جذب فهد يد يارا وسحّبها نحو المنحدر الكبير المقابل للقصر الحجري المنمق بألوان غريبة. لفت انتباها حينها تنهّفه إلى إدخالها في سرداد كبير. دخلت يارا ببطء، وهي تتأمل الأشياء المركونة في كل مكان. ثم فجأة قدم لها فهد بعض الملابس قائلاً:

– غيري ملابسك، سأحضر لك الطعام.

ارتدت يارا فستاناً ورديّاً جميلاً طويلاً كشف عن رقبتها الحنطية وشعرها الأسود الفاحم، ثم رفعت شعرها إلى فوق وقالت في نفسها: أشعر بشيء غريب، لكنني لست متأكدة... غير أن أفكارها قوّطعت حين عاد فهد وأعطها صحنًا مليئًا باللحم وقليلًا من المرق قائلاً:

– كلي، وسننتظر مير حتى يأتي إلى هنا.

أنهت يارا طبقها، وبعد ساعات من الانتظار وصل مير، الصقر الذي كان بجوارها طوال نومها. عندها نهض فهد، أخذ بعض الحطب وأشعلها، غير أنّ اللهب لم يُخرج

دخانًا بل بخورًا قويًا عصف بحواس يارا، حتى تخدّرت حركتها واستلقت بجانب الحطّب، كأن شيئاً غامضًا أمرها بذلك.

ثم أخذ فهد سكيناً وزجاجة صغيرة فيها سائل قرمزي اللون، سكبه على رأس يارا وقال لها:

– يجب تطهيرك من كل ما مررت به... كل شيء سلبي سوف يتّixer مع هذا البخار الأثير. لا تقلقي، سوف تسترجعين عافيتك ولن ينالك مكروه. أغمضي عينيك.

أغمضت يارا عينيها، وأحسّت بحركات فهد وهو يُدلك الهواء من حولها، ثم أدخل أطراف أصابعه في شعرها، ومر السكين فوق رأسها الساخن. لكن يارا لم تشعر بالحرارة، بل أحسّت بـلـسـعـاتٍ تـشـبـه لـسـعـات الدـبـور في حـنـجـرـتها. أرادت رفع يدها، غير أن فهد همس في أذنها مطمئناً:

– لا تقلقي... استرخي.

تنفست يارا بعمق، ثم شعرت ببشرتها تتوهج، وجسدها ينتفض بقوة. كانت قوة لا تُطاق لكنها مساملة. تجذرت تلك الطاقة في أنسجتها حتى بلغت رأسها. فتحت عينيها لترى فهد يتّصبب عرقاً، وهو يقول:

– آسف، لكن قوتك قد استنزفت كل طاقتـي... من الصعب جعل تلك القوة تتوازن مع تلك المشاعر السوداوية. لذلك أرجوك، لا تشعري بالفراغ... أرجوك.

كان وجهه محتقناً، فقالت يارا، وقد أحسست بالغرابة لأن صوتها تغير:

– ماذا حصل؟

ظللت تعابير الإرهاق راسخة على فهد، لكنه تمالك نفسه واستند إلى مير بجانبه وقال:

– طاقتك ملوثة جدًا. رغم أنها متّشعبة في عالمنا، لكنها ملوثة بسحر ذلك المجنون. ورغم أن العالم امتصّه، ظلّ أثر السحر يتّجول في جسده مثل المرض. ومن بين آثاره الجانبية أنك دائمًا تخافين من استخدام قوتك حتى في أبسط الأمور. لا تقلقي، لقد عالجت الأمر بطريقتي. لكن إياك ثم إياك أن تستعملي قوتك وأنت منشغلة بمشاعرك، أرجوك.

فهمت يارا من حديثه أن ما جرى ليس بالهين، وقالت بعد أن نهضت:

– إذن لقد أخبرتني أن النقوش التي تخصّني هي رؤية مستقبلية.

هبت نسمة عليلة على وجه فهد فشعر بالغبطة وقال:

– نعم، بشأن ذلك الموضوع... الآن لقد اكتملت الطقوس. يجب أن نفكّر فيه، رغم أنك سيدتي، لكن سأقولها، فاغيري وقاحتي.

قالت يارا:

– ماذا؟

قال فهد:

– زوديا وكل العوالم سوف تنهال على بعضها بسببك، وخاصة العالم الخامس الذي وضع فيه... لقد تركت الكثير من قوتك هناك إلى درجة أنها سببت خللاً في توازن العالم. أنا أحذرك، طاقة التوازن خطيرة، وليس من الجيد السخاء بها في غير موضعها. وبما أنني رأيت الكثير من خلالك، أعرف أن الأمر لن يمرّ على خير. لذلك، غداً سذهب إلى القرية، يجب أن تتشاوري مع الجميع بشأن ما ستفعل.

قالت يارا بسذاجة:

– أنا؟ وكيف سأفعل ذلك؟

قال بغضب، لكن ملامحه ظلت ثابتة:

– ذلك الشرخ سيسحب العالم إلى هنا، كما سحبك أنت بالفعل. لذلك لا ترمي هذا الوجه، يا سيدتي.

قالت يارا بجدية:

– أظهر بعض الاحترام إن لم ترد الموت.

قالت يارا هذه الكلمات بوجهٍ صارم، فضحك فهد وقال:

– لا تغصبي يا سيدتي، الابتسامة تليق بك أكثر. وجدّياً، أنت شخصية اجتماعية كثيّراً، لذلك أحبك الجميع، وخاصة ذلك المسعور.

قالت يارا:

– من تنعت بالمسعور؟

قال بعد تردد:

– ذلك الملقب بجوارا... مسكين حقاً.

قالت يارا:

– لماذا تتحدث عنه هكذا؟ وكيف لك أن تعرفه؟

قال فهد وهو يتتجنب نظراتها الفضولية:

– حسناً، أنت تعرفي أنك كنت تحشرين عالماً بأسره داخل جسدك، ونحن فيه. لذلك نحن نعرف الكثير.

قالت يارا:

– إذن، إلى ما ترمي بكلامك؟

قال بعد أن ضاق ذرعاً:

– ذلك المتهور سوف يلقي بنفسه في الجحيم إن لزم، لأجلك أيتها المتمنة... كما فعل سابقاً. وأراهن بلحيتي أنه سيفعل، لأنه يحبك.

نظرت يارا إليه وقالت:

– هذا غير صحيح. جوارا صديقي، وما فعله كان دافعه الصداقة.

قال فهد بعد أن بللت وجنتيه دموع الضحك:

– آسف، لكن الرجل لا يخاطر بنفسه من أجل الصداقة... نحن هنا نفهم كيف يجري الحب أكثر من الهواء الذي نتنفسه. لذلك، لقد راهن أهل القرية على لحيتي الثمينة إن لم يحدث شيء ما بينكم. وأنا أظن أن رجولتي ستذهب بسببكم.

قالت يارا له:

– حب إذن؟ أخبرني، هل أنتم حَقَّا تركتم كل شيء وراهنتم على شيء مستحيل مثل هذا؟ وعلى ماذا؟ على لحيتك؟

نظرت يارا إلى لحيته، ثم قالت مجدداً:

– حسناً، إذا كان كلامك صحيحاً سأراهن على قوتي. إن أتى جوارا سوف أستخدم قوتي لفعل ما تريدونه. وإذا كان كلامك ادعاءً، سوف أحلقها بنفسي.

تصافحا الاثنان بموافقة، وعيونهما تقطر حماساً.

ثم قالت يارا:

– أحس أن جسدي أصبح أثقل.

قال فهد وهو يتفرس فيها:

– أنتِ ناضجة كامرأة، لكن يا سيدتي عقلك ما زال في مكانه سليماً. لذلك لا تشغليه، ونامي... أرجوك.
